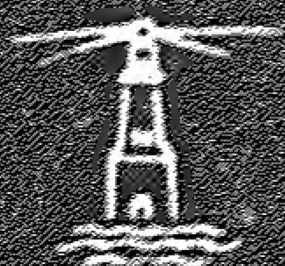
يوشع براور

عالم الصليبيين

ترجمة وتقديم وتعقيب :-

دكتور قاسم عبده قاسم

دكتور محمد خليفة حسن



دار المعارف

عـــالم الصليبين

يوشع براور

عالم الصليبيين

ترجمة وتقديم وتعقيب

دكتور قاسم عبده قاسم
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

دكتور محمد خليفة حسن
مدرس تاريخ الأديان
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٨١



دار المعارف

هــذه ترجمــة كتاب :

The World of the Crusaders

By: Joshua Prawer

Quadrangle Books

New York 1972

النــاشر : دار المعــارف ــ ١١١٩ كورنيش النيــل ــ القــاهرة ج٠م٠ع

بسم الله الرحمن الرحيم

تقــــــديم

حين تطـرق عبارة « الحروب الصليبية » أسماع الناس تنطبع فى مخيلاتهم على الفور صـورة ترسبت فى وجدانهم عبر سنوات طـوال ، بفضـل ما نسج حـول هـذا الحدث التاريخى الفـذ من روايات وقصص ـ حقيقية وخيالية ـ ظلت الأجيال تتناقلها عبر القرون · ومن المنطقى أن تكون الصورة المترسبة فى الوجدان الغربى مختلفة الى حد بعيد ، بل وبشكل جذرى ، عن الصورة الكامنة فى أعماق الشرق الاسلامى ·

ففى الشرق تعنى « الحروب الصـليبية » عدوانا شـنه الغـرب المسيحى ، تحت رايـة الصـليب ، بهـدف اقامة نوع من المستعمرات الاستيطانية تكون بؤرة للتوسع الذى يمتد أخطبوطه للقضاء على العالم الاسلامى · وتختلط الفكرة المجردة بصورة المجاهدين الذين تصدوا لهذا العدوان ، حتى تمكن صـلاح الدين الأيوبى أن يبدأ الهجوم الاسـلامى للتحرير ، وهو الهجوم الذى استدر حتى تم القضاء على فلول الصليبيين المتجمعين فى عكا فى عهد السلطان المملوكى الأشرف خليل بن قلاون ·

ومن ناحية أخرى ، فان الصـورة التى رسمتها المصـادر التاريخية العربية لفترة الحروب الصـليبية تكشف عن نظرة المسـلمين الى أولئك المعتدين ، وهى نظرة عدائية بطبيعة الحـال ، فالصليبى ، كمـا تصـوره المؤلفات التاريخية ، مقاتل همجى ، جامد العاطفـة ، وهـو أيضـا كافر ملعون · وليس هناك ما يدعو للدهشـة ازاء هـذه النظرة العدائية التى تعاملت بها المصادر التاريخية العربية مع الشخصية الصليبية · فالواقع

أن تكفير المقاتل الصليبي ، في كتابات المؤرخين المسلمين ، نابع من موقف سياسي اكثر منه موقف ديني ، ذلك أن جزءا من ايمان المسلم أن يؤمن بالمسيح عليه السلام · ولكن حقيقة أن العدوان الصليبي قد تم على « دار الاسلام » وأن المقاومة الاسلامية ضده كانت تحت راية الجهاد ، تجعل من غير المنطقي والمقبول أن يرفع المسلمون شعار الجهاد ضد قوم لايعتبرونهم كفارا ·

ومن الطبيعي أن تترسخ هذه الصورة في وجدان الناس في مصر وسوريا وفلسطين ، حيث دارت رحى المعارك الصليبيين ، خاصة وفي وجدان المسلمين عامة ·

اما في الغرب الأوربي فان الصورة مختلفة الى حد بعيد ، وهو أمر يبدو متسقا ومتوافقا مع المنطق تماما · فان الكثيرين من عامة المثقفين المعاصرين في الغرب اليوم لايكادون يعرفون عن الحروب الصليبية شيئا سوى تلك الصورة الجذابة التي تبرز من ثنايا حوادث تلك الفترة لفارس عملاق ، ذي سترة مصفحة ، يمتطي صهوة جواد فاره ، وقد حمل راية الصليب واخذ يطارد ابناء القبائل العربية الذين يفرون أمامه في جبن وتخاذل ، تميزهم بشرتهم الداكنة ، وعزائمهم الخائرة ، ليخلص قبر المسيح من أيدي المسلمين « الكفار » ·

وعلى الرغم من انه ليس هناك جانب واحد صحيح في هذه الصورة ، فانها قد رسخت في الوجدان المسيحي الغربي بفعل التراث المتراكم في ثنايا الكتابات التاريخية المعاصرة لتلك الفترة · لقد كانت قصة الحروب الصليبية الحافلة بالاثارة مجالا جديدا تمام الجدة على مؤرخي أوربا آنذاك ، وقد حررتهم من قيود النماذج والأطر القديمة التي كانوا يصبون رواياتهم التاريخية في قوالبها الجاهزة · ولكن هذا لم يمنعهم من رؤية « الآخر » على انه عدو كافر يجب قتله وتخليص الأماكن المقدسة من قبضته ·

لقد كانت الحروب الصليبية حربا كأية حرب أخرى ، ومن خلالها برزت رؤية كل فريق « للآخر » وتبلورت بفضل التلاحم العسكرى والاحتكاك الحضارى بشتى جوانبه · هذه الرؤية هى التى فرضت نفسها على سطور الكتابات التاريخية آنذاك ·

والحقيقة عندى أن الحروب الصليبية ليست سوى توضيح ترامى له مغزاه يكشف عن الجوانب الرئيسية فى حضارة العصور الوسطى · ذلك لأن هذه الحروب ليست سوى مجرد عامل سببى من عوامل التغير فى العصور الوسطى ، كما أنها كانت تعبيراً عن ثقافة وأفكار ومواقف الناس فى تلك العصور · فالحروب الصليبية تكشف النقاب عن أهل العصور الوسطى ، وتسلط الضوء عل خصائصهم بشكل غير عادى ، الأمر الذى يجعلها ظاهرة تاريخية جديرة بالدراسة من جميع الوجوه ·

ويميل بعض المؤرخين ـ وهم غالبية ـ الى المبالغة فى تصوير الحروب الصليبية على انها العامل الأساسى فى التغيرات التاريخية التى طرأت على الشرق والغرب منذ القرن الحادى عشر · وربما نقترب من الحقيقة بقدر اكبر اذا قلنا ان الحروب الصليبية تعبير عن هذه التغيرات التاريخية اكثر منها سبب فى حدوثها · فالحروب الصليبية تطور هام فى تاريخ العصور الوسطى ، بيد أن ذلك يرجع فى اساسه الى أن هذه الحروب كانت تعبيرا عن انماط اساسية من التفكير والسلوك الأوربى ـ والشرقى ايضا ـ آنذاك · حقيقة انه كان للحروب الصليبية تاثيرها على مجرى التطور الأوربى ، ولكن هذا التاثير لم يكن كافيا لأن يغير من اتجاه التطور فى نظم الحكم والاقتصاد والثقافة بشكل جذرى ·

ومن ناحية أخرى ، توحى عبارة « الحروب الصليبية » بصورة فرسان الهبتهم الحماسة الدينية ففارقوا الأهل والوطن للمشاركة فى حرب مقدسة وعادلة ضد اعداء المسيح · وبالفعل ، حملت الجيوش الصليبية

ولية المسيح ، ووضع المقاتلون شارة الصليب على ستراتهم ، كما رفعوا شعار تحرير القدس من أيدى المسلمين ٠

والواقع أن صراعات كثيرة قد دارت حول هذه المدينة المقدسة منذ اقدم العصور ، ولا يزال الصراع مشتعلا من حولها حتى اليوم ٠ فقد ربط الاسرائيليون المحدثون بين الوعد المقدس ومفهوم « الأرض الموعودة » فى العقيـــدة اليهودية ، وبين عدوانهم الاستعمارى الاستيطانى فى الأرض العربية على نحو ما فعل الصليبيون فى العصور الوسطى ٠ فهل يمكن ان تكون المحـــاولة الاستعمارية الاستيطانية التى قام بهـا الصليبيون على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان نتيجة لهذا الدافع الدينى وحـده ؟ وهل يمكن أن نسلم بالدافع الدينى لدى الصهاينة كمبرر وحيد لاغتصاب الأرض العربية فى فلسطين وسيناء والجولان ولبنان ؟

أن هذين السؤالين ، وما يتفرع عنهما بالضرورة من أسئلة أخرى ، يقودانا الى محاولة تقصى الاصول الأولى للفكرة الصليبية ، حتى يمكننا أن نجد الاجابة المناسبة لكل سؤال ٠ وفى الحقيقة انه لا يمكن تتبع اصول هذه الفكرة وجذورها على نحو فعال بسبب الضبابية الناجمة عن اختلاط المثال بالواقع ، او تضاربهما ، فى كثير من الأحيان ، فضلا عن عدم وجود الأدلة التاريخية الدافعة التى تحدد البداية الحقيقة لهذه الفكرة ٠ وفكرة الحروب الصليبية ، كفكرة ، يصعب تعقب أصولها وجذورها ، شانها فى ذلك شـأن اية فكرة أخرى ٠ ومع ذلك فان لدينـا من الشواهد والقرائن والأدلة الاستنباطية ما يساعدنا على رصد أصولها بشكل مقنع ، وان يكن غير حاسم ٠

لقد اشار المؤرخ الاقتصادى البلجيكى هنرى بيرين الى انه لا يمكن فهم احوال الغرب الأوربى فى العصور الوسطى دون تفهم حقيقة الدور الاسلامى وتأثيره على احـوال الغرب آنذاك ، وعلى الرغم من أن بيرين

اختـــار لكتابه الذى تتـــاول فيه هـــذه القضية عنوانا معبرا هـــو « محمد وشارلمان » ، فان محاولته لتأكيد التأثير السلبى للدور الاسلامى قد كشفت عن التعصب وسوء الفهم من جهة ، كما أثارت معارضة شديدة فى أوساط المؤرخين المتخصصين من جهة ثانية ، الأمر الذى يجعلنا لانعول عليه كثيرا فى هذا المجال ·

ومن ناحية أخرى ، يرى بعض المؤرخين الغربيين أن التطور الذى شهدته أوربا فى العصور الوسطى ، انما كان نتاجا للتفاعل بين عناصر أوربية خالصة ، وأن أوربا كفت نفسها بنفسها ، ومن ثم فان فكرة الحرب المقدسة والدوافع الأولى للحروب الصليبية أمر يمكن تفسيره بمنأى عن المؤثرات الاسلامية ·

وفيما يتعلق بالأصـول الأولى لفكرة الحرب المقدســة أو الحروب الصليبية ، ينبغى علينـــا أن نبحث عن جذورها الأولى فى طيــات الفكر والثقافة فى أوربا المسيحية · وهنا ينبغى أن نشير الى حقيقة هامة مؤداها أن الديانة المسيحية ديانة تميل الى السلم بشكل واضح ، فالتعاليم الواردة فى الأناجيل وفى أعمال الرسل تظهر ميلا قويا نحو السلم · والحرب تعنى الذبح والتدمير والخراب · وبالنسبة لآباء الكنيسة الأوائل كانت الحرب تعنى القتل الجماعى · ومن المؤكد أن الكنيسة الشرقية فى بيزنطة كانت تعتبر الحرب شرا يجب تحاشيه ، وعدم اللجوء اليه الا بعد فشل الوسائل السلمية والدبلوماسية ، حتى لو كان الثمن هو دفع جزية باهظة · وبسبب تعاليم القديس باسيل St. Basil ، أعظم مشرعى الكنيسة البيزنطية ، لم يكن الجندى البيزنطى يعتبر شهيدا اذا قتل فى الحرب ــ ولو كانت دفاعا عن بلاده ــ لأن الشـــهيد هو فقط من يموت متسلحا بالايمـــان · ويكشف تاريخ بيزنطـــة العســـكرى عن أن الحروب البيزنطية كانت فى حقيقتها حروبا دفاعية ، وهو ما يبدو فى أعين المؤرخين الغربيين ، الذين تستهويهم الروح العسكرية ، ضربا من ضروب الجبن والتخاذل وهو فى

الحقيقة تعبير عن هـــذه الايديولوجية التى ترى فى الحرب شرا لا يليق بالمسيحى ·

أما فى الغرب ، فقد كان الموقف جـد مختلف ، ذلك أن الشـــعوب الجرمانية ، لم تكن لترضى بهذا المنطق الذى فرض نفسه على التصرفات البيزنطية ، فضلا عن أن القديس أوغسطين نفسه قد صـــاغ نظرية عن الحرب العادلة يمكن قبولها ، ويمكن أن يحبذها الرب · بيد أنه أعلن أن الحاكم هو الذى يقرر هـــذه العدالة · وفى مجتمع له ظروف المجتمعات الاقطاعية فى أوربا العصور الوسطى كان لابد وأن تنهار نظرية أوغسطين عن الحرب العادلة ، ذلك أنه لم يكن يوجد فى ذلك المجتمع من لايحكم غيره سوى أقنان الأرض ، كما أنه لم يكن يوجد من لايحكمه غيره سوى الملك · وكان التصرف الواقعى هو أن كل من كان ينال ضربة كان يردها بشـكل مباشر دون أن يفكر فى موضوع الحرب المقدسة ·

ومن ناحية أخرى كان التراث الجرمانى فى غرب أوربا يمجد صفات العسكرية والبطولة فى المجتمع ، وكان لابد لهذا المجتمع العسكرى أن يجد تبريرا لعـــاداته العسكرية التى ورثهـــا عن ماضيه · وقد تطور قانون الفروسية فى المجتمعات الاقطاعية الأوربية من خلال الحاجة الى وضـع القواعد والأصول التى تحكم وتوجه عمليات الحرب والقتال ، وبفضـــل المـــلاحم الشعبيـــة المتـداولة فى ذلـك الحين Chansons de geste التى تتحدث عن بطولات شارلمان ورولان ورفاقهما تم تكريس قيم البطولة العسكرية · لقد كانت الروح العسكرية وقيم البطولة والاقدام محل تقدير فى الغرب الأوربى منذ زمن طويل ، اذا أنها كانت ــ بغض النظر عن رأى رجال الكنيسة ــ هى الفاصل الذى يميز النبلاء عن الأقنان ·

ومن ناحيـة أخـرى ، فان المسلمين كانوا بالنسبة لمسيحيى الغرب بمثابة شبح رهيب يفرض نفســه على سلوكياتهم ، فقد كان المســلمون

يحكمون الشـــطر الغربى من عالم البحر المتوســـط ، من قطالونيا حتى تونس ، وكان الغرب يخشى أن يخرج المسلمون من مكامنهم الحصينة لكى يهاجموا الغرب مرة اخرى ، كما حدث من قبل عندما اوقفهم شارل مارتل عند تور ـ بواتييه فى فرنسا ، الا أن الخطر الاسلامى على أوربا الغربية قد زال تماما بوفاة الخليفة عبد الرحمن الثالث ، فقد بدأت القوة الاسلامية فى الأندلس رحلة الغروب والأفـــول ، على حين كانت حـرب الاسترداد الاســـبانية reconquista تؤتى ثمارهـا ، واخذت البابوية تبارك أية محاولة لتوسيع نطاق الممتلكات المسيحية على حســـاب المســـلمين فى الاندلس ٠

والواقع أن من يحاول أن يتصـور الحيـاة الأوربية فى العصـور الوسطى دون أن يضع نصب عينيه ملامح الصدام والوفاق بين المسلمين والمسيحيين ، انما يشبه شـخصا يغمض عينيه عن ضـوء الشمس الذى يفرض نفسه عليه ٠ ذلك أن من يتأمل ســطور المراسيم البابوية فى تلك الفترة لابد وأن يتأكد من احساس البابوية بجيرانها المسلمين الأقوياء ، وهو احساس يشى بمزيج من القلق والخوف والكراهية ٠

والحقيقة اننا يجب أن نبحث عن أصول الفكرة الصليبية فى طيات الصراع بين المســـلمين والمسيحيين فى شـــبه جزيرة أيبيريا التى كان المســـلمون قد احتلوا الشطر الأكبر منها منذ سنة ٧١١ ميلادية بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زيـاد ٠ ويذهب المؤرخ الاســـبانى المعاصر اميركو كاسترو فى كتابة « حقيقة اسبانيا التاريخية » الى أن فكرة الحرب المقدسة عند المسيحيين كانت مستوحاة من مفهوم الجهاد الاســـلامى ، اذ يقول : « ٠٠٠ الحقيقة عندى هى أن الحيـاة الأوربية عامة والحيـاة الاسبانية خاصة فيما بين القرن التاســع والقرن الحادى عشر للميلاد ، كانت نوعا من التصادم والتعايش بين المسلمين والمسيحيين ٠ وقد يكون هذا نوعا من التمايز فى الرأى ، ولكنى اعتقد انه الحقيقة وادافع عنه بكل

قوة · وهذا أمر ضرورى لأننى أريد أن أوضـــح من هم الاسبان وكيف كانوا ··· ان الحرب ضد المسلمين فى فلسطين وأسبانيا استلهمت من فكرة الجهاد أو الحرب المقدسة لدى المسلمين · ولا يهمنا فى هذا المقـام شكل هذا الاستيحاء ، بل يهمنا أن نؤكد على وجوده بصفة قاطعة ··· وفى رأيى أنه لا يمكن أن نتصـور أن البابا ليو الرابع فى سنة ٨٤٨ م ، أو البابا اربان الثانى فى سنة ١٠٩٥ ، كانا يجهلان أن القادة المسلمين كثيرا ما كانوا يذكرون جنودهم وهم يحثونهم على قتال الكفار بأن الله قد وعد الشهداء الذين يقتلون فى سبيل الاسلام بجنات تتوفر فيها شتى صنوف المتع ، وكان هذا هو ما يدفع بالمســلمين ، المؤمنين بهذ الوعود ايمانا مطلقا ، الى النضال بكل قوة وبسالة ، ولابد أن تأثير هذه الآيات هو الذى مكن المسلمين من السيطرة على رقعة هائلة الاتساع من أرض العالم ، ولسنا نظن أن قادة المسيحية فى أوربا العصور الوسطى كانوا بحاجة الى أن يكونوا مستشرقين أو حتى الى معرفة اللغة العربية لكى يدركوا قيمة مبدأ الجهاد عند المسلمين ، ولا نتصور ايضا أن الجهاد فى الأندلس كان يستهدف الحصول على المغانم والأسلاب ··· »

ويمضى المؤرخ الاسبانى ليوضـــح كيف تأثرت اسبانيا المسيحية بالمسلمين فى مجال الحرب المقدسة ، وهو التأثير الذى بدا واضحا فى الرهبنات العسكرية الاسبانية التى تولت أمر حرب الاسترداد الاسبانية Reconquista التى بـدأت من الجبـال الشـمال فى القـرن العاشر ·

وفى تصورنا أن نجاح فكرة الحرب المقدسة فى اسبانيا قد استلفت نظر البابوية على نحو ما · ففى القرن الحادى احرز الاسبان المسيحيون أول انتصاراتهم الكبيرة بفضل النزاع الذى اخذ ينهش الجسد الاسلامى فى الاندلس عقب وفاة عبد الرحمن الثالث · وما أن اهل عام ١١٠٠ حتى كان المسيحيون يسيطرون على مساحة تتراوح ما بين خمس وربع مساحة

البلاد · وقد استمر مد حرب الاسترداد يزحف فى بطء ـ ودونما توقف ـ صوب الجنوب · وعلى الرغم من أن القضاء على الوجود الاسلامى بشكل نهائى لم يحدث ســـوى فى سنة ١٤٩٢ ، فان الملوك المسيحيين كانوا قد فرضوا سلطانهم على معظم أراضى شبه الجزيرة الأيبيرية منذ منتصف القرن الثالث عشر · وفى غمرة هذه الحرب الاستردادية ، كان المسيحيون قد استوعبوا تماما فكرة « الجهاد » الاسلامية وطوروها فى ثوب مسيحى خالص ·

ومنذ البداية كانت البابوية ترقب الموقف فى شبه الجزيرة عن كثب · وفى سنة ١٠٦٤ قدم البابا اسكندر الثانى الغفران كمكافأة لكل من يقتل وهو يحارب المســـلمين فى اسبانيا · كذلك حظيت جهـــود المسيحيين الاستردادية فى اسبانيا بالتعاطف والتأييد من جانب الأديرة الكلونية التى كانت تقوم بدور رائد فى الحياة الديرية آنذاك · وفى عصر البابا جريجورى السابع (١٠٧٧ ـ ١٠٨٥) كان كثيرون من الفرسان فى غرب أوربا ، وفى فرنسا على نحو خاص يتوجهون الى اسبانيا للمشاركة فى الحرب ضد المسلمين · وحتى نهاية القرن الحادى عشر ، كانت « الحرب المقدسة » فى اسبانيا تجتذب الفرسان المسيحيين المغامرين من الشمال ، وهو ما يعنى أن نهاية هذا القرن قد جاءت لتشهد على أن فكرة الحرب المقدســـة قد صارت حقيقة واقعة · وأخذت البابوية تنظر صوب الشرق البعيد حيث الاماكن المقدسة التى ترتبط بقصة المسيح لكى تكون ميدانا لحرب مقدسة أوسع مجالا ، وأبعد هدفا ·

بيد أن الفكرة فى حد ذاتها لم تكن لتسبب حدوث الظاهرة التاريخية التى نحن بصددها ؛ أعنى الحروب الصليبية ، ما لم تكن قد جاءت متوافقة مع ظروف العصر · وفى تصـورنا أن فكرة الحرب المقدسة قد جاءت فى ظروف ملائمة تماما فى الغرب الأوربى والشرق الاسلامى والبيزنطى على حد سواء ·

فقد شـــهد القرن العاشر حركة اصــــلاح كنسية بزعامة الأديرة الكلونية ٠ وكانت هذه الحركة الاحيائية الكبرى تستهدف اصلاح الاديرة ، والكنيسة ، واصــلاح العالم ٠ واصــلاح العالم يعنى اخمــاد الحروب الاقطاعية التى كانت سـمة من سـمات المجتمع الذى اختفت فيه السلطة المركزية ، وتعرض للكثير من الغارات الجرمانية ٠ وقد كان الأســاقفة ومقدمى الأديرة قد اندمجوا فى البناء الاقطاعى ككل ، وظهر من بينهم من يقود فرسانه فى حرب اقطاعية ٠ ولم يجد المصلحون وسيلة لمنع الحروب الاقطاعية تماما ، ولكنهم توصلوا الى صيغة عملية لتحديد نطاقهـــا ٠ وجاءت « هدنة الله » لتمنع القتال فى نهاية الاسبوع ، وفى الأيام المقدسة ، وطوال فترة الصيام الكبير ٠ وهكذا لم يعد أمام الحروب الاقطاعية سوى فصل الصيف فقط ٠ ومن ناحية أخرى ، فان حركة « سلام الله » قد شملت الأشخاص فى محاولة لزيادة عدد غير المحاربين ٠ فقد كان محرما شن الحرب ومهاجمة رجال الكنيســـة ، والحجاج ، والتجار ، والنســـاء ، والمسنين ، والفلاحين وممتلكاتهم من الثيران والبغال ومستلزمات الزراعة عموما ٠ وبعبارة أخـرى ، كان « ســـلام الله » يحمى العناصر الكنسية والتجارية والزراعية والنسائية فى المجتمع من التعرض لهجوم المتحاربين ٠ وقطع الأمراء على أنفسهم عهدا بالحفاظ على هذه القواعد ٠ وعلى الرغم من ذلك ، فان الكثيرين منهم قد حنثوا فى أيمـانهم ٠ ولم تكن حـــركة « هدنة الله » « وسلام الله » تحظى بتأييد أحد الأمراء الأقوياء ما لم تكن هناك مصلحة خاصة له ٠

وحينذاك وجدت الكنيسة أنه لابد من تكوين قوة سلام يخدم رجــال الاكليروس فى صفوفها فى كل من فرنسا وألمانيا لاقرار النظام والضرب على أيدى من يعتدون على « هدنة الله وسلام الله » ٠ وكانت هذه الخطوة بمثابة تغيير جذرى فى موقف الكنيسة من الحرب ، وتطورا هاما فى هذا السبيل ٠ ورب قائل بأن الكنيســـة لم تلعب دورا فى الحرب ، بل كانت

تقوم بمهمة بوليسية · ولكن الواقع أن الكنيسة قد رفعت السيف ، وأخذت تضطلع بالدور العادى للدولة · وقد حدث فى ألمانيا ذات مرة أن أفلت زمام جيش السلام فنهب البلاد ، واضطر أحد الكونتات الى أن يجرد جيشا مضادا ليعيد النظام الى صفوف جيش السلام · وحين انقشع غبار المعركة التى دارت بين الجيشين كانت هناك سبعمائة جثة من رجال الكنيسة تغطى ساحة القتال ·

وهكذا أدلت البابوية بدلوها فى حركة الاصلاح بشكل أدى فى النهاية الى تأكيد مكانة البابوية وحكمها للعالم المسيحى الغربى · وقد تتابع على عرش القديس بطرس فى روما عدد من البابوات المصلحين ، الا أن أكثرهم تأثيرا كان هو ليو التاسع الذى وصف بأنه « المؤسس الحقيقى للحكومة البابوية » · وقد عمل هذا البابا على جعل السلطة البابوية حقيقة ملموسة فى سائر أنحاء الغرب المسيحى ، وبذلك استطاع أن يستحوذ على ولاء الأديرة الكلونية ومساندتها · ولكن رغبة البابا فى توطيد سلطانه سرعان ما دفع به الى انصدام الحاد والعنيف مع الامبراطور · هذا الصراع الذى تجسد كأوضح ما يكون بين البابا جريجورى السابع والامبراطور الألمانى هنرى الرابع ·

وكان البابا جريجورى السابع رجلا ذا ميول عسكرية ، فقد اقنع البابا اسكندر الثانى ، وهو لا يزال كاردينالا ، بتأييد العدوان النورمانى على انجلترا · وعندما اعتلى العرش البابوى كتب الى الامبراطور هنرى الرابع فى سنة ١٠٧٥ يقترح عليه تجريد حملة لاستعادة ممتلكات الامبراطورية الشرقية التى فقدتها بعد معركة مانزكرت · وكان واضحا أنه ينوى أن يتولى قيادة الحملة المقترحة بنفسه ، ظنامنه أن هذه الحملة ربما تؤدى فى حالة نجاحها الى اخضاع الكنيسة الشرقية وتوحيد العالم المسيحى تحت زعامته · كذلك كان هذا البابا الطموح يشجع حملات الاسترداد فى اسبانيا · ولا شك أن البابا جريجورى السابع قد حاول أن

يجعل من ورطة الامبراطور البيزنطى ، بعد هزيمته فى مانزكرت ، ميزة عاجلة تفيد منها البابوية • ولكن استمرار الصراع بين البابا والامبراطور حول مسألة التقليد العلمانى عطل تنظيم أية حملة أو ارســـال أى جيش ابان بابوية جريجورى السابع ، وترك أمر تنفيذ ذلك الى خليفته أوربان الثانى الذى كان أكثر اعتدالا ، وأقل طموحا من سلفه •

ونجد أنفسنا في مواجهة سؤال يطرح نفسه فى الحاح حول دوافع البابوية الى الدعوة الى شن حملة مقدسة لمحاربة المسلمين فى الشرق • واذا ما أردنا البحث عن الاجابة المناســـبة وجدنا أنفسنا مقودين الى استعراض خطاب أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت فى السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥ ، لعلنا نجد الاجابة فى طياته •

كانت خطبـــة البابا فى كليرمونت مثالا رائعا فى البلاغة • وعلى الرغم من أن هذه الخطبة قد وصلتنا فى عدة روايات مختلفة ، فالواضح أن هذا البابا قد استطاع أن يمس كل الدوافع التى كان يمكن أن توجد فى وجدان سامعيه • واذا ما اعتمدنا على رواية روبرت الراهب الذى كتب فى الربع الأول من القرن الثانى عشر ، وأعتمد على رواية أخرى أسبق زمنيا ، وجدنا أن البابا يخاطب « جنس الفرنجة » ويذكرهم بحسن عقيدتهم الكاثوليكية وشرف كنيستهم • ثم يحدثهم عن صنوف مرعبة من التعذيب الذى زعم بأن الأتراك المسلمين أنزلوه بالمسيحيين فى الشرق • ثم يثير اربان الثانى نخوة الفرسان الفرنجة « ••• دعوا مآثر اسلافكم تحفزكم الى القيام بما يليق بالرجال من اعمال • اذكروا أمجاد شـــارل العظيم وعظمته ، وابنه لويس وغيره من ملوككم الذين دكوا ممالك الوثنيين ، ونشروا لواء المسيحية فى تلك البقاع • وليكن قبر سيدنا المخلص ، الذى تسيطر عليه أمم غير طاهرة ، حافزا لكم • ولتثر الاماكن المقدسة ، التى تعانى من المهانة نخوتكم ••• »

ثم اخذ اوربان الثانى يذكر ســامعيه بان بلادهم التى يحدق بهـــا

البحر والجبال أضيق من أن تتسع لاعدادهم الكبيرة ، كما أنها لا تكاد تفى حاجة سكانها من الطعام ، ومن ثم فانهم يقتلون بعضهم بعضا ٠ ويدعو البابا فرسان الفرنجة الى نبذ الكراهية ، ووقف الحروب المحلية ، وليسعوا جميعا على درب الضريح المقدس ليحرروه من نير المسلمين ٠ وليحكموا هذه الأرض التى يذكر الكتاب المقدس أنها « تفيض باللبن والعسل » ٠

والمتأمل فى خطاب أوربان الثانى فى كليرمونت كما رواه روبرت الراهب ــ الذى يحتمل انه كان واحدا من شهود المؤتمر ــ يستطيع أن يضع يده على بعض دوافع البابوية من ناحية ، والعلمانيين من ناحية أخرى ، وراء الدعوة الى شن حرب مقدسة والمشاركة فيها ٠

لقد كانت دوافع البابوية مزيجا مختلطا ٠ فان الحرب المقدسة ، كأداة من أدوات سياسة البابوية الخارجية كان تستهدف عدة أغراض ، منها ما هو معلن ومنها ما يفهم من استقراء الظروف التاريخية ؛ ففى المحل الأول كانت الحملة المزمع القيام بها تنشد استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين ، وحماية طرق الحجاج المسيحيين ٠ ولا شك أن الرغبة فى نشر المسيحية كانت من عوامل دعوة البابوية الى الحرب الصليبية ، بيد أنه كان من الواضح أن البابا رأى فى مثل تلك الحملة فرصة لتوحيد كنيستى الشرق والغرب ــ اللتين كانتا قد تباعدتا تماما منذ الشقاق الكبير الذى حدث سنة ١٠٥٤ ــ تحت زعامته ، وتأكيد دوره كزعيم للعالم المسيحى ٠

كذلك كانت البابوية ترغب فى توظيف الميول الحربية لفرسان الغرب الذين لايكفون عن الاقتتال ، فى خدمة غرض عام يفيدهم ، لا سيما وأن حركة « سلام الله » « وهدنة الله » كانت قد لقيت تجاهلا تاما من بعض اهم مؤيديها ٠ ويمكن أن نلاحظ أن سادة الأراضى التى ثم استردادها

فى أسبانيا فى غضون القرن الحادى عشر ، قد صاروا أفصالا اقطاعيين تابعين للبابا فى روما . وهو ما يعنى أن البابوية كانت تسعى الى أن تكون الأراضى المقدسة ـ بعد استعادتها من المسلمين ـ تابعة للبابا وخاضعة لسيطرته . ومن ثم فان مثل هذه الحرب الصليبية سوف تكون تعبيرا عمليا عن زعامة البابا الروحية للعالم المسيحى ، وقد كانت هذه الزعامة تمثل ركنا جوهريا من أركان وجود البابوية نفسها .

ومن ناحية أخرى ، فقد رأت البابوية أن الحروب الصليبية يمكن أن تجتذب شعوب شمال أوربا الى علاقات أكثر توطدا مع البابوية .

ولا شك أن البابا جريجورى السابع قد حاول أن يفيد من ورطة الامبراطور البيزنطى ويحولها الى ميزة عاجلة تفيد منها البابوية بارسال جيش لاتينى يكون هدفه خدمة مصالح البابوية . وليس حماية البيزنطيين من خطر المسلمين ، ولكن استمرار الصراع بين هذا البابا والامبراطور هنرى الرابع عطل تنظيم أية حملة أو ارسال جيش فى عهد جريجورى السابع . وترك أمر هذه الحملة الى أوربان الثانى الذى كان واحدا من أكبر دبلوماسيى عصره ، وقد نجح فى تضييق شقة الخلاف التى كانت تفصل بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية ، وتقبل فكرة الحرب المقدسة فى لهفة وشغف . وفى دعوته التى وجهها الى ذلك الجمع الحاشد من الناس فى الحقول خارج مدينة كليرمونت وعد الناس بالمكافأة الدنيوية ، كما قدم الغفران والخلاص لكل من يسقط فى حلبة الصراع ضد المسلمين .

وعلى الجانب الآخر ، كانت دوافع من قبلوا المشاركة فى هذه الحرب المقدسة مزيجا غريبا ومثيرا من العوامل والأسباب . والحقيقة اننا لا يمكن أن ننكر أن العامل الدينى كان موجودا بشكل ما ، ولكنه كان نابعا من تدين عاطفى يقوم على التعصب المقيت ولم يكن نابعا من تدين عقلانى حقيقى .

ذلك أن الجو المحموم الذى أشاعته الدعاية المسعورة التى اذكت البابوية نيرانها ضد المسلمين ، جعلت نفوس بعض أولئك الفرسان تضطرم بالرغبة فى قتل المسلمين الذين شاعت عنهم قصص تدمير الكنائس وقتل المسيحيين وتعذيبهم · ولأن غرب أوربا كان يجهل الصورة الحقيقية للمسلمين فان مقاتليه الذين ساهموا فى حرب الاسترداد الاسبانية كانوا يظهرون من دلائل القسوة والوحشية ضد المسلمين ما كان يتعارض بوضوح مع تصرفات الاسبان المسيحيين أنفسهم والتى اتسمت بالاعتدال الى حد ما · وعلى هذا ، فان المقارنة بين مبدأ الجهاد الاسلامى ، وفكرة الحرب المقدسة التى روجت لها البابوية تكشف من أن فكرة الحرب المقدسة ، على الرغم من اقتباسها لمفهوم الجهاد ، تفتقر تماما الى الشرعية التى جعلت من الجهاد ركنا اضافيا من اركان الاسلام · فضلا عن أن فكرة الحرب المقدسة التى اشعلت نار الحروب الصليبية قد ألبست ثوبا دينيا على الرغم من جوهرها السياسى · ولعل من أكبر البراهين على ذلك ، أن كتب كبار رجال اللاهوت المعاصرين لها ، ومنهم « توماس الاكوينى » الذى شارك أخوه فى الحروب الصليبية وأسر أثناءها ، لم يتعرضوا من قريب أو بعيد لفكرة الحرب المقدسة ·

ولا شك فى أن البعض الآخر قد أخذوا شارة الصليب أملا فى نيل الغفران والدخول فى رحمة الرب · ومع ذلك فان الفرسان الذين لا أرض لهم ، والأبناء الصغار فى الأسر الاقطاعية ممن لا يحق لهم وراثة الاقطاعات ، قد انضموا الى الحملة الصليبية يحدوهم الأمل فى أن يحققوا لأنفسهم الأرض والمكانة التى لم يتمكنوا من تحقيقها فى أوطانهم · وقد لعب البابا أوربان الثانى على أوتار هذا الأمل بشكل صريح فى خطبته الشهيرة مشيرا الى حالة الجوع الى الأرض التى باتت أوربا الغربية تعانى منها عشية الحروب الصليبية · ذلك أن غروب شمس القرن الحادى عشر جاء متوافقا مع تثبيت حدود الدوقيات والكونتيات الاقطاعية فى فرنسا ،

وقيام نمط بدائى من التوازن السياسى فيما بينها · وهو ما كان يعنى بالضرورة أن فرصة الأمراء الاقطاعيين للغزو داخل أرض الوطن باتت ضئيلة بالفعل ، ومن ثم فان اشتراكهم فى الحروب الصليبية كان فرصة مناسبة لتحقيق طموحاتهم ·

لقد كان كثيرون من فرسان الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر يتوقون الى المغامرة فى الخارج ، وجاءت الحرب الصليبية لتروى ظمأهم وتعطشهم الى الحرب والمغامرة · وثمة أسماء كثيرة من الأسماء البارزة فى تاريخ الحملة الأولى تكشف عن مدى صدق هذه المقولة ، ومنهم ريمون أمير تولوز ، وجودفرى أمير اللورين · وكان من الواضح أن مثل أولئك الفرسان سوف يستجيبون لأية دعوة توجهها البابوية لشن حرب مقدسة ضد المسلمين من أجل استعادة الأراضى المقدسة ، اذ كان ذلك يكفل لهم الستار الدينى المناسب لارضاء نزعاتهم العدوانية · ومن ناحية أخرى كان بعض الأمراء الذين شاركوا فى الحملة الصليبية يبحثون عن فرصة يحرزون فيها نصرا عسكريا يعيد لهم الهيبة التى فقدوها فى أوطانهم ·

وقد وجد البعض فى الحروب الصليبية فرصة للهروب من العدالة ، ذلك أن اشتراكهم فى مثل هذه « الحرب المقدسة » كان سيعفيهم من العقوبة التى يستحقونها جزاء ما اقترفوه من جرائم ·

أما النورمان فى ايطاليا فقد تحركوا للمشاركة فى الحملة الصليبية بدافع من كراهيتهم العميقة للامبراطورية البيزنطية ، ورغبة فى انتزاع الممتلكات لأنفسهم على حسـابها · فقد كان النورمان يرون فى الحرب الصليبية عمـلا عسكريا موجها ضـد البيزنطيين اكثر منها حربا ضـد المسلمين · وكان بوهيموند ، أبرز قادتهم ، قد قام فى وقت سابق بحملة ضد الدولة البيزنطية بالفعل ، وعلى الرغم من فشل مغامرته هذه ، فانه رأى فى الحملة فرصة لمعاودة الهجوم على بيزنطة بتشجيع من البابوية ·

وكانت المدن التجارية الايطالية ، والبندقية وعلى وجه الخصوص ، من اشد المتحمسين لفكرة الحرب المقدسة ضد المسلمين ، بيد أن سبب هذه الحماسة لم يكن دينيا وانما كان اقتصاديا · ذلك أن هذه المدن التجارية رأت فى الحرب فرصة ذهبية لتدعيم وجودها التجارى فى عالم البحر المتوسط · بل ان البنادقة كانوا يأملون أن يحصلوا على موانىء على الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط اذا ما نجحت الحملة · وقد حدث بالفعل أن نال البنادقة مكافأتهم حين عهد الصليبيون اليهم بنقل المؤن ، ومنحوهم الامتيازات الجمركية فى الاراضى التى استولوا عليها ·

أما صدى الدعوة الى الحرب المقدسة على الصعيد الشعبى ، فكان مثيرا حقا · وفى تصورنا أنه فى مجتمع له ظروف الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر ، حيث تسود مظاهر الجهل وتتفشى الأمية ، وحيث تختلط المفـــاهيم الدينية بالخرافات والخزعبلات ، كان لابـد أن تكون الاستجابة لمثل هذه الحرب قوية ، بل وهستيرية . وهو ما حدث بالفعل · وفى هذا الجو تشيع أنباء عديدة عن الرؤى والأحلام المقدسة ، ويكتسب المشعوذون والمبشرون الجوالون ، من أمثال بطرس الناسك ، مكانة هائلة فى نفوس بسطاء الناس · لقد كان بطرس وأمثاله تجسيدا لحالة الهلع التى حكمت المجتمع الغربى مع اقتراب الألف الأولى بعـــد المسيح من نهايتها ، وتوقع الناس ليوم اليامة وفقا للمفاهيم التى أرساها أوغسطين وغيره عن عمر العالم · فقد تفشت بين الناس آنذاك حركة تدعوهم الى التكفير عن ذنوبهم ، والبعد عن الدنيا وزخارفها ، والتشبه بحال الزهد والتقشف التى عاشها الحواريون · وفى غمار هذه النوبة كان لابد للدعوة الى الحرب المقدسة أن تلاقى مثل هذه الاستجابة المحمومة ·

ويقول مؤرخ الحروب الصليبية الشهير ستيفن رنسيمان ان النجاح الغريب الذى حظيت به الدعوة الى الحروب الصليبية يمكن أن يفسر فى ضوء حياة الفلاحين فى شمال غرب أوربا التى كانت حياة عابسة وغير

آمنة · فقد خربت مساحات كبيرة من الأرض الصـــالحة للزراعة أثنـاء الغزوات الجرمانية وغارات الفيكنج التى تلتها ، اذ تهدمت الجســـور وفاضت مياه البحر ومياه الأنهـــار لتغطى الأراضى الزراعية · وغالبا ما كان السادة الاقطاعيون يعارضـــون محاولة ازالة الغابات والزراعة مكانها لأنهم كانوا يمارسون رياضة الصيد فى هذه الغابات كما أن القرية لم تكن تحت حماية احد النبلاء الاقطاعيين غالبا ما كانت تتعرض للسلب والنهب ، أو حتى الحرق على أيدى عصابات الخارجين على القانون ، أو على أيدى المحاربين فى أثناء الحروب الاقطاعية · وعلى الرغم من أن الكنيسة حاولت أن تعلب دورا فى حماية الفلاحين المساكين ، فان ما قدمته فى هذا المجال لم يكن على أية درجة من الفعالة والأهمية · ومن ناحية أخرى ساهمت الكوارث الطبيعية فى زيادة المساحات القاتمة الحزينـــة فى الصـــورة ، فالفيضانات التى حدثت سنة ١٠٩٤ ، والمجاعات التى أعقبتها جعلت الحياة شبه مستحيلة ·

هكذا ، اذن ، لعبت الظروف الاجتماعية والاقتصـــادية دورها فى الاستجابة السريعـــة المذهلة للدعـوة التى وجهها البابا الى الجماهير الأوربية · لقد كانت جموع الفلاحين المطحونين فى مجتمع يستولى على نتاج عملهم فى الحقول ، ويتركم فى مستوى معيشى أدنى من حيوانات الحقل هم أول من استجاب لدعـوة أوربان الثانى فى كليرمونت · لقـد كانت استجابة نبلاء الغرب لهذه الدعوة متوقعة الى حد ما ، ولكن الذى لم يكن متوقعا هو الذى حدث على الصعيد الشعبى ·

وعلى اية حال ، فان البابوية سرعان ما اصـدرت مرسـوما عاما بالغفران لكل من يشارك فى الحرب المقدســة ويحج الى بيت المقدس · ثم اعلنت البابوية انهـا سوف تتولى حمـاية املاك المشـاركين فى هـذه الحملة ·

وهكذا بدأت الحروب الصليبية · وهنا ينبغى أن نشير الى أن هذه الحروب كانت تعبيرا عن موقف جديد تماما للكنيسة من قضية الحرب · لقد كانت الحروب الصليبية حربا بدأتها الكنيسة لا الدولة · ولم يكن المشاركون فيها يأتمرون بأمر حاكم أو أمير علمانى ، وانما كانوا يتطوعون لحمل شارة الصليب · لقد كانت الحروب الصليبية علامة على عسكرة المسيحية ، وتجلى ذلك واضحا فى حقيقة انه كان يمكن لرجال الدين أن يحاربوا دون أن يتحملوا تبعات التوبة · حقيقة أن الحمـــلات الصليبية التالية جاءت تحت قيادة الملوك والأمراء العلمانيين ، ولكن الحملة الأولى كانت من عمل البابا ، على الرغم من أن الأمراء حملوا شـارة الصليب استجابة لدعوته ·

وهكذا ، خرجت فكرة الحـرب المقدســة الى حيز التنفيذ ، وكان الاصــلاح الكنسى الذى قادته الأديرة الكلونية ، والسياســة البابوية ، ونظرية الحرب المقدســة التى تطورت ، منذ فكرة القديس أوغسطين عن الحرب العادلة ، حتى صارت أمرا يجلب مرضاة الرب ، هى الخلفية التى استندت اليها خطبة أوربان الثانى فى كليرمونت ١٠٩٥ · وهذه العناصر هى التى شكل الروح التى دفعت الجهود الدعائية التى ساهمت فى تشكيل الجيوش التى توجهت الى فلسطين ، كما كانت الروح هى القوة الدافعة لحملة الفلاحين أو الحملة الشـــعبية · لقد كانت الفكرة الصليبية نتاجا لتفاعل القوى التى لبت نـداء البابوية فى كليرمونت ، ثم خبرات أولئك الذين شاركوا فى الحملة الأولى بالفعل ·

والحقيقة عندى أن فكرة الحملة الصليبية قد ولدت فى أذهان الذين عايشوا أحداثها بالفعل ، ومن ثم فاننا يجب أن نتوخى الحـــذر ونحن نستخدم مصــطلح « الحملة الصليبية الأولى » · ذلك أن صـياغة فكرة الحملة الصليبية ، كمثال ونموذج ، قد تمت من خلال تجربة الحملة الأولى وخرجت من طياتها لتخلق نموذجا ثابتا فى اذهان الدعاة الى الحملات الصليبية التالية ·

وعلى مدى قرنين تقريبـــا ، منذ ١٠٩٦ حتى ١٢٩١ ، توالت على شاطىء المتوسط الشرقى موجات عديدة من الأوربيين ، فقد جاءوا بعشرات الألوف ، زرافات ووحدانا ، من الحجاج والأفراد المسلحين ، والمجموعات العسكرية الصغيرة بقيادة الأمراء الاقطاعيين ، والجيوش الكبيرة التى يقودها أكبر حكام أوربا انذاك · وهو ما يعنى أن الحمـــلات الصليبية السبع الشهيرات لا تعبر عن واقع الحال ، اذ كانت الحملات الصليبية فى حقيقة الأمر أكثر من مجرد هذه الموجات التى كانت تضرب من حين لآخر على شاطىء فلسطين ، وانما كانت بمثابة تقاطر مستمر من الحجاج ، والمحاربين والقراصنة والنبلاء الجوعى للأرض ، الذين اتخذوا من الشرق العجيب مقصدا لهم ·

ان « الحروب الصليبية » بمقدماتها ونتائجها ، تقدم لمن يهتم بدراسة التاريخ مثالا فريدا عن مدى ما يمكن أن ينتج عن التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية من استجابات : ففى أوربا الغربية كانت دعـوة أوربان الثانى تطرح أمام المجتمع الذى مزقه الخـلاف وأرهقته المشكلات هدفا عاما يمكن لهذا المجتمع أن يعبر عن نفســـه من خلاله · أما فى الشرق ، الذى تعرض للعدوان ، فقد كانت الاستجابة لهذه الحركة مختلفة تماما ، فمن مرحلة التشتت والركود ، وعدم الوعى بحقيقة الغزوة الصليبية فى بداية الأمر ، مما مكن للانتصارات الأولى للصليبيين ، أنتقل المجتمع الاسلامى من مرحلة التقهقر الى المقاومة ، ثم الهجوم المضاد الذى أنتهى بتدمير الجسم الغريب على تراب الأرض العربية بعد حوالى قرنين من الزمان ··· وتلك قصة تستحق أن تروى وحدها ·

وقد احتلت قصة الحروب الصليبية حيزا كبيرا من اهتمام المؤرخين والباحثين · وانكب منهم عشرات يفتشون بين غبار المعارك ، واشـــلاء الضحايا وأنات الجرحى والمهزومين عن أجزاء الصـــورة التى يريدون استردادها من ذمة التاريخ · واخرجت المطابع سيلا من البحوث والمؤلفات

تدور جميعها حول موضوع واحد هو : « الحروب الصليبية » · لقد اهتم الغرب بقصة هذه الحروب التى اتخذت الصليب شعارا ، والقدس هدفا ، وفى ظل الشعار والهدف ارتكبت أبشع ما يمكن للبشر أن يتخيلوه ، حتى بمقاييس العصور الوسطى التى اشتهرت بالقسوة وقلة الاهتمام بالجوانب الانسانية فى الحروب · وعلى الرغم من ادانة كثيرين من الباحثين الغربيين « للحروب الصليبية » ، فان هذه الادانة ، فى رأينا ، نابعة من حقيقة أن الحروب الصليبية قد فشلت فى أن تحقق شيئا وان كانت فصولها الرئيسية قد دارت على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان · بل ان من هؤلاء الباحثين من يرى أن الحملات الصليبية قد خرجت لكى تسترد الأرض المقدسة من المسلمين أولا ، ثم تحاول الاحتفاظ بها هى والأراضى الأخرى المجاورة لها باعتبارها أراض مسيحية · بيد أن هذا لا ينفى وجود بعض المؤرخين الذين جعلوا البحث العلمى والتعرف على الحقيقة أيا كانت هدفا ينبغى الوصول اليه ·

أما فى الشرق وفى الوطن العربى بصفة خاصة ، فان الدراسات الحقيقية لهذه الحركة ما تزال قليلة الى حد الندرة · وعلى الرغم من أن كثيرا من الكتب والبحوث قد خرجت تتحدث عن « الحروب الصليبية » فان معظمها للأسف توقف عند حد رواية الأحداث بطريقة قصصية سردية · أما الدراسات التى حاولت الغوص فى أعماق الظاهرة التاريخية وتحليلها بالطريقة التى تتفق مع كوننا الطرف الذى وقع عليه العدوان ، وكان عليه أن يتصدى للمعتدين على مدى قرنين من الزمان استنفدت كثيرا من موارده وجهوده المادية والحضارية ، فقد كانت دراسات قليلة بالفعل ·

واذا ما تأملنا حالنا اليوم ، ونحن نواجه الهجمة الصهيونية المدعومة من العالم الغربى على نحو خاص ، ادركنا مدى حاجتنا الى المزيد من الدراسات التى تكشف لنا عن جوانب عدوان الأمس علنا نستهدى التجربة ونحن نواجه عدوان اليوم · وعلى الرغم من أننا نؤمن بشكل

قاطع أن التاريخ لا يعيد نفسه ، فاننا نرى أن ثمة من الحوادث التاريخية المتشابهة من حيث الدوافع والنتائج ما يعيننا على تلمس الطريق السوى ٠ ونحن نرى أن ثمة جوانب كثيرة متشابهة ــ وليست متطابقة ــ بين الحركة الصليبية والحركة الصهونية ، ومن ثم فانه يصبح واجبا علينا أن نتصدى بالدراسات المقارنة فى سبيل كشف الأبعاد الحقيقية لكل منهما ٠ وعسى الله أن يوفقنا الى عمل من هذا النمط ٠

على أية حال ، فان الكتاب الذى نقدمه فى ترجمته العربية ، دليل على أن الاسرائيليين ينظرون الى الحركة الصليبية نظرة تختلف تماما عن نظرة كل من الغرب المسيحى والشرق المسلم ، فهم يبحثون لأنفسهم عن دور فى هذه المواجهة الطويلة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى محاولين تأكيد وجودهم التاريخى المستمر فى المنطقة من ناحية ، والتعرف على جوانب الفشل والاخفاق التى قضت على الوجود الصليبى فوق ذات الأرض التى زرعوا فيها ٠ الكيان الاسرائيلى من ناحية أخرى ٠

ولمؤلف هــذا الكتاب كتاب آخــر صــدر باللغة العبرية وله ترجمة انجليزية وأخــرى فرنسية وترجمــة عنوانه « المملكة اللاتينية فى بيت المقدس » ٠ ومن الطبيعى أن هذين الكتابين ليســا الوحيدين فى هــذا الموضوع من أعمال المؤرخين والباحثين الاسرائيليين ، ونأمل أن نقــدم فى المستقبل ان شاء الله دراسة بيبلوجرافية وهستوريوجرافية حول هذا الموضوع ٠ أما المؤلف فهو الاستاذ يوشع براور استاذ تاريخ العصــور الوسطى فى الجامعة العبرية فى القدس ٠ والكتاب الذى نقدمه للقارىء العربى ، والذى يحمــل عنوان « عالم الصليبيين » لا يتعرض لتفاصيل الحروب والمعارك وحالات الحصار ونصوص المعاهدات وانما يهتم بدراسة الجوانب المختلفة للوجود الصليبى ٠ وفى تصورنا ان هذا الكتاب تعبير صادق عن الرؤية الاسرائيلية للحروب الصليبية ، وان هذا هو ما يجعل الكتاب هاما بالنسبة للقارىء العربى لا سيما وأن هناك تشابها بين الكيان

الصليبى والكيان الصهيونى مع تسليمنا بوجود الاختلافات أيضا ٠ ولسنا نقصد فى هذه المقدمة أن نتعرض للكتاب بالنقد حتى لايقع القارىء فى شباك الفكرة المسبقة ، بل اننا نترك القارىء مع النص ، ثم نســـوق له ما يعن لنا من ملاحظات فى تعقيبنا على الكتاب ٠ كما أننا توخينا أن نقلل من تعليقاتنـــا على النص فى الهوامش قدر المستطاع على أعتبـار أن التعقيب سوف يتضمنها ٠

وأخيرا فاننا لن نشير الى مشاق الترجمة ، فذلك أمر نراه طبيعيا ، ولكننا نرجو أن نكون قد وفقنا فى نقل هذا النص الانجليزى الى العربية بشكل مفيد ويفى بالغرض ، والله الموفق والمستعان ٠

دكتور قاسم عبده قاسم

الهرم ٠ أغسطس ١٩٨٠

ـ ١ ـ

ثلاث امبراطوريات وأربع دعاوى

« وقال الله ليعقوب انا الله القدير اثمر وأكثر أمة وجماعة أمم تكون منك ، وملوك سيخرجون من صلبك ، والأرض التى اعطيت ابراهيم واسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك أعطى الأرض » (سفر التكوين ٣٥ : ١١ ـ ١٢) ٠

لقد ظلت اقدار البلاد والأمم والأديان والامبراطوريات على مدى ثلاثة آلاف سنة مرتبطة بالوعد العظيم المدون فى الكتب المقدسة ، اذ تأثرت ملايين لاتحصى من البشر بكلمات العناية الالهية التى تلقاها يعقوب ابن اسحاق بن ابراهيم ، الذين هم الآباء الاسرائيليون ٠ وقد صار مفهوم الأرض الموعودة عقيدة أساسية فى ديانة اسرائيل ومحورا لآمالها فى الزمن الغابر ، بل كان من المقدر لهذا المفهوم أن يصبح جزءا أساسيا فى جميع الثقافات التى قبلت الكتب المقدسة لليهودية أو التى ارتبطت بالديانة الاسرائيلية برباط ما ٠

وقد حملت الديانة المسيحية ، التى شهدت تمام نبوات الخلاص بقيام عيسى المسيح ، هذه الكتب المقدسة وما سجلته عن الوحى عبر البحر المتوسط الى روما عاصمة الامبراطورية الوثنية ٠ وسقطت الامبراطورية ، ولكن الدين الجديد كان قد غزاها من الداخل ، وهو غزو أكثر ثباتا من أى من الفتوحات العابرة التى قام بها زعماء الجرمان وغيرهم من البرابرة الذين طرقوا ابواب العاصمة الرومانية ٠ وانتشرت المسيحية بين القبائل التى اتخذت من أطلال الامبراطورية الكبيرة معسكرات لها ٠

لقد كانت المسيحية أكثر من مجـرد ديانة • اذ أنهـا كانت ثقـافة وحضارة امتزجت فيها أثينا وروما مع أورشليم ، ولم يرث الانســـان المسيحى الفكر الكونى فقط وقصة الاله الذى أصبح انســانا فى سـبيل خلاص البشرية ، وانما ورث أيضا تراث أمة مختارة كما ورث أحداث تاريخها وأنبيائها الذين هم أعظم المعلمين لأسمى أخلاق عرفتها البشرية • ومن خلال قصة العبريين ــ الشعب المختار الذى فقد امتيازه برفضـــه للمسيح المخلص ــ تعلم المسيحى كيف ينظر الى نفســه باعتباره وريثـا لدعاوى العبريين وامتيازاتهم • اذ أن العهد الجديد قد صدر عن العهد القديم ، وصارت وصايا العهد القديم التى تعود الى ذلك الزمان الذى كانت البشرية فيه تعيش فى ظل الناموس ، محطا للنسيان والاهمال •

أما روايات الكتاب المقدس التاريخية ، بواقعها الجغرافى المحسوس ، فقد تم تناسخها وتحولها الى العالم الروحى المعنوى ، فاورشليم عاصمة المملكة القديمة تحولت الى أورشليم السماء • وباتت مملكة داود رمــزا لعالم عصر الخلاص الذى سوف يأتى • وبينما ظلت بيت لحــم والناصرة أماكن البشارة والميلاد ، كانت أورشليم ذاتها بما تشملة من طريق الآلام ، وجبل الزيتون ، وقبر المسيح أكثر من مجرد نقطة على خريطة عالم الله الهائل المنبسط • وهكذا أصبحت الأرض المقدسة ، والاماكن التى شهدت معجزات المسيح وآلامه أماكن حقيقية فى الوجدان المسيحى • ولم يكن هناك فى عالم المسيحية من لا يعرف اسماء أقاليم يهوذا والجليل الثانية •

وكانت تعاليم المسيح واحــدة ومشتركة فى جميــع انحــاء العالم المسيحى ، بيد أنه نظرا لعدم وجود سلطة فى ممالك الغرب شبه البربرية تستطيع أن تترجم المزاعم المسيحية الخاصة بالأرض المقدسة الى مفاهيم سياسية كان الموقف فى الشرق المسيحى مختلفا حيث كانت بيزنطـــة قد خلدت عظمة روما ، وجـــلال الامبراطورية المسيحية • ومع طلوع شمس القرن السابع بدأ الروم . كما كان يطلق عليهم جيرانهم المسلمون

حملة عظيمة ضـــد الفرس واستعادوا الصـــليب المقـــدس من الأسر الساسانى · وبعد جيل واحد (حوالى سنة ٦٥٠ م) انتزع الفرســان العرب كل الشاطىء الجنوبى للبحر المتوسط بما فيه من الولايات الافريقية وشواطىء فلسطين وســـوريا · وبدأ حينذاك أن القسطنطينية نفسها ستختفى فى طيات موجات الطوفان الاسلامى · ولكن بيزنطة نجت بنفسها واستمر الحكم البيزنطى على البلقان وآسيا الصغرى ·

وكان امبراطور بيزنطة مسئولا عن الدفاع عن العـــالم المسيحى والعمل على مد رقعتـــه باعتباره زعيما للامبراطورية المسيحية وحامى حمى المسيحية الارثوذكسية · وكان هذا الدور الذى يلعبه الامبراطور من لوازم لقبه ، كمـا كان جـزءا من تراثه كخيلفة للامبراطور المسيحى الأول قنسطنطين الكبير ، والامبراطور هرقل منقذ الصليب · وفى القرن العاشر شـــن الأمبراطـــور فوكاس (فوقس) Phacas، وحنا الأول تزمســـكيس (الشـــمشقيق) Jonn I Zimisces حملات عسكرية ضد المسلمين فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين · وقد حدث هذا فى عامى ٩٦٤ ــ ٩٦٥ ، ٩٧٤ ــ ٩٧٥ على التوالى · وقد وصلت هذه الحملات الى أعتاب القدس ، وأرسل الامبراطور فوكاس (فوقس) رسالة يحذر فيها الخليفة العباسى بقوله : « انت يا من تعيش فوق رمال الصحارى ··· خذ حذرك وعـــد ادراجك الى صنعاء ، اذ اننى سرعان ما أهزم مصر وتصبح ثرواتها أسلابالى · ولسوف أتحرك الى مكة على رأس جماهير المقاتلين الذين يشبهون فى كثرتهم جحافل الظلام · ولسوف استولى على هذه المدينة لكى اقيم بها عرش الرب ثم اتوجه الى أورشليم لأقهر الشرق والغرب ، واقيم رمز الصليب فى كل مكان · »

لقد كانت مزاعم خلفاء الأباطرة البيزنطيين قائمة على أساس من قوة التاريخ وحق الدين ، واذ فشلت القوة العسكرية فى حسم الأمر ، ثم تعديل المزاعم البيزنطية فى الأرض المقدسة لكى تتناسب مع الظروف

السياسية والدينية السائدة آنذاك ، صار امبراطور الشرق هو المدافع الرسـمى عن المواطنين المسيحيين فى الأراضى الخاضـعة لسيادة المسلمين · وكان دوره فى الحقيقة قاصرا على حماية الكنيسة البيزنطية · وكانت تلك مصـالحة مؤقتة قبلها الحكام المسلمون · وبينما كان المبدأ العملى هو السائد مما سـهل عملية التوسـع السياسى ، فان مزاعم الامبراطورية البيزنطية فى الأرض المقدسة ظلت طيلة تاريخ الامبراطورية سلاحا مشرعا ضد المسلمين والصليبيين على السواء ·

وفى الوقت نفسه كان العالم المسيحى الغربى يطور أطره الاجتماعية والسياسية الخاصة به · اذ بدأت تظهر كيانات سياسية جديدة ، نشأت عن الغزوات الجرمانية لأوربا الغربية ، وصار تراث روما جزءاً لايتجزأ من الكنيسة حيث وجدت مفاخر العالم الكلاسيكى ملاذها الأخير ، ولم يكن هناك وريث لروما الامبراطورية حتى عصر شارلمان (٨٠٠ م) الذى وحد أقاليم الغال وألمانيا وايطاليا تحت حكمه ، فقد أعادت قوته العسـكرية وضرباته ضد السكسون الوثنيين ، وفى بوهيميا وبانونيا ، فضلا عن حروبه ضد أسبانيا المسلمة ، بناء الامبراطورية الغربية ، كما أنها كانت فى الوقت نفسه حروبا ضـد الكفار · وقد وسعت حروبه ضـد الوثنيين والمسلمين والشماليين والسلاف والآفار حدود سيادته السياسية ، كما أنها وسعت من حدود الأمة المسيحية ، وأدت الى انتشار الدين المسيحى · وقد استمر الشعور بهذا الجانب من حملات الامبراطور الكبير على مدى عدة قرون ، وظلت انشودة رولان ، وهى ذات أسـاس تاريخى ، ورحلة شارلمان الى الشرق ـ وهى من الروايات الخيالية التى شاعت فى القرن الحادى عشر وتحمل بصمات أسطورية ـ براهين أو شهادات شعبية تدل على المواجهـة بين الامبراطور والكفار المسـلمين · وبعد ثلاثة قرون ، اى عندما كانت أوربا فى طريقها للاحتكاك بالمسلمين فى سوريا وفلسطين ، كانت صـورة شارلمان العظيمة كرائد للحرب المقدسة لاتزال شـامخة فى الوجدان الأوربى ·

كانت مهمة الزعيم العلماني للعالم المسيحي أن يدافع عن أمن بيت الله وأن يقوم بتوسيع حدود العالم المسيحي ، مع أن هذه المهمة لم تتخذ شكلا رسميا على الاطلاق • وهكذا كانت مزاعم الدفاع عن العالم المسيحي ، التي أنتجت المزاعم الصليبية في نهاية الأمر ، مرتبطة بكل من الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الرومانية المقدسة • ومع أفول شمس القرن الحادي عشر ، وفي ظل الاضطراب الناجم عن الصراع العلماني حول تقليد رجال الدين وحين كانت الامبراطورية والبابوية تتصارعان من أجل الزعامة تقدمت البابوية متعدية على امتيازات الامبراطور وواجباته • والحقيقة أن البابا جريجوري السابع الكبير (هلدبراند) هو أول من أصدر الدعوة لمحاربة الكفار ، وكان ذلك قبل الحملة الصليبية الأولى بجيل كامل •

وكانت الدعوة البابوية معاصرة لحركات أخرى برزت في أوربا الغربية • فقبل جريجوري السابع بجيلين ، أشرعت سفن جنوة وبيزا لقتال الكفار المتحصنين في جزر البحر الأبيض المتوسط • وكان المسلمون قد استولوا في القرن الثامن على جزر كورسيكا وسردينيا القريبة من القواعد الاسلامية • وقامت السفن الايطالية التي كانت قد تمرست على القتال بهجومها على شواطيء البروفنسال واسبانيا ـ بالهجوم على موانيء الجزر التي كانت قواعد للقرصنة ومراكز للسلطة • وصارت الجزيرتان مسيحيتين وبذلك كسبت المسيحية أول قواعدها البحرية خارج أرضها • ومع منتصف القرن الحادي عشر (حوالي ١٠٤٦م) مد الفرسان الفرنسيون يد المساعدة في القتال ضد المسلمين في شبه الجزيرة الاسبانية ، كما شن الكتلان القطالنيون والبروفنساليون هجومهم جنوبا واحرزوا بعض التقدم حين استولوا على طليطلة سنة ١٠٨٥ م • وسرعان ما تقدم الاسبان جنوبا منطلقين من الامارات المسيحية الصغيرة في جبال

البرانس ، ونافارا وأرغونة ، وقشتالة ، وأخذوا يطردون المسـلمين من أجزاء شبه الجزيرة الشمالية • وقد أطلق على هذه الحركة فى وقت لاحق اسـم حـركة الاسـترداد reconquista أى اسـترداد الأراضى التى كانت قد فقدت منذ أربعة قرون عندما بمر الغزاة المسلمون مملكة القوط الغربيين المسيحية • وهكذا كان العالم المسيحى الغربى يقاتل المسلمين لاستعادة الأراضى المفقودة ، وكان القتال يدور عبر البحر المتوسط من اسبانيا غربا الى سردينيا وكورسيكا ثم الى مالطة فى الوسط • وداخل هذا المنظور التاريخى كانت الحروب الصليبية فى الأرض المقدسة بمثابة الامتداد الشرقى لحروب الاسترداد المسيحية •

ومع الحرب الصليبية الأولى كانت المزاعم المسيحية سواء تلك التى كان يمثلها البابا أو الأمبراطور فى الشرق أو فى الغرب ، تقابلها على الناحية الأخرى المطالب الاسـلامية بل والحكم الاسـلامى • ففى أقل من خمسة عشر عاما بعد هجرة محمد من مكة الى المدينة (٦٢٢ م) داخـل المقاتلون المسلمون القادمون من الجزيرة العربية فلسطين وسوريا وآسيا الوسطى فى الشمال ، كما فتحوا مصر وشمال أفريقيا فى الغرب • وفى أول هجوم كبير صوب الشمال سقطت فلسطين وسوريا ، وصارت دمشق عاصـمة الدولة الأموية بعد ذلك بفترة • وقد ورثت الديانة الاسـلامية ــ التى اعتبرت نفسها آخر وحى الهى ــ عن اليهودية والمسيحية • وهو الأمر الذى انقذ الاماكن المقدسة فى فلسطين من الدمار الشامل • وصار المسيحيون واليهود ، باعتبارهم أهل كتاب مميزين عن الوثنيين والزراد شتيين ، مواطنين فى الدولة الاسـلامية ، أو أهـل ذمة حسب المصطلح الشرعى الاسـلامى • وثمة رواية تحكى أن الخليفة عمر بن الخطـاب ــ الذى سـلمت له القدس على يد بطريركها البيزنطى وفق شروط متفق عليها ــ لم يؤد الصـلاة عند قبر المسيح فى محاولة واعية لتجنب خلق سابقة ربما تضر بالمسيحيين فيما بعد • واتخذ عمر من المسجد المجاور لقبر المسيح مكانا للصلاة (العمرية) • ولكن الفاتح المسلم لم يقنع بترك

الأمـر عند هـــذا الحد · ويروى القرآن كيف أن محمدا بعد رحلة ليلية اعجازية وصل على البراق ، المطية الخرافية ، الى المسجد الأقصى ، وهو المعبد الخارجى مما أضفى قداسة على المدينة · وعندما وصل عمر بن الخطاب الى القدس طلب أن يرى هيكل الملك العظيم ســـليمان ، وانتابه الفزع عندما وجد أن المنطقة التى كانت هى المعبد اليهودى الكبير ليست سوى مقلب اتربة ، وهذا شاهد اثرى يرتبط ببيزنطة ويكشف عن انتصار المسيحية على اليهودية · فاصدر أوامره فى الحال بتنظيف المنطقة وشيد اول مســجد فى المنطقة هو المســجد الأقصى وكان عبارة عن بناء خشبى متواضع · وبعد مائة وخمسين سنة ، وفى قلب المنطقة المقدســـة شيد الخليفة عبد الملك الحرم الشريف ، وقبة الصخرة الجميلة التى كانت تواجه المسجد الأقصى عند الساحة ·

ولقرنين من الزمان بعد الفتح الاسلامى لم تلعب القدس سوى دور ثانوى فى المنظور الدينى للاسلام · فالحج ، وهو فرض على كل مسلم ، كان موجها الى المدينتين المقدستين مكة والمدينة(١) ، ولكن مكانة القدس كانت آخذة فى الرقى · ففى القرن الثامن ، وعندما بات الطريق الى مكة صعبا بسبب المشكلات السياسية أعتبرت زيارة بيت المقدس بمثابة الحج ، وبلغت مكانة تقرب من الحج الى مدن الحجاز المقدسة · وقد سعى الخلفاء وولاتهم المحليون الى تحويل أورشليم البيزنطية الى مركز أسلامى · وبدأ التسامح تجــاه غير المسلمين يقل فى ظل حكم الخليفة هارون الرشـيد (٧٨٦ ــ ٨٠٩) · وتأرجحت السياسة الرسمية بعد ذلك بين التسامح ، والضغط من أجل اعتناق الاسلام · وبلغت المراسيم التى فرضت على غير

---

(١) الحج من اركان الاسلام ، ولكن لمن أستطاع اليه سبيلا ، فقد جاء فى القرآن الكريم «ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا» · والحج مفروض الى مكة فقط ، ولكن زيارة المدينـــة انما تتم لزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام · (المترجمان)

المسلمين زيا مميزا وعلامات مهنية كالصلبان الخشبية الضخمة للمسيحيين والأجراس لليهود ، فى تطورهـا الى حد تدمير الكنائس والمعـابد(٢) • ففى سنة ١٠١٢ أمر الخليفة الحاكم بأمر الله ، حاكم مصر الفاطمى شبه المجنون بتدمير الاماكن المقدسـة المسيحية واليهودية • ووقعت كنيسـة القيامة ، ضمن كنائس أخرى ، ضحية لحماسته • ومع ذلك فان القدس لم تصبح مسلمة تماما • ففى الربع الأخير من القرن العاشر ، اشـار المقـدسى الجغرافى الذى ولد فى القـدس الى أن اليد العليا فى موطنـه للمسيحيين واليهود • وربما كان هذا هو الوضع السـائد فى بيت لحـم والناصرة • وفيما عدا هذه المدن الثلاث ، تحولت سوريا وفلسطين ، بعد أربعة قرون من السيادة الاسـلامية الى بلاد اسـلامية تتحدث العربية • وبهذا اضاف الاسلام مطالبه فى الأرض المقدسـة وأماكنها القدسية الى قائمة المطالبين بها • وكان حق الاسلام يقوم على أساس السيادة والملكية الفعلية ، بيد أن هذا الحق سرعان ما أصبح يقدم على أساس من العقيدة والتفسير الدينى •

ولم يزل هناك مطالب آخر بالأرض المقدسة ، وهو مطالب لا يملك قـوات عسـكرية ولا موارد امبراطورية • ومع ذلك فهو أكثر المطالبين اصرارا وثباتا فى دعواه ، الا وهو اليهودى الذى يعبر ثلاث مرات يوميا عن حنينه الى الأرض المقدسة وعاصمتها وعن أمله فى العودة والخلاص •

---

(٢) الحقيقة أن هـذا التعميم فيه قدر كبير من المبالغة والمغالطة ، فان الحالة الفردية الشـاذة التى شـهدها عصر الحاكم بأمر الله الذى شملت أفعاله المسلمين السنيين ، كمـا عانى الناس العاديون من شذوذ أوامره ، لا يمكن التدليل بها على أن هـذه هى الروح التى سـادت فى العالم الاسلامى ضـد غير المسلمين • بل ان الثابت أن العصر الفاطمى كان هو العصر الذهبى بالنسبة لليهود والمسيحيين •

انظر قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، ص ٢٣ ـ ص ٦٢ • (المترجم)

ولم تكن دعواه حقا مكتسبا بالتقادم ، كما لم تكن دعوى قابلة للتحويل أو النقل · فقد ربط الدين الذى صان الأمة المشتتة على مدى اكثر من الف سنة تحقيق نبوة نهاية العالم ، بالنبوة القائلة بجمع الشتات والعودة الى الوطن · وعلى هـذا الأسـاس نظر الى كل حادثة كبيرة فى التاريخ والى كل اضطراب او ثورة على انهـا بشير بالخلاص القومى · وفى فلسفة الحشر اليهودية التى شاعت فى العصور الوسطى كانت بيزنطـة تشبه بأدوم الشريرة ، كما كان سـقوط بيزنطة فى أعين اليهود بمثابة بشائر التحرر · وعندما خرجت بيزنطة سالمة من صراعها مع الفرس · كان ظهور الاسلام (٦٢١) ثم ثورة العباسيين (٧٥٠) ، وانتصـارات الأتراك السلاجقة (١٠٧١) مؤشرات على قرب الخلاص · ولكن كل أمل براق كان ينتهى الى آمال محطمة وقلوب جريحة · ومع ذلك كان هنـاك شعور بأن العناية الالهية ستحقق وعدها لاسرائيل فى أية لحظة قريبة ·

وفى ظـل الحـكم البيزنطى ، فيما بين أواخر القرن الرابع وبداية القرن السـابع ، صـارت فلسطين غير يهودية فى أساسها ، أما نتيجـة اعتنـاق المسيحية ، وأما بسبب هجـرة اليهود الى أراضى الشتات · واحتفلت بيزنطة بانتصار دينها باصدار تشريعات معادية لليهود والتحريم الرسمى ضد اليهود القاطنين فى المدينة المقدسـة · ومن ثم لم يكن أمام الحاج اليهودى المتدين سوى أن يتأمل المدينة واكداس القمامة فى ساحل الهيكل · وهكذا كان اليهودى يردد صلواته فوق جبل الزيتون ويمزق ثيابه (كما يفعل الانسان تدليلا على حزنه) ، كما كان يأمل فى أن يأتى زمان أفضـل · وكان الغزو الفارسى لفلسطين سنـة ٦١٤ هو ساعة الانتقام ، وشارك اليهود الثائرون فى الهجوم الذى خلف أورشليم حطاما · ولكن بيزنطة أعادت تثبيت أركان حكمها لمدة جيل آخر · وحرم على اليهودى دخول المدينة · وقد تمثل التعبير عن مدى كراهية اليهود عندما أصر صفرونيوس آخر بطريرك بيزنطى لأورشليم على أن يستمر المسلمون فى سياسة التحامل ويمنعوا اليهود من الاستقرار فى الأرض المقدسة ·

وبصرف النظر من التحريم ، فقد استقر بعض اليهود بالقرب من المسجد الأقصى كخدام لبيت المسلمين المقدس • وعندما ثبت وجودهم بدأ حي يهودي ينمو بقرب القصر الأموى • ومع زيادة عددهم نما حي آخر أكثر اتساعا فيما بين بوابة دمشق وبوابة يهوشفاط ، وسرعان ما انتقلت الاكاديمية الفلسطينية ، وهى المقر المبجل لحكماء اليهود ، من طبرية الى القدس على الرغم من أن المركز الديموجرافى للحياة اليهودية كان فى العاصمة الاسلامية الجديدة فى الرحلة على ساحل البحر ، وظل كذلك حتى قدوم الصليبيين •

وهكذا ، ظلت الأرض المقدسة ، الأرض الموعودة لثلاثة أديان ، هى أرض المطالب الدائمة • وكان الحكم الفعلى للاقاليم فى وقت بعينه خاضعا لظروف تاريخية معينة ، ولكن مكانها فى قلوب البشر كان نتيجة لعواطفهم السامية ، ومع نهاية القرن الحادى عشر اجتمعت مجموعة فريدة من العـوامل السياسية والثقافية والدينية لكى تحرك أحـد المطالبين ، وهو العالم المسيحى الغربى ، لكى يترجم رابطته العاطفية بالأرض المقدسـة الى سيطرة سياسية • وكانت وسيلة تحقيق هذه الغاية غير المتوقعة هى أجرأ الحملات العسكرية فى التاريخ • وقد تبعتها حروب متتالية استمرت قرنين من الزمان ، وعرفت باسم الحروب الصليبية •

- ٢ -

الحملــة الصليبية

كليرمونت فى السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥

أوشكت زيارة البابا للمدينة الواقعة فى اقليم برجنديا بمملكة فرنسا على الانتهاء ٠ وكان البابا أوربان الثانى Urban II قد دعا الى عقد مجمع كنسى لمناقشة سبل اصلاح الكنيسة الفرنسية التى قد تأثرت ، كغيرها ، بالتدخل العلمانى فى شئون الكنيسة وبالسيمونية أو المتاجرة فى الرتب الكهنوتية ٠ أما الموضوع الثانى ، والذى لم يكن ليقل أهمية ، فهو أن فيليب الثانى ملك فرنسا من آل كابيه كان يعيش حياة الخطيئة مع امرأة رجل آخر على الرغم من تحريم الكنيسة مما اعتبر بمثابة فضيحة من أكبر فضائح العالم المسيحى آنذاك ٠ وخلف الكواليس كانت تداعب البابا فكرة جديدة فى حملة صليبية لتحرير قبر المسيح من نير الاسلام ٠

هذه الفكرة كانت قد ظهرت منذ جيل مضى على يد البابا جريجورى السابع ٠ اذ كان الضغط الاســلامى فى شبه جزيرة ايبيريا ، والغزوات الخطيرة التى قام بها الأتراك السلاجقة ـ الذين كانوا قد استولوا على بغــداد سنة ١٠٥٥ على املاك المســلمين فى ســوريا وفلســطين ، وعلى أمــلاك البيزنطيين فى آســيا الصــغرى ٠٠٠ كان كل هــذا قد أدى الى ادراك البابا للخطــر الاســـلامى الداهـــم ، فطلب مساعدة مسيحية لاسبانيا كما طالب بحملة صليبية لصد الأتراك الذين كانوا يهــددون القسطنطينية ٠ وفى سرحة من سرحات الخيــال رأى جريجورى السابع نفسه قائدا لجيوش التحرير المتجهة صــوب الشرق ٠ وكان يرى أنه يمكن ، فى حالة قيادة زعيم العالم المسيحى الغربى لجيش مسيحى ينقذ القسطنطينية من الكفــار ، أن تعلن البابوية سيادتها على

أوربا الغربية المسيحية ، كما تتجسد مكانة البابا كمدافع عن العقيدة ، بدلا من الامبراطور الذى كان هو المسئول عن هذا الدور دائما · وعلى الرغم من أن هذه الاشارة المدوية كانت حجة ظاهرية ، فان مضمونها كان أكبر بكثير من مظهرها · فقد كان البابا يطمع فى أن تقوم الكنيسة الشرقية بالترضية المناسبة للبابا اذا ما قام بقيادة جيش ينقذ عاصمتها من الخطر الاسلامى ، وتعود علاقة كنيسة القسطنطينية بالبابوية الى ما كانت عليه قبل أن تقطع كل منهما الأخرى سنة ١٠٥٤ · وبدا وكأن التئام الشمل بعد الشقاق الدينى الكبير قد بات وشيكا ، لا سيما وأن الاختلافات العقائدية بين الشرق والغرب لم تكن كبيرة · بيد أن هذه الخطة قد ذهبت أدراج رياح العاصفة التى صحبت المواجهة بين البابوية والامبراطورية ·

ومع ذلك وصلت فرقة من فرسان الغرب المدرعين الى القسطنطينية · وفى سنة ١٠٩٤ أرسل الامبراطور البيزنطى اليكسيوس الأول كومنينوس Alexius I Comnenus سفارة مثلت أمام البابا فى بياكنزا (فى ايطاليا) Piacenza عشية رحيله الى كليرمونت وأثناء رحلة البابا الى كليرمونت عبر جنوب فرنسا ، وهى المنطقة التى خبرت الحرب ضد الاسلام فى شبه جزيرة ايبيريا ، نضجت فكرة انقاذ الشرق المسيحى ولكنها تأخرت فى تطورها · ومن فكرة انقاذ الشرق المسيحى ، الذى لم يكن يتهدده خطر حقيقى آنذاك ، نبتت فكرة تحرير القبر المقدس من نير الاسلام · وتضمنت الخطة الجديدة عناصر قديمة ، واذ تحدد هذا الهدف تحول النداء البابوى الى دعوة لشن حرب صليبية · لقد حلت القدس محل القسطنطينية ولكن العدو ظل كما هو : الأتراك الذين كانوا يحكمون آسيا الصغرى ويهددون القسطنطينية فضلا عن سيادتهم على المدينة المقدسة ·

كان التحول الى القدس يعنى ما هو اكثر من مجرد تغيير المقصد

الجغرافى للحملة الصليبية بل انه غير شكل هذه الحملة من مجرد فرقة من الفرسان المدرعين ترسل الى الشرق الى حملة جماهيرية صارت هى المحور الرئيسى الذى يدور حوله تاريخ أوربا والشرق الأدنى على مدى قرنين من الزمان · ولم يكن اسم القسطنطينية ، وانما أسماء بيت المقدس ، والناصرة ، وبيت لحم هى التى خلقت حنينا مسيحانيا تفجر فى شكل حماسة دينية · ولم تكن أهداف البابوية الرئيسية ـ أى العلاقات مع الامبراطورية الرومانية المقدسة ، والامبراطورية البيزنطية والكنيسة الشرقية المنشقة ـ تعنى شيئا بالنسبة للأفكار والعواطف التى كانت تجيش فى رؤوس الفرسان والفلاحين وفى صدورهم حين انضموا الى الحملة الصليبية · لقد كانت استجابة أوربا الغربية حماسية قوية للأفكار والشعارات التى طرحت فى ذلك الحين ، مثل تحرير القدس ، وتخليص قبر المخلص الذى تخيل البعض أنه رهين الأسر الاسلامى · وقدم البابا وعده بالغفران لكل من يشارك فى الحملة الصليبية ، وهكذا لحقت مفاهيم الحج والتوبة بمشروع جديد : حملة صليبية ذات هدف دينى · وكانت التوبة وأخطار الطريق هى الكفارة التى تفرضها الكنيسة على الآثم التائب · وقد اعتبر أوربان الثانى أن الحملة الصليبية تتساوى مع الحج فى طلب الغفران والتكفير عن الذنوب · وهكذا صار الاشتراك فى الحملة الصليبية بمثابة رحلة حج تكفيرية واستشهادية فى آن واحد · وقد صار مقصدها هو بيت المقدس ، وهدفها الصلاة عند مقبرة المخلص المحررة · ولم يكن احد يتنبأ بنتاج الدعوة الصادرة من كليرمونت بما فى ذلك أوربان الثانى نفسه · ومن ثم فقد بات من المتوقع والمتصور أن يتم تنظيم حملة من الفرسان المدربين جيدا · ولكن ما حدث بالفعل فاق أقصى ما كان يمكن لانسان أن يتصوره · فعلى مدى عامين بدا وكأن أوربا بأسرها تتحرك فى خروج ثان عظيم الى الأرض المقدسة · وليس بوسع المرء أن يحدد دافعا واحدا فى أمر يخص مئات الألوف من البشر ، ومع ذلك فانه لا يمكن أن يتطرق الشك الى أن الدافع الدينى كان هو الدافع الرئيسى وراء الحركة

الصليبية(١) ، فقد انضم الفرسان والأمراء الى الحركة وفاء بالتزاماتهم فى حكومة العالم المسيحى ، كما بحث سكان المدن والفلاحون عن خلاصهم فى هذه الحركة · ومع ذلك لم يكن أحد منهم بغافل عن سحر الشرق وأعاجيبه ، وهو ما يعنى أن القدس السماوية قد اختلطت بالأرضية ، كما امتزجت المطامح الروحية والمادية للناس · فبعد صدور النداء بشهور قليلة وصل المد الى كل ركن فى العالم المسيحى · وكانت القلة المشاركة فى مجمع كليرمونت هم أول من نقل الخبر · وفى وقت وجيز صار التنظيم الكنسى ـ الذى كان أعظم هيئات عصره من حيث الكفاءة والدقة ـ هو الوسيلة الدعائية للهدف الجديد · فقد انتشرت دعوة كليرمونت من خلال الكنيسة والدير لتصل الى كل قلعة وقرية ، فأثارت الخيال وباتت موضوعا للحديث وخلقت مناخا للرأى العام تحول فيما بعد الى عامل رئيسى فى تاريخ الحركة الصليبية · وأخذ النقاش يدور بين أرباب القلاع وأفصالهم واتباعهم · وبدأ الأمراء يفتشون عن وسائل تمويل الحملة · ومن قمم المجتمع هذه تسربت الأنباء الى مساكن الفلاحين المتواضعة ، والى المساكن المزدحمة فى المدن النامية · لقد داعبت خيال التابع الاقطاعى الشاب والعازب أحلام عن أعاجيب الشرق والثراء والقصور وجمال الحريم · وتطلع أبناء الأسر النبيلة من الشباب ، الذين يمثلون الدماء الجديدة الى الشرق باعتباره الأرض الموعودة التى يلتقون على ترابها مع أقدارهم · ومع ذلك كانت نزوة المغامرة ، والأمل فى المكافأة المادية

---

(١) الحقيقة أننا لا نستطيع أن نوافق المؤلف على رأيه هذا · حقيقة انه يبدو للوهلة الأولى أن الدافع الدينى كان هو العامل الأساسى ولكن البحث المتأنى فى احوال الغرب الأوربى آنذاك يكشف عن الخلفية الحقيقية للحركة الصليبية والتى كانت مزيجا من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية ، والدوافع الشخصية · وفى تصورنا انه يكون من الأوفق أن نقول ان هذه العوامل والدوافع قد عبرت عن نفسها تحت رداء الدين الذى تسربل به ذلك العصر ـ انظر مقدمتنا لهذه الترجمة · (المترجمان)

تحتل مكانة ثانوية لدى النبلاء والأشراف ، فقد كان رجال العصـــور الوسطى رجالا متدينين أساسا ، وكثيرا ما كانوا من الســـذاجة بحيث يعتقدون فى الخرافات • وكانت الرواية المقدسة تشكل جزءا لا يتجزأ من تربيتهم بصرف النظر عن معرفتهم الخاصة بعقائد الدين • ولم يكن العشاء الربانى والاعتراف والقديسون ومآثرهم والأعيــاد الكبيرة المبجلة فى التقويم المسيحى مجـــرد طقوس دينية ، وانما كانت جزءا من أســـلوب حياتهم • ولم تكن الاســـتجابة لنداء تحرير قبر المخلص ــ والذى دعمته القصص المتداولة ، والتى لا أساس لها من الصحة ، عن تدنيس الاماكن المقدسة ــ تعتبر فقط واجبا على المسيحى النبيل ، بل كانت ايضا جزءا من التزاماته الفروسية وواجب التابع الاقطـــاعى فى الدفاع عن سيده وتحريره من أسرة الفظيع فى نير الكافر الدنس • وهكذا امتزجت التقوى التى تشكل أساس ذلك العصر الدينى ، بالأفكار النامية للفروسية ، وهو ما أدى الى استجابة نبلاء الغرب لتوســـلات البابا من أجـــل شن حملة صليبية •

لقد كانت استجابة نبلاء الغرب متوقعة الى حد ما ، ولكن احـــدا لم يكن ليتنبأ برد فعل الجماهير • فقد اجتمع مؤتمر كليرمونت فى نهاية نوفمبر ، وحين كان الفلاحون يستعدون لفصل الشتاء • ومع ربيع سنة ١٠٩٦ كان الريف فى حال من الهيجان فلم يحصد الفلاحون محصولهم لكى يعولهم فى العام التالى ، ولكنهم جمعوا محاصيلهم من أجل الرحلة الى الشرق • وبعد شهور قلائل حملت أسر الفلاحين التى تفوق الحصر فى الاف الضياع ممتلكاتها الحقيرة ، ومعها النســـاء والأطفـــال ، على عربات ثقيلة تجرها الثيران أو الخيول وشقوا طريقهم صوب الشرق • وربما كانت القصـــة القائلة بأن الآلاف استجابوا لنداء أوربان الثانى بقولهم « انها ارادة الرب » قصة غير حقيقية ، ولكن الأمر بالنسبة لفلاحى أوربا كان أشبه بأمر الهى مباشر ، ورأوا فيه المعجزة الأولى فى سلسلة الأحـــداث الدالة على قدوم المسيح الثانى • ولم يكن فى استطاعة كتـــاب

الحوليات الكنسية العارفين بالشعب ان ينسبوا هذه الحال الدينية المفاجئة الى شيء سوى معجزة ، والا فما الذى حرك الجماهير المادية البليدة الجاهلة ؟

وليس ثمة شك فى ان كثيرا من الفلاحين الذين حملوا عائلاتهم على عربات قد فكروا فى تحرير أنفسهم من رق الأرض والعبودية الى جانب تحرير قبر المخلص ، فقد كان من المقبــول ضـمنا أن صـاحب الضيعة الاقطاعية لا يستطيع أن يمنع أقنانه من ترك الأرض ، اذ بات من المقرر كقاعدة ثابتة أن جيش التحرير سيكون نفرا من الرجال الأحرار . ولم تكن كلمة فرنجة Franci تعنى الفرنسيين فقط ، أو الأوربيين عامة فيما بعد ، ولكنها كانت تدل أيضـــا على الرجال الأحرار . وفى الأرض سوف يبقى المحاربون احرارا بعد أن يفتحوا البلاد ، وسوف يمتلك المهاجر مزرعة خاصة وربما يمتلك اقطاعية كاملة يعمل فيها الفلاحون المسلمون عبيدا له . ومع ذلك ، وعلى الرغم من انه كان لكل فـــرد أمله الصغير وأطماعه الانسانية ، فانه كان يهتم أيضا بخلاصـــه وبحياته فى الخلود ، ولذا كانت الحركة الى الشرق تجـــاه المذبح والشمس المشرقة التى هى الرموز الخالدة للأمل والخلاص .

وهكذا دخلت أوربا مع مطلع القرن الحـــادى عشر مرحلة احيـاء ويقظة دينية . وقد أثار الألف الأخير المتوقع مع بداية الألف الثانية وبعد أربعـــة وثلاثين عاما (١٠٣٤) ، أى بعد الف سنة من صلب المسيح ، موجة من التوبة فى وسط أوربا وغربهـا . وتعمق الشـــعور بالخطيئة والاحساس بالذنب . وقد أضفت الحركة الاصلاحية التى تزعمها سيركلونى والأديرة التابعة له ، والتى شملت الكنيسة نفسها ، بعدا جديدا على المناخ الدينى السائد ، فالحركات التى تستلهم الدين صارت واقعا محسوسا فى حياة الغرب السياسية مثل حركة « سلام الرب » ، « وهدنة الرب » التى كانت تمنع اراقة الدماء ، وتحصر القتـــال فى نطـــاق أيام معدودة من

الأسبوع تحت تهديد التحريم والمقاومة الجمـــاعية • وقد دعمت معاناة جماهير العامة حركة السلام ضد البارونات التواقين للنهب والمغامرة • وفى الوقت نفسه أدت التجربة الأليمة مع بداية القرن الى أن يبحث الناس عن وسائل يتحررون فيها من عبء الخطيئة، ومن هنا كثرت زيارات الأماكن المقدسة ، كما اكتسبت حياة الرهبنة جاذبية كبرى • وتم احياء الرهبنة مع بداية القرن الحادى عشر حين ظهرت أعداد كبيرة من نظم الرهبنة فى ايطاليا وانتشرت عبر جبال الألب • وكان أكثر هذه الظواهر وضوحا هى الحركات الباكرة التى أخذت تدعو الى العودة لحياة الفقر التى عاشها المجتمع المسيحى الباكر • وكانت هـــذه الحركات تشكل خطرا على نظم الحكم التى كانت قائمة آنذاك ، وأدانتها الكنيسة باعتبارها حركات هرطقية منشقة • الا أنه الادانة لم تشمل الجميـــع ، فقد كان الوعاظ الجوالون ينادون هنا وهناك بالحياة الرســولية ، أى بالعودة الى احتذاء خطى الرسل • وحطى الفقر الذى عاشــه الحواريون بالمديح ، بل واعتبر من الفضيلة ، كما كان تقليد حيـــاة الحواريين فى أسلوب حياتهم البسيط بمثابة تكفير عن الماضى وحماية للمستقبل •

وسرعان ما تحولت الدعوة الى حركة صليبية (والتى أدت اليها أسباب عديدة) ، أى الى فعل تكفيرى جماعى ، وكفارة عن رغبات وويلات ذلك الجيل • وتكشف الطريق الى الشرق بفعل عوامل كثيرة منها : التحرر من ربقة الشعور القاهر بالاثم والخوف من عقاب الجحيم فى الآخرة ، وفرصة القتال برفقة الاخوة وموافقتهم ومباركة الكنيسة ، وفرصة الوفاء بالتزامات الفرد كمسيحى وكفارس ، فضلا عن الوصول الى مدينة القدس الأرضية التى كانت تبدو وكأنها تنادى أبناءها الحقيقيين ليخلصوها من الكفرة ••• انتصار دنيوى مصحوب بوعد بالثواب السماوى •

وماذا بعد الغزو ؟ من الغريب أن أحـدا لم يطرح هـذا السؤال • واذا كانت هناك افكار واضحة لدى أوربان الثانى أو ادهمار اسقف لى بوى

Le Puy الذى عينـــه قائدا للحملة الصـــليبية ، فهـــذه الأفكار لم يعلن عنها شىء حتى وصلت الجيوش الصليبية الى آســـيا الصغرى . أما بالنسبة للجماهير الغفيرة من الفلاحين وســـكان المدن ورجال الدين والرهبان والفرسان ، فان هدفهم اقتصر على مجرد الوصول الى بيت المقدس . ولم تكن مجرد صدفة أن العامة المشتركين فى الحملة الصليبية اظهروا علامات الثقة فى النفس ، وربما الكبرياء . فلو أن يوم الحساب قريب ، ألن يكون الفقراء هم أول من يدخل القدس السماوية حسب تعاليم الكتاب المقدس ؟ ومن ثم صار الفقراء طبقة متميزة ، وقد ارتبطوا ببعضهم فى شركة غريبة تضم الذين لا يملكون ، وهم جماعة أحسوا على الفور أنهم جماعة مختارة للخلاص .

وهكذا تحركت فى ربيع سنة ١٠٩٦ ـ أى بعد نصف عام فقط من خطبـــة كليرمونت صـــانعة التاريخ طـــلائع الفلاحين التى سبقت حملة الفرسان الصليبية الكبرى . فانضمت أسر الفلاحين الى بعضها البعض ، وتزايدت أعداد الجماعات المتجهـــة صوب حوض الراين بحيث صـــارت فرقا وجيوشا . واختار البعض لأنفسهم قادة من بين نظرائهم ، على حين انضوى البعض الآخر تحت لواء أحد الفرســـان أو أحـــد أبناء العائلات النبيلة ، وتحرك البعض دونما قيادة . وقد حـــدث أن ســـارت بعض المجموعات وراء أوزة أو ماعز ، شك فى أن الحركة المقدسة تلهمها قوى غيبية . أما الذين ساورتهم الشكوك حـــول ذلك ، فقد تعين عليهم أن يسمعوا الحكايات التى كانت تروى عن الأصـــوات والرؤى التى تجلت للمختارين والمتنبئين الذين عاشوا لحظات مجدهم فى تلك الفترة .

وسرعان ما تعرضت مسيرة الكنيسة المقاتلة التى تصاحبها التراتيل المقدسة ، والتى بدأت كتعبير عن شعور دينى ، الى الاحداث التى شوهت صورتها . اذ ارتكبت واحدة من أكبر الفظائع فى التاريخ : تلك المذابح الدموية التى أجهزت تماما على الجماعات اليهودية فى حوض الراين ، وهى جماعات يعود تاريخ بعضها الى عصر الامبراطورية الرومانية ، أى

قبل أن تطأ قدم أى جرمانى همجى هـــذه الأرض الكلتية · وكان البعض الآخر أحدث فى الوجود على حين كانت بعض هذه الجماعات اليهودية قد قامت بناء على طلب ودعوة الاساقفة المحليين الذين أرادوا تعمير المدن الناشئة وتحويلها الى مراكز للتجارة والدخل · وفى اطار هذه الجماعات ازدهرت مدرسة حكماء فرنسا واللورين التى أنجزت أول المؤلفات الكبيرة فى تفسير الكتاب المقدس والتلمود فى شمال أوربا فى القرن الحادى عشر · ثم حدثت الكارثة التى توازى الهولوكست فى عصرنا الحالى · ذلك أن جماهير الصليبيين العامة ، التى انتابتها حالة مجنونة من الحماســـة المسيحانية ، أخذت تخير اليهود بين الردة أو الموت · واختارت الجماعات اليهودية الاستشهاد · ولا يمكن قراءة تفاصيل المذابح دون أن يشعر المرء باشمئزاز ، حتى بالنسبة لذلك العصر الذى اتســم بالفظاظة · وقد عبرت كراهية اليهود الدفينة فى كل البلاد المسيحية عن نفسها فى المذابح التى أصبحت ظاهرة ترتبط ارتباطا عضويا بكل حملة صليبية على طول مائتى سنة هى عمر الحركة الصليبية · وقد تلاشت مجتمعات يهودية بأسرها ، كما لقى آلاف اليهود حتفهم لأنهم رفضوا التعميد المسيحى · وبعد جيلين ، أى خلال الحملة الصليبية الثانية ظهر طقس جديد مثير للرعب والرهبة هو طقس الاستشهاد · فبدلا من قبـول التعميد الاجبـــارى كان الرجال يقطعون رقاب زوجاتهم وأطفالهم وهــم يتلون الصلوات الخاصـــة بذبح الحيوانات ، ثم ينتحرون وقد وجد الصليبيون الذين تغلغلوا الى مخابىء اليهود الساحات الصامتة التى اكتظت بجثث أولئك الذين استشهدوا على ايمانهم·وخلال شهور قليلة اختفت من الوجود مجتمعات يهودية مزدهرة ، كما دمرت مراكز التعليم والثقافة فى سباير وورس وكولونيا ، وبراين · فضلا عن تعرض أحوال هذه الجماعات الاجتماعية للخطر ، ودخل اليهود فى قرون الظلمة والاضطهاد الطويلة التى أستمرت فى بعض المناطق حتى بداية القرن العشرين ·

وقد حاول بعض الأساقفة ، فى أماكن متفرقة ، انقاذ اليهود ، فقد

كانت سياسة الكنيسة الرسمية تحرم التعميد الجبرى وارتكاب المذابح ضد اليهود الذين كان من الضرورى الاحتفاظ بهم كدليل وشهادة على الايمان المسيحى ، وكانت حجة الكنيسة انه يجب أن يستمر احتقار اليهود واذلالهم كدليل قائم على انتصار الكنيسة المظفرة · بيد أن تدخل الاساقفة لم يكن ذا تأثير يذكر ، اذ كانت الجماهير الثائرة تجد مخابىء اليهود (التى كانت حصونا فى أغلب الأحوال) وتعصف بها وتقتل اليهود · وقد أعلن انه يجب تطهير البيت من الداخل قبل قتال الكفار بالخارج · وهكذا أضيفت أسماء قادة من أمثال فولكمار Volkmar ، وجوتشوك Gottschalk واميخو Emicho الى قائمة العار الطويلة فى تاريخ أمة الشهداء ، لأن هذه الأسماء ليس لها ذكر فى تاريخ الغرب(٤) ·

واتجهت الجماهير التى عبرت الراين جنوبا صوب نهر الدانوب ، ثم واصلت سيرها نحو الشرق · واذ كانت هذه الجماهير تفتقر الى

---

(٤) لا شك أن المذابح التى تعرض لها يهود أوربا أثناء الحركة الصليبية دليل على مدى وحشية مرتكبيها ، ولكن يبدو أن المؤلف يتجاهل حقيقة أن اليهود يتحملون جزءا من مسئولية ما حدث لهم · فقد كانت الجماعات اليهودية تسيطر على شئون المال والتجارة فى أوربا العصور الوسطى · وكان طبيعيا أن يلجأ اليهم كثيرون من أجل الحصول على القروض · وفى أثناء فترة الاستعداد للحروب الصليبية لجأ فرسان الغرب الى المرابين اليهود للحصول على الأموال اللازمة · وكان للديون الثقيلة التى كبلوهم بها أثرها فى اذكاء نار العداوة الكامنة فى نفوس المسيحيين ضد اليهود · ومن ناحية أخرى ، اتخذ يهود أوربا موقفا معاديا من الحركة الصليبية منذ البداية مما زاد من مشاعر السخط والكراهية ضدهم

انظر : Runciman, A hist of the Crusades, Harper Torchbook New York 1964, vol. I, pp. 134 - 141.

وكذلك : سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧١ ، جـ ١ ، ص ١٤١ ــ ص ١٤٤ · (المترجم)

التنظيم وتسيطر عليها مشاعر الثورة ، ولأنها كانت نهبا لمشاعر الخوف والشـــكوك ، فان المؤن التى كان الأفراد والجماعات يحملونها سرعان ما نفدت ، وبدأت أعمال النهب · ففى فرنسا والمانيا وبوهيميا أيضا كان السكان المحليون يمدون جماهير الحملة الشعبية بالمؤن والأغذية · ولكن الجماعات فى مسيرها عبر أراضى المجر والبلقان بدأت تسلك ســلوك الجيوش الغازية التى تخترق أرض الأعداء · ونظم أهل المجر المقاومة المسلحة ، وخاضوا المعارك ضـد الجماعات الصليبية التى تحولت الى السلب والنهب · وساء الموقف عندما دخلت هـــذه الجحافل الفوضوية أراضى البلقان الخاضعة للامبراطورية البيزنطية · وكان للغـة المجهولة والكنيسة المختلفة والعادات الغربية أثرها فى تحويل لقاء الشرق والغرب الى موقعة عسكرية · ولقمع هـذه العصابات أرســل البيزنطيون القوات التى غالبا ما كانت من الاتراك العاملين فى خدمة بيزنطة لمنع النهب ، وكثيرا ما كانوا يمدون الجموع الصليبية بالمؤن والأغذية ليتجنبوا السلب والنهب · بيد أن الطريق الى القسطنطينية بات مرصعا بالقرى المحترقة والمدن المســلوبة واكوام الجثث · لقد عانت بيزنطة من تطرف الجموع القادمة من الغرب المسيحى ، وهى الجموع التى كان من المفروض أنهـا قدمت لنجدتها ·

وتضافر الجوع والمرض مع المقاومة المحلية للقضـــاء على أعداد كبيرة من الجموع الصليبية الشعبية · ولم تصل الى القسطنطينية من هذه الجموع الغفيرة التى تحركت من أوربا سوى شراذم هزيلة · وكانت مجموعة منهــا تحت قيـــادة بطرس الناســـك أو بطرس الاميـــانى Peter of Amiens الذى جعلت منه الأساطير المتأخرة بطلا صليبيا كبيرا · وعلى الرغم من تأثيره الفـائق على جماهير الصليبيين المنيدة ، فانه لم يستطع أن يبقيهم فى العاصـــمة فان اليكسيوس الأول

كومنينوس واتباعه لم يتحملوهم ، فنقلهم الامبراطور بسرعة عبر البسفور حيث واجهوا المسلمين فى نهاية المطاف · ولأنهم غير منظمين وينقصهم الاستعداد ، فقد بدد الأتراك شملهم ومزقوهم شر ممزق حول نيقية القديمة وألحقوا بهم الخسائر الفادحة · ولم ينقذهم سوى تدخل الامبراطور الذى انقذ بقاياهم وأعادهم سالمين الى العاصمة · ومع خريف سنة ١٠٩٦ كانت حملة الفلاحين الصليبية قد لاقت نهايتها المحتومة ·

وبينمـــا كانت الحملة الصليبية الشعبية تتخبط فى ممرات البلقان لتنتهى نهاية مزرية خارج أسوار القسطنطينية ، كانت حملة الفرســـان الصليبية الكبيرة تحشد قواتها المضاربة · وبدأت جيوش أوربا الغربية المنظمة جيدا والمدربة تماما تتحرك في منتصف صيف سنة ١٠٩٦ · وانضم حكام انجلترا الفرنسيون الى أخوتهم وأقاربهم عبر القنال الانجليزى فى فرنسا ، على حين لحق فرسان اقليم الفلاندرز بالجيوش القادمة من شمال ووسط فرنســا · واستعد فرســـان شـــمال ايطاليا للانضمام للحملة الصليبية · أما فى جنوب شــــبه الجزيرة الايطالية فقد كان النورمان مايزالون مشتبكين فى صراع ضد المسلمين والبيزنطيين ليقيموا لأنفسهم امارة على جانبى مضيق مســـينا · وقد ربطوا مصيرهم بالصليبيين · الا أن اسبانيا المشغولة بقتال مسلمى الأندلس ، والمانيا التى استغرقها النزاع على التقليد العلمانى (بين البابا والامبراطور الألمانى) لم تستجيبا لنـــداء البابا · وقد تحرك الاسكندنافيون بعد فترة وجيزة وأشتركت جماعات صغيرة من السلاف فى بوهيميا وبولندا والمجر فى الحمـــلات الصليبية التالية ·

وهكذا تم تكوين أربعة جيوش كبيرة أعتمد تنظيمها على التقسيمات الجغرافية والولاء المحلى والجنسى واللغوى للمشاركين فيها · فقاد روبرت دوق نورماندى جيوش شمال وغرب فرنسا التى انضم اليها اتباع أخيه هنرى الأول ملك انجلترا ، وقاد جودفرى البولونى جيش الفلاندرز واللورين

وشمال غرب فرنسا ، على حين قاد هوف الفيرموندوى ، اخو ملك فرنسا فيليب الأول فرســـان وسط فرنســـا ، موطن آل كابيه ، وتولى ريموند دى سان جيل كونت تولوز وماركيز البروفنسال قيادة جيوش جنوب فرنسا والبروفنسال ولانجدوك · وأخيرا تولى بوهيموند الأورنتى وابن اخيه الشهير تنكرد قيادة النورمان الايطاليين ·

وتم تعيـين أدهمـــار دى مـــونتيل Adhemar de Monteuid اسقف لو بى Le Puy كممثل أو مندوب بابوى · وباعتباره صاحب أعلى درجة كهنوتية ، فقد صـــار هو الوسيط والمنظم بين قادة الجيوش الصليبية · وقد لحق بالجيوش الكبيرة التى تكونت أساسا من الفلاحين الذين كانت حركاتهم تتم عادة تحت قيادة رؤســـائهم المحليين التقليديين (أى سادتهم من النبلاء) · وحدثت بعض التجاوزات هنا وهناك ، ولكن تحرك الجيوش بشكل عام تم على درجة مقبولة نسبيا من النظام · وسارت الفيالق الفرنسية على الطريق البرى صوب الشرق عبر أراضى وحوض الدانوب ، على حين عبرت قـــوات النورمان الايطاليين وبعض القوات الفرنسية البحر الأدرياتى وتحركت خلال طريق فيا اجناتيا Via Egnatia الرومانى القديم والذى يمر عبر البلقان ·

كانت القسطنطينية هى نقطة التجمع حيث التقت الجيوش الصليبية معا فى ربيع سنة ١٠٩٧ · وكان هـــذا هو لقاؤهم الأول مع الشرق : فها هو الامبراطورية المسيحية الشرقية على البوسفور ، ولم يكن بمقدور أحد منهم أن يصل بخياله الى تصور منظر العاصمة العظيمة · ونظرا لأن الصليبيين قدموا من أوربا الخالية من المدن ، حيث كان عـــدد التجمعات السكانية الكبرى يتراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف نسمة ، فقد اندهش الصليبيون لجمال القسطنطينية بأسوارها التى تبلغ الميل طولا ، وقبابها الذهبية التى تسمو وسط السحب ، فضلا عن قصورها وكنائسها وأسواقها

وميناءها المزدحم الى جانب الآثار التى تحكى قصة مجدها الكلاسيكى . على أن اكثر ما أثار دهشتهم هى جماهير السكان الغفيرة . فقد كانت القسطنطينية بوابة الشرق ومدخلا عظيما الى هـــذا الشرق الســـاحر الغامض . وكانت تلك أيضا هى لحظة الصدام الأول مع دعاوى بيزنطة .

وقد أخذ الامبراطور اليكسيوس الأول كومنينوس بوصول منقذيه . لقد كان حاكما قويا وحاول قدر جهده أن يمنع هزيمة الجيش البيزنطى على يد الأتراك الســـلاجقة فى منزيكرت منذ جيل مضى (١٠٧٠) . ولكن منقذيه لم يكونوا من فرق الفرسان فقط كما كان يتوقع ، وانما كانوا شراذم الفلاحين الصليبيين المشاغبين . وهو ما جعله يتوقع ما هو اسوأ . وهكذا كان على اليكسيوس أن يواجه احتمـــال رؤية امبراطوريته ترزح تحت وطأة الجيوش الأوربية القوية الضخمة . ومن ثم حاول الامبراطور التوصل الى نوع من الاتفاق مع القادة الصليبيين ، فقد كان من المستحيل أن يعاملهم كمرتزقة يدفع لهم الرواتب لقاء عملهم فى خدمته . كما كان من الصعب أن يعتبرهم حلفاء . ومن حسن الطالع أن الجيوش الصليبية لم تصل معا فى وقت واحد ، مما أتاح للامبراطور فرصـــة التعامل مع القادة . كل على حدة . فضلا عن أن ريموند الســـانجيلى وبوهيموند الأترانتى (وهو حليف جبـــار كان قد غزا الأملاك البيزنطية فى البلقان منذ سنوات قليلة) كانا يتطلعـــان الى نوع من التفويض الامبراطورى لتدعيم موقف كل منهما بين القادة الصليبيين . وقد نجح الامبراطور فى أن ينتزع من كليهما وعدا بالحفاظ على حقوق امبراطوريته فى غزواتهما التاليـــة التى تتم فى المقاطعات البيزنطية الســـابقة مستخدما الحيـــل والتهديدات والرشوة للوصول الى هدفه . وفى النهاية قطع معظم القادة الصليبيين على أنفسهم عهودا أمام الامبراطور ، مقابل امدادهم بالأدلاء والأموال والمؤن . ثم قام الامبراطور بنقلهم على وجه السرعة عبر المضايق الى الأراضى الآسيوية

وهناك ، خارج القسطنطينية بعدة أميال ألفى الصليبيون انفسهم فى أرض العدو للمرة الأولى . ذلك انه بعد انتصار الأتراك الســلاجقة فى مانزكرت أصبحت آسـيا الصغرى بأسرها فى قبضتهم . الا أن السيادة التركية الجديدة على هـذه المناطق لم تغير التركيب السكانى الذى ظل بيزنطيا فى غالبيته ، على حين ظلت الحامية السلجوقية فى الحصـــون وقلاع المدن فقط . واذا كان ثمة شـعار للتحرير قد طـرح من قبل ، فان الطريق الى تحقيقه على يد الصليبيين كان يبدأ من هذه المنطقة .

وفى البداية بدا وكأن الأمـور ســوف تسير على هوى الجيوش الصليبية . فقد تم حصار مدينة نيقية وتسليمها الى بيزنطة وفقا لما طلبه أهلها . ثم تحركت الجيوش الصليبية تجاه الجنوب ، واحرزت انتصارا فى معركة ضورليوم الخالدة سنة ١٠٩٧ . وتوقفت كل المقاومة المنظمة عبر آسيا الصغرى . ومع ذلك كانت الجيوش تتعرضت للهجمات الخاطفة من جانب الأتراك بشكل متواصل ، اذ كانت وحدات الفرسان رماة السهام تظهر فجأة وكأنما انشقت عنهم الأرض ، ويمطرون الصليبيين بوابل من سهامهم ، ثم يختفون فجأة كما ظهروا . وكم كانت هذه الهجمات المفاجئة مؤلمـة وموجعة بالنسبة للصليبيين ، ولكنها لم توقف تقدم الجيوش . أما المناخ ، فقد كان هو عدو الصليبيين الرئيسى ، فقد كانوا يعانون من حرارة الجو التى اشتهرت بها مناطق وسط آسيا . كما عانوا من نقص الطعام والماء عندما كانت تنفد المؤن التى أمدهم بها الامبراطور البيزنطى بصورة كريمة . ولكن الجيوش أخذت تناضل وهى تشق طريقها باتجـاه قلب آسيا الصغرى ، ثم واصلت السير صوب الجنوب حتى ممرات جبال طوروس الضخمة . واحتـل الصليبيون ، فى طريقهم ، قونيـة عاصـمة الأتراك فى آسيا الصغرى .

وبعد وصـول الصليبيين الى جبــال طوروس قابلهم المسيحيون فى

المنطقة التى عرفت باسم أرمينيا الصغرى التى هاجر سكانها اليها من أرمينيا الكبرى حول بحيرة فان Van ، وخلقوا كيانا سياسيا جديدا فى هذه المنطقة · وهناك تلقى الصليبيون النداء الأول من السكان المسيحيين لمساعدتهم · فقد خلقت تقلبات الحرب والغزو منطقة من المقاطعات الصغيرة تبدأ من البحر فى الغرب حتى أعالى النهرين فى الشرق · وكان غالبية سكان هذه المنطقة من المسيحيين الأرمن ، وكان بعضهم يخضع لحكم القادة البيزنطيين ، على حين كان البعض الآخر يدين بالطاعة للبيزنطيين الخائنين ، أو الأرمن الذين أعلنوا ولاءهم أو طاعتهم أو كليهما للزعماء الأتراك ، أو لحكام مقاطعاتهم · ومن هذه الجماعات المسيحية فى الرها وما حولها جاء النداء بطلب مساعدة الصليبيين وتحرك لنجدتهم بلدوين شقيق جودفرى · وقد رحب به حاكم الرها وتبناه ، ولكن بلدوين دبر تمردا ضد الشخص الذى أحسن اليه ، ثم استولى على المدينة ، وأقام أول مقاطعة صليبية فى الشرق ، وهى امارة الرها · وهكذا أقيم شعار بيت دوق اللورين بين نهرى دجلة والفرات ، وبذلك أسست أوربا أولى مستعمراتها فيما وراء البحار ·

وفى الوقت نفسه عبر الجيش الصليبى ممرات جبال طوروس ودخل شمال سوريا · وكانت مراكز الحكم الاسلامى فى انطاكية ودمشق · فمنذ أن قام الأتراك السلاجقة بغزو انطاكية سنة ١٠٨٥ انقسمت سوريا الى امارات صغيرة كانت تدين بالتبعية الاسمية للخلافة العباسية فى بغداد ، وسلطة السلطان السلجوقى القابع بعيدا فى فارس · وفى الحقيقة أن القتال والتحارب كان هو النغمة السائدة فى العلاقات بين الأمراء ·

وفرض الصليبيون أول حصار طويل منظم تمارسة الحملة الصليبية الأولى فى ١٠٩٧ ـ ١٠٩٨ · وعلى الرغم من بسالة الدفاع عن المدينة ، فانها سقطت بسبب خيانة الأرمن · وكان سقوط انطاكية بمثابة طوق

النجاة الذى أنقذ الصليبيين ، اذ كان هناك جيش سلجوقى ضخم قد تحرك من الموصل لنجدة المدينة ، وكان على بعد سيرة أيام منها · فلو ان المدينة لم تكن قد سـقطت بعد ، لشهدت جبال المنطقة نهاية الجيوش الصليبية المرهقة الجائعة ، وتلقفتها سيوف سكان المدينة المسلمة وقوات الانقاذ ·

وحين فشل قربوغا فى انقاذ انطاكية استقر الجيش لحصار المدينة التى اكتظت بالجثث وعضهـا الجـوع بعد أن تحصن الصليبيون بهـا · وبدا أنهم فى حاجة الى معجزة تفتح أمامهم سـبيل النجـاة ، وقد حدثت المعجزة · فقد خرج أحد رجال الدين البروفنساليين المغمورين بحكاية عن رؤيا مقدسة ، وأعلن أن الحربة التى كانت قد اخترقت جسد المسيح منذ احد عشر قرنا مخبوءة فى انطاكيـة · وتم العثور على الحربة بسهولة لأن الرؤيا حددت موقعها بالضبط · وقد أدت هـذه الآية السـماوية الى رفع معنويات الجيش الذى عبر عن شجاعته واقدامه فى هجوم استمر يوما كاملا ضد قوات الحصار الاسلامية · وتفرق الجيش التركى المهزوم واختفى · ولم يكن هناك جيش اسلامى آخر يمكنه سد الطريق الى القدس ، وقد تكفل الطمع الانسانى بهذه المهمة ·

فقد تسبب عناء الطريق الطويل والأمراض والحاجة ، ومتاعب فترة الحصار الثنائى لمدينة أنطاكية ، فى الفسـاد الاخلاقى ، أو ما يمكن أن نصفه بالافلاس الايديولوجى للحركة الصليبية · فقد انطلق الطمع والجشع المكبوت من أغلال الايديولوجية والواقع المر الذى كان يخفف من حدته ، واختار لحظة انطلاقه حين توقفت الحرب ، وتجسد فى بؤرة شريرة من الدسائس والصراعات والمؤامرات التى امتدت خيوطها بين القادة الصليبيين · فقد تحدى ريموند السانجيلى ، بوهيموند النورمانى صانع النصر فى انطاكية وادعى أن المدينـة من حقـه · ولكن قادة الجيوش الصليبية قرروا ترك انطاكية للنورمانى وتجاهل الاتفاق المعقود مع الامبراطور البيزنطى الذى

كان يطالب بالعاصمة لنفسه · وفى خضم هـــذا الصراع تفرق الجيش الصليبى، وأخذ القادة والرؤساء والفرسان ذوو الرتب الأدنى يغيرون على المناطق الريفية المجاورة لانطاكية ، كل منهم يحاول أن يحصل لنفسه على بعض الأملاك · ولما كانت المقاومة المحلية ضعيفة ، فان القرى والمـــدن والقـــلاع لم تلبث أن خضعت للصليبيين · ووجد الغربيون المســاكن السورية مريحة والطعام لذيذا ، وبدا أن اقامتهم فى شمال سوريا سوف تدوم · ويغلب على المرء انطباع بأن انطاكيـة حلت محـل القدس ، وأن نهر العاصي (الأورونط) حل محل الأردن · وعند هـــذه المرحلة تفجرت ثورة غير متوقعـــة وتحدت الزعمـــاء · فقد طالب الفقراء الذين كانوا مايزالون يحملون شعلة الحركة ، بعودة الزعمـــاء الى الالتزام ، واعلن متحدثهم فى جراة أن هدف الحملة الصليبية لم يكن الحصول على املاك للقادة ، وأن مقصدها لم يكن أنطاكية وانما بيت المقدس · هـــذه الثورة قوبلت بالسخرية والدهشة فى بداية الأمر ، ولكن هذه الدهشة لم تلبث أن تحولت الى صدمة عندما هدد زعمـاء التمرد بحرق انطاكية ، وهـدم اسوارها اذا لم يتحرك القادة الى القدس فى التو ·

وفى هذه المرة كان رد الفعل مســاويا للتهديد ، اذ أقســم القــادة الصليبيون قسما جادا بالا ينســوا القدس · وبعد التكفير والتوبة تحرك الجيش الصليبى الى جنوب ســوريا ولبنان ولم تبذل المراكز الاســلامية شرق نهر العاصى وحلب وحمـاة وحمص اى جهد لوقف تقــدم الجيوش الصليبية · بل ان أمراء المدن سهلوا حركة الجيش وأمدوه بالمؤن حتى يتخلصوا من الغزاة · والحقيقة أن الصليبيين فى طريقهم الى القدس لم يتوقفوا لكى يستولوا على المـدن والقــلاع ، باستثناء مدينـــة طرابلس اللبنانية التى فرض عليها حصار فاشل وتركت تحت رقابة حامية صغيرة · وفى ربيع سنة ١٠٩٩ مر الجيش ببعض المدن المشهورة ذات الأسماء التى تذكر بالعالم القديم والعالم الهيلينستى ، وهى مـدن بيروت ، وصيدا ،

وصور ثم وصل أخيرا الى فلسطين ، ثم سـار الجيش بحذاء ساحل الجليل حتى وصل الى خليج عكا ، ودخل سهل شارون الخصيب المشهور فى الكتاب المقدس ، وواصل السير الى قيصرية · وقبل الوصول الى ميناء يافا اتجه الى الداخل تجاه الرملة واللد المجاورة حيث استراح الجيش أياما قليلة ، وهناك رسم أول اسقف فى الأرض المقدسـة ، وهو أسقف سان جورج (اللد) كنوع من التقرب ببواكير الثمار الى اله الجيوش فى أرضه الموعودة ·

وكان على الصليبيين أن يكونوا أكثر امتنانا لما حققوه ، فقد هجر المسـلمون الذين أخذتهم المفاجأة ميناء يافا والرملة دون قتال · وبعد احتلال القدس ضمن الصليبيون لأنفسهم ملجأ وملاذا فى هاتين المدينتين الواقعتين فى منتصف الطريق ، كما ضمنوا منفذا مباشرا الى البحر · فقد اعتمد مستقبل الصليبيين تماما على التعزيزات والامدادات التى قدمت اليهم من أوربا عبر البحار ·

وبعد ثلاثة أيام من الراحة ترك الجيش حامية فى الرملة ، ثم اشتبك فى القتال فى منطقة جبال يهوذا · وفى ٧ يونيو ١٠٩٩وصل الصليبيون الى قمة تل يشرف على القدس · وهو المدفن المتعارف عليه للنبى صموئيل· وأخيرا صافحت عيونهم المدينـة المقدسـة · وتم تعميد التل باسـم « تل الفرح » · وركع أفراد الجيش فى صلاة تأملية خاشعة وهم يشاهدون المدينة بقبابها ومآذنها ومنازلها ذات الاسقف المسطحة وأسـواقها ذات الاسقف الدائرية · وكان من الصعب تمييز قبة كنيسة القيامة · وعلى خط الأفق خلف المدينة يقع جبل الزيتون والموضع الذى شهد صعود المسيح · كانت الحملة الصليبية تقترب من نهايتها ووصل وفد مسيحى من بيت لحم ليطلب الحماية للمسيحيين الذين بات وجودهم تحت تهديد مشاعر التعصب والرغبة فى الانتقام التى تملكت المسلمين · وحين أسـدل الليل ستاره امتطى تنكرد صهوة جواده باتجاه المدينة ، وفى صباح اليوم التالى كان

هناك علم نورمانى يرفوف فوق كنيسة الميلاد قبل أن تطأ قدم أى غربى تراب مدينة القدس المباركة ٠

كان الفصل الأخير فى قصة الحملة الصليبية هو حصار القدس الذى استمر طوال خمسة أسابيع (٧ يونيو ١٥ ـ يوليو ١٠٩٩) ٠ وكانت المدينة قد هيأت نفسها لحصار طويل نظراً لأن الوديان العميقة تحيط بها من كل جانب ، ماعدا الجانب الشمالى ٠ وأقام الصليبيون معسكراتهم حول الأسوار الشمالية والغربية والجنوبية للمدينة ، ولكنهم فشلوا فى اغلاق المدينة من جهة الشرق (بين ساحة الهيكل وجبل الزيتون) ٠ وتصوروا أن الحصار سوف يكون عاديا ، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن قواتهم لن تتمكن من تنفيذ مهمتها بسهولة ٠

ولم يكن هناك ما يلائم هذا الفصل الأخير فى ملحمة الحملة الأولى اكثر من اشاعة حدوث بعض الرؤى المقدسة ، واشتراك القديس جورج فى المعارك ٠ وهنا كان قادة الحملة الصليبية الذين كانوا ابطالا فى مئات المعارك ، ورفاقهم من المقاتلين المحنكين ، يبحثون عن النصيحة والمشورة لدى راهب عاش فى أحد كهوف جبل الزيتون عن كيفية الاستيلاء على المدينة ٠ فلم يكن هناك جدوى من الغارات الفاشلة على الأسوار ، ومواكب المشاة المحيطة بها ، أو توقع سقوطها على نحو ما سقطت أسوار أريحا ٠ لقد انقضت الأسابيع الخمسة قبل أن تكون آلات الحصار جاهزة للعمل ولشن هجوم شامل يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩ ٠ ففى وقت الظهيرة ، ساعة الصلب فى التراث المسيحى ، نجح برج المحاصرة بقيادة جودفرى فى الاقتراب من الطرف الشرقى للسور الشمالى ، وثم مد جسر على شرفات الحصن ، ودخل الجيش المدينة من الحى اليهودى ٠ وفى الوقت نفسه دخل ريموند السانجيلى المدينة من الركن الجنوبى الغربى (جبل صهيون) وتلقى شروط استسلام قائد القلعة المصرى بينما تحرك تنكرد صوب صخرة القبة مباشرة ٠

واعقب سقوط القدس مذبحة فظيعة راح ضحيتها المدافعون عن المدينة وسكانها من المسلمين واليهود · وأبيحت المدينة لأعمال السلب والنهب على مدى ثلاثة أيام متوالية · وفاض الـدم فى الشوارع ، وظلت اكـوام الجثث مصدر ازعاج فى الشوارع فترة طويلة · وفى هذا الجو الموحش الذى يلفه الصمت الرهيب وتغلفه الروائح الكريهة الصادرة عن المنازل المحترقة والأجساد العفنة اجتمع الصليبيون فى كنيسة القيامة ، وترددت عبارة Te Deum laudamus أى « نحمدك يا الله » فى الكنيسة القديمة وهكذا انتهت الحملة الصليبية الأولى وتأسست المملكة الصليبية ·

ـ ٣ ـ

الصليب والهلال

كانت القدس مدينة مسيحية · وبعد أن ظلت خاضعة للسيادة الاسلامية طوال أربعة قرون حل الصليب محل الهلال · وتحولت المساجد والمعابد الى كنائس وازيل المحراب ، وأقيم المذبح باتجاه شروق الشمس · ومنع المسلمون واليهود من الاقامة فى المدينة المقدسة · اذ أن الغزاة المنتصرين اعتبروا أن سكنى أولئك الذين رفضوا المسيح ، فى المكان الذى شهد معاناته وصلبه ، تدنيس للمدينة المقدسة وانتهاك لحرمتها ·

ومع غروب شمس القرن الحادى عشر قامت فى الأرض المقدسة عاصمة مسيحية كما أقيمت عدة مستعمرات فرنجية صغيرة فى الرها وبلاد النهرين وانطاكية وسوريا فضلا عن بعض مدن الشاطىء اللبنانى · وكان من الضرورى أن يتم ربط هذه المراكز القليلة المتباعدة ببعضها البعض حتى يمكن بناء دولة محكمة البنيان تتميز بوحدة أراضيها · وكانت المهمة تبدو شاقة وعسيرة ورهيبة ، بيد اننا اذا ما رجعنا بذاكرتنا الى الماضى القريب ، ابان الحملة الصليبية الأولى ، والدروب الشاقة التى كان عليها أن تسير فيها صوب نصرها النهائى ، بدت هذه المهمة هينة وسهلة · لقد كانت عبارة Dieu le Vent « انها ارادة الرب » هى صيحة القتال لدى الصليبيين . وكان الصليبيون يؤمنون بأن الرب قد اظهر رغبته فى تطهير معقله ، وأن القديسين قد ساهموا فى المعركة ، وجلبوا النصر لجيوش المؤمنين الحقيقيين ، ومن ثم كان هناك أمل فى المستقبل ·

أما قيام المملكة الصليبية لكى تبقى على تراب الأرض المقدسة ،

فقد كان بمثابة حقيقة مرة غير متوقعة كان على المسلمين أن يواجهوها مع أفول القرن الحادى عشر • وفي بطء عنيد تحولت حيازة الصليبيين الحذرة على بعض المدن القليلة المتناثرة الى سيادة على أقاليم متصلة ، أخذت فى التوسع والامتداد دون أدنى مقاومة • لقد تلقى العالم الاســـلامى ضربة مفاجئة أثارت الذعر في جنباته ، وتسببت في شلل الامارات السورية التى كان يحكمها الأتراك السلاجقة فى حلب وشيزر وحماة وحمص ودمشق وغيرهـــا من الممالك الاقليمية التى كانت جميعها تدين بالولاء للخليفة العباسى فى بغداد • وكانت الحروب التى جرت فى العقد الســـابق على الحروب الصليبية ميراثا من المرارة والحقد والشك بين هـــذه الامارات الاسلامية • كما كانت الهوة الفاصلة بشكل مستمر بين امارات الشـــمال المتحاربة ، والجنوب الاسلامى ، عميقة لدرجة امتنع معها العمل المشترك بينها لفترة من الزمان • وكانت مصر القـــوة العظمى فى العالم الاسلامى تحت حكم الخليفة الفاطمى الشيعى هى المنافس القوى لسوريا وبغداد على المستوى الدينى والاقتصادى والسياسى • ولم يكن الانشقاق الكائن بين أهل السنة فى بغداد والشيعة فى مصر مجرد اختلاف فى المبادىء الدينية • ذلك أن كل خلافة منهما كانت تدعى لنفسها الشرعية الكاملة ، على حين اتهمت فريق الآخر باغتصـــاب السلطة والخروج على الدين • فضلا عن أن المصالح المتعارضة فى كل من ســـوريا والعراق وفارس ، حيث يحكم السلطان السلجوقى ، كانت تمنع تعبئة موارد العالم الاسلامى الهائلة فى المجال الاقتصادى والبشرى لصالح الحرب ضد الصليبيين •

هذه الفوضى السياسية هى التى شـــجعت الصليبيين على المضى قدما ، ومكنتهم من الوصول الى بيت المقدس • وظل الحـــال على ما هو عليه طوال جيلين تمكن الصليبيون أثناءهما من تدعيم فتوحاتهم • وهكذا شـــاد الصليبيون دولة عاشت قرنين من الزمان فى مواجهـــة القـــوى الاسلامية .

كانت الغزوات الأولى بعد الاستيلاء على بيت المقدس تستهدف شاطىء البحر المتوسط ذا الأهمية الحيوية ٠ اذ لم يكن الشاطىء مجرد جبهة أخرى للتوسع ، وانما كان ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها لاستمرار المنشآت الصليبية التى لم تكن قد تمت بعد ، والتى اعتمد وجودها على فيض الامدادات القادمة من أوربا لتجلب موجات جديدة من المقاتلين والمهاجرين المستعدين للسير على درب الحملة الصليبية الأولى المظفرة ٠ وفى الفترة ما بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٠٢ تمت عدة محاولات فاشلة لاستخدام الطريق البرى الذى استخدمته الحملة الأولى ٠ ثم هجر هذا الطريق حتى قدوم الحملة الثانية ، ثم هجر ثانية حتى قدوم الحملة الصليبية الثالثة ٠ واذ اغلق سلاجقة الروم طريق آسيا الصغرى البرى لم يتبق للصليبيين سوى الطريق البحرى ٠ وفى بداية الأمر لم يكن بأيدى الصليبيين سوى مينائين هما : سان سيمون ميناء انطاكية ، وميناء يافا الزلق الذى كان المسلمون قد هجروه عندما أخذ الصليبيون يشقون طريقهم صوب الرملة والقدس ٠ الا أن الطريق الساحلى كان يمتد على مدى خمسمائة ميل فيما بين الاسكندرونه وغزة ، ومن ثم كانت الصعوبات التى تجشمها الصليبيون هائلة وعديدة ٠ كما انهم لم يكونوا بقادرين على قطع الامدادات عن المدن التى كانت تتلقى مؤنها بشكل مستمر عن طريق ميناء صور ، أو اساطيل مصر التى كانت هذه المدن تدين لها بالولاء الاسمى ٠ فضلا عن أن الصليبيين لم يكونوا يمتلكون اسطولا ، كما لم تكن لديهم أية خبرة بحرية ٠ وهو ما جعل من اساطيل الجمهوريات الايطالية الفتية القوية عاملا مساعدا فى غزو سوريا وفلسطين ٠ وبدأت جنوا ، وتلتها بيزا والبندقية فى توجيه اساطيلها الى الأرض المقدسة ٠ وعلى مدى عقد كامل من الزمان شهد البحر الادرياتى والبحر الليجورى رحيل الاساطيل الايطالية صوب الشرق قرب عيد القيامة حيث كانت تصل الى مياه الشرق فى أبريل أو مايو ٠ وأخذت البحريات الايطالية ـ دونما تخطيط فى البداية ، ثم بالتنسيق مع الصليبيين فيما بعد ـ فى حصار

المدن البحرية الاسلامية من البحر على حين يداهمها الصليبيون من البر ٠ وكان مصير المدن الساحلية واحدا ، سواء منها ما أخذت على حين غرة أو التى استسلمت بسهولة ٠ فقد تعرضت جميع هذه المدن للغزو واستولى عليها ونهبت وقضى على سكانها ، بشكل يتناقض احيانا مع المعاهدات التى نظمت الاستسلام ٠ وعلى مدى عقد كامل ظل الصليبيون يكيلون ضربات موجعة وعنيفة للساحل الحصين ، وفى نهاية هذه الفترة (سنة ١١١١) كان الساحل السورى اللبنانى الفلسطينى بأسره قد وقع بأيدى الصليبيين فيما عدا ميناء صور المحصن الذى ظل يقاوم حتى سنة ١١٢٣ ، ومدينة عسقلان التى ظلت خاضعة لمصر حتى سنة ١١٥٤ ٠ لقد ثبت غزو الساحل الحدود الغربية الطبيعية للمملكة الصليبية(١) ٠

وعلى الرغم من أن فتح المدن الساحلية قد تم فى زمن وجيز ، فانه استلزم جهدا خارقا من القوات الصليبية الضعيفة نسبيا ٠ ومع هذا كان غزو المناطق الداخلية أيسر نسبيا ، اذ أن هذه المناطق لم تكن ذات تحصين قوى ، وقليل من مدنها كان لها أسوار ٠ كذلك كانت القلاع محدودة لأن الحكام الدمشقيين لم يكونوا يعتبرون المنطقة أرض حدود ٠ وهكذا اتجه الصليبيون بعد فتح بيت المقدس مباشرة صوب شمال يهوذا والسامرة(٢)

---

(١) هنا يتحدث مؤلف الكتاب عن فكرة الحدود الطبيعية على نحو يذكرنا بقضية الحدود الطبيعية ومفهوم الأمن الاسرائيلى ، وهو الأمر الذى يدعو الى دراسة مدى التشابه بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية ٠

(الترجمة)

(٢) يستخدم المؤلف الأسماء العبرية الواردة فى الكتاب المقدس للدلالة على المناطق التى شهدت أحداث الحروب الصليبية دونما مبرر معقول ، لاسيما وأن أسماء هذه المناطق فى تلك الفترة التاريخية كانت هى الأسماء المعروفة حاليا ٠ وعلى أية حال فان هذا الأمر متكرر فى الكتاب ٠

(الترجمة)

حيث استولوا عليها دون مقاومة تذكر ، ثم اتجهوا شمالا حيث استولى تنكرد Tancred على جبل طابور والناصرة وطبرية وفرض الحكم والسيادة الصليبية على الجليل . وبالاستيلاء على طبرية استمرت الغزوات الصليبية عبر بحر الجليل ونهر الأردن خلال مرتفعات الجولان ، ومنها تجاه دمشق عاصمة سوريا . وكانت القوات الصليبية من القلة بحيث لا تمثل خطرا حقيقيا على مدينة كبرى . لقد كانت هذه القوات قليلة بشكل يدعو الى السخرية ، وبحيث لايمكنها أن تفرض حصاراً . ففى عدد من الغزوات الرئيسية كانت القوة لا تزيد عن ثمانين فارسا . ومع ذلك فان الغارات المتواصلة على المناطق الريفية غير الحصينة ، والاستيلاء على المواشى ومناطق الرعى ، فضلا عن تدمير المحاصيل وهروب السكان ، قد حمل العاصمة بأعباء ثقيلة منها عبء اللاجئين ، نقص المواد الغذائية وارتفاع الأسعار .

وهكذا بدأت هذه الجماعات الغازية تحفر بغاراتها المتواصلة على الساحل الجنوبى خريطة المستقبل للملكة الصليبية . ومع بداية العقد الثانى بلور الصليبيون استراتيجية أمن عسكرية وسياسية يمكن تلخيصها فى عبارة « الحدود الطبيعية » فقد كان الحد الشمالى المسالم يمتد فيما بين بيروت التى سقطت سنة ١١١٠ وجبلة (بيبلوس Byblos القديمة) فى مقاطعة طربلس (لبنان الحديث تقريبا) . وفى الشمال الشرقى كان الصليبيون يسيطرون على منابع نهر الأردن ، وعلى مدينة بانياس وقلعتها التى كانت هى الحصن الوحيد فى المنطقة . أما الحدود الشرقية فكانت تمثل اكثر من مشكلة ، ففى الشمال كانت الحدود الشرقية تجابه دمشق ولم يتمكن الصليبيون من تعبئة القوة الكافية للاستيلاء على المدينة أو حتى توطيد انفسهم فى تحصينات على الجولان . كما ان الدمشقيين من ناحيتهم كانوا يشاهدون التدمير المنظم لمزارعهم ومراعيهم دون أن يتمكنوا من منعه او حتى مقاومته على نحو فعال ، اذ كان من المستحيل عمليا بناء الحصون نظرا لقرب قواعد الصليبيين .

وكانت نتيجة هذا المأزق امرا غير متوقع · فمنذ عام ١١٠٨ تقريبا اتفق الصليبيون والدمشـــقيون على نوع من الحـــكم المشترك لمرتفعات الجولان ، ولم تقم هناك حدود فعليـــة ، بيد أن الفريقين اتفقا على نزع سلاح المنطقة بأسرها ، وعدم بناء التحصينات ، كمـــا اتفقوا على قسمة عائدها فيما بينهم ، بحيث تأخذ ســـوريا ثلث عائد الأراضى الزراعية ، ويأخذ الصليبيون الثلث الثانى ، على حين يكون الثلث الأخير من نصيب الفلاحين القائمين بالعمل الفعلى فى الحقول · وكانت هذه المقاطعة تمتد جنوبا حتى قرب نهر اليرموك ، أو الى الحد الجنوبى الذى كانت سوريا تستطيع أن تتدخل عنده بشـــكل مؤثر وفعال · وعبر اليرموك استولى الصليبيون على الأراضى التى كانت تحت السيادة الاسمية لدمشق · ومع بداية ســـنة ١١١٥ كان الصليبيون قد تغلغلوا فى ارض جلعاد وعمون القديمة (شرق الاردن) ، وعلى الرغـــم من جدب هـــذه المنطقة الآهلة بالســـكان ، وخلوها من المراعى ، فقد لعبت دورا هاما فى استراتيجية الشرق الأدنى واقتصاده · ذلك أن موقعهـــا الجغرافى السياسى ، عند مفترق الطريق المؤدية الى العراق وسوريا والحجاز ونهاية طريق ســـيناء المصرية جعل من الطريق الصحراوى فى المنطقة طريقا رئيسيا وعاما ·

وسرعان ما أعلنت الحصون الاســـلامية المتناثرة ، والبعيدة عن القدرة الفعالة لكل من سوريا ومصر ، خضوعها · وهنا أقام الصليبيون حدودهم ولم يقيموها عند مياه نهر الأردن الضحلة · ذلك أنهم أقاموا خطا من التحصينات يبـــدأ من وادى نهر اليرموك فيما بين عمان والعقبة ، وصارت القلعتان الضخمتان ، الكرك والشوبك (التى سميت مونتريال) وعدد من القلاع الصغيرة ، مقار الحاميات الصليبية · وعلى الرغم من أن عشر قلاع لا يمكن أن تؤمن مســـاحة من الأرض تمتد على طول حوالى مائتين وخمسين ميلا ، فان مواقع هذه القلاع عوضتها من حيث الكيف

عما كانت تفتقر اليه من حيث الكم · فقد كانت قلاع منطقة شرق الأردن والتى كانت تقام عادة على اطلال القلاع القديمة ، قد نسقت على طول الممر الوحيد الممتد من الشـــمال الى الجنوب فى منطقة شرق الأردن · وكانت الجيوش أو القوافل المتجهة من دمشـــق أو مصر أو بغداد الى الحجاز تضطر الى اتخاذ هذا الطريق الرئيسى ، فضـــلا عن أن المواقع الحصينة كانت تستخدم كأماكن للتزود بالمياه · وكان هذا الطريق بعينه هو طريق الحج المؤدى الى مكة والمدينة ، وكان يعرف باسم «درب الحج»· وقد أدى توطد الوجود الصليبى فى منطقة شرق الأردن الى سيطرتهم على واحد من أهم الشرايين التجارية والعسكرية بالنسبة للمسلمين · فضلا عن أن الأهمية الاستراتيجية لهـــذا الدرب قد تزايدت حين اتحدت مصر وسوريا ، وانقطعت حلقة الوصل بين اراضيهما بسبب وجود الاســـفين الصليبى فى شرق الأردن ·

ولقد صارت سياسة اختيار الحدود الطبيعية (الصحراء) للفصل بين أراضى الصليب وأراضى الهـــلال موضوعا رئيسيا فى حيـــاة الجزء الغربى من المملكة الصليبية · وكانت السيادة الصليبية الفعالة تمتد حتى يافا على الساحل حيث الميناء الطبيعى الذى يخـدم مدينة بيت المقدس ، وعند مدينة عسقلان كانت تتوقف هذه السيادة · وقد سقطت هذه المدينة القديمة الشـــهيرة (يافا) بعد احتلال القدس مباشرة ، ولكن الصليبيين أهدروا الفرصة المتاحة لهم ، فلم تسقط عسقلان الا بعد خمسة وخمسين عاما ، وبعد جيلين من المحاولات المستميتة · فقد كانت هناك حامية مصرية تتولى الدفاع عن المدينة التى لم يكن القادة المصريون أو الصليبيون بغافلين عن أهميتها · فبالنسبة للقيادة المصرية كانت عسقلان نقطة عســـكرية أماميـــة ، ومركزا متقدما يســـمح بتركيز الامدادات والقوات فى قاعدة ممتازة عبر الصحراء ، ومن هناك يسهل الهجوم على حبرون (الخليل) وبيت لحم والرملة ويافا ، كما يسهل فصل القدس عن الساحل · والحقيقة

انه خلال العقد الأول من حكم الصليبيين هاجم المصريون المواقع الصليبية عدة مرات وتقدموا داخل ســهل الرملة واللد ، ولكنهم لم يحرزوا نجاحا كاملا ، كما أن هجومهم على يافا باء بالفشل نظرا للقصــــور فى التعاون والتوقيت بين حامية عسقلان والبحرية المصرية • وفى سبيل الحفاظ على عسقلان ، وضمان وصول القوات الجديدة المقاتلة كان المصريون يغيرون حاميـــة المدينـــة أربع مرات سنويا • وعندما خرب الصليبيون الريف الزراعى اضطر المصريون الى تقييد كل مولود فى المدينة فى بيان الرواتب العسكرية الخاصة بهم •

وحتى قبل أن تسقط عســـقلان كان الصليبيون يتغلغلون فى أعماق الصحراء ودمروا واحة العريش أكثر من مرة ، بل وتقدمت بعض الحملات حتى الفرع الشرقى لنهر النيل ، ولكنها لم تحقق نتائج ملموسة • وحتى الآن يطلق اسم بلدوين الأول الملك الصليبى الباسل والذى حاول السيطرة على الطريق الصحراوى الى مصر ، على سبخة البردويل والبحيرة التى تحمل اسمه محرفا • وعند بداية القرن العشرين كان بدو شمال سيناء مايزالون يروون القصص عن العملاق الأشقر بردويل •

وعندما وصلت المكلة الصليبية الى قمة اتساعها ، وبلغت حدودها الطبيعية ، بدأ المسلمون يجابهون التحدى الصليبى • وقد أثبتت السنوات الخمسون التى تلت قيـــام المملكة الصليبية أن الامارات الصليبية كانت عاجزة تماما عن التعاون فى خلق جبهة موحدة • كما أثبتت هذه السنوات أن مصر بكل مواردها الاقتصادية وقوتها البشرية لم تكن ندا للاوربيين • ومن وقت لآخر كانت الامارات الســـورية تعقد بعض الاتفاقيات مع مصر رغبة فى العمل المشترك ، ولكن هذا التحالف سرعان ما كان ينفصم بنفس السرعة التى تم بهـــا • والحقيقة أن الأمراء كانوا يشـــكون فى بعضهم البعض ، وقد منعهم هذا الشك من الاتحاد فى جبهة عامة ضد الصليبيين

وبمجرد أن أقيمت الحدود بين الهلال والصليب حول المنخفض الكبير الممتد من جبال طرسوس حتى البحر الميت تقريبا (باستثناء مملكة بيت المقدس التى ضمت شرق الأردن) برز الى الوجود نوع من توازن القوى ·

ولم يبدأ رد الفعل الاسلامى من سوريا أو مصر ، وانما من الموصل· وكان حكام الموصل يدينون بالولاء للسلطان السلجوقى فى فارس ، اذ أنهم كانوا نوابه فى الشطر الغربى من الامبراطورية · وبهـــذه الصفة كانوا يسيطرون على الامارات السورية والعراقية ، بل وعلى الخليفة العباسى نفسه فى بغداد · وحاولوا باسم الخليفة والســـلطان أن يحصلوا على تعاون حكام سوريا المسلمين ، كما شنوا عدة حملات عسكرية ضد جيرانهم الصليبيين المباشرين فى الرها وفى انطاكية · بيد أن نتائج هذه الحملات لم تكن مرضـــية · وكان السبب فى ذلك أن الأمراء المســـلمين انتابتهم الشكوك والوساوس ، عن حق ، فى تدابير حكام الموصل وأتباعهم فى ممتلكات الأمراء واستقلالهم · ومع ذلك تمكن قادة جيش الموصل بفضـل تحالف عسكرى كبير سنة ١١١٣ أن يكسبوا معركة ضد الصليبيين قرب بحر الجليل وتمكن المسلمون من حصار القوة العسكرية الكاملة للمملكة الصليبية ، بيد أن عدم القدرة على الاحتفاظ بجيش غير متجانس لفترة أطول من ذلك ، حرم المسلمين من احراز نصر ساحق · ومما زاد فى وطأة هذا الفشل أن السكان حين رأوا جيشـــا مســـلما ضخما فى الارض المقدسة ، ثاروا على الصليبيين ليقدموا مساعدتهم لما كان يمكن تسميته آنذاك جيش التحرير الاسلامى ·

وعلى الرغم من هذا الفشل ، فان شيئا ما أخذ يتغير داخل المعسكر الاسلامى فمن ناحية أثار تدفق اللاجئين الى المقاطعات الاســـلامية فى أعقاب الغزو الصليبى مشاعر الاستياء ضد القيادة الاســـلامية · وفى البداية علت أصـــوات الاستياء على منابر المســـاجد فى صـــلاة الجمعة ، وسرعان ما حظيت الحركة بتأييد شعبى قوى لتصبح فكرة الجهاد ضـد

الكفار بمثابة صرخة التجمع للقوات الاسلامية · لقد تقبل المسلمون فكرة وجود بيزنطة المسيحية والتعايش معها كحقيقة واقعة على حين ظلت فكرة الجهاد المتواصل لاقامة الدين الحق رهينـــة الكتب فقط ، وهو أمر أشبه بالفكرة الحديثة عن الثورة الدائمة لاقامة النظام السياسى الوحيد العادل والصحيح · والآن انقشع الغبار عن فكرة الجهاد ، وسطرت الكتب التى تتناول واجب الجهاد ، كما دبجت الرسائل التى تداولها الجميع عن قدسية بيت المقدس ·

وقد استغل زنكى ، وهو أحد الحكام المسلمين الموهوبين ، هذا البعث الايديولوجى · فقد قامت المدارس والعلماء والدوائر المتدينة بخلق مناخ للرأى العام كان من المتعذر فى ظله أن يتجنب الأمراء السوريون المواجهة المباشرة للتحدى الذى فرضته المملكة الصليبية · وقد نجح زنكى تدريجيا فى التغلب على القوات المنعزلة فى كل من سوريا والعراق · وفى سنة ١١٤٤ شن زنكى هجوما ناجحا على الرها واستولى على عاصمة أول دولة صليبية قامت على تراب الشرق ·

وكان سقوط الرها نذير شؤم وصدمة نفسية مؤلمة ، اذ أنه كان يعنى أن مقاطعة انطاكية الواقعة الى الشمال الغربى من الرها ستكون محطـا للضغط المتواصل من جانب المسلمين على حدودها ، كما بات من المتوقع أن تزداد الغارات الاسلامية عليها بعد زوال خطر القوات الصليبية فى الرها · وفى سنة ١١٤٦ جـــرت محاولة فاشـــلة من جانب الصليبيين لاسترداد المدينة · اذ تمكن واحد من النجوم الطالعة فى سماء السياسـة الاســـلامية من اعادة احتلال الرها ، وهو نور الدين محمود خليفة زنكى ووريثـــه · ولكن على الرغم من انتصـــاره الباهر ، لم يكن فى قدرة نور الدين محمود أن يشن هجوما شاملا على المملكة الصليبية · ذلك أن سيطرته على الامارات السورية والعراقية لم تكن قد استقرت بعد ، بل أن

الأمر ازداد سوءا بسبب المعارضة السورية الشرسة · فقد كانت العاصمة السورية قد توصلت الى حال من التعايش السلمى مع جيرانها الصليبيين ، مما اكد استقلالها السياسى ومركزها الاقتصادى · وبمرور الوقت وجدت دمشق فى الصليبيين جارا يوثق به وحليفا فى بعض المناسبات يعتمد عليه اكثر من الجيران المسلمين · وعلى هذا لم تكن المملكة الحاكمة فى دمشق ، والتى ربطت نفسها بمصالح اقليمية اكثر من ارتباطها بالسياسة السلجوقية ، راغبة فى أن تتحرر على أيدى قوات زنكى ، أو نور الدين لتجد نفسها وقد انضمت الى املاك أسرة زنكى · لقد فضلت دمشق أن تحتفظ باستقلالها · وعلى مدى جيلين وجدت الأسرة الحاكمة فى دمشق تأييدا من المواطنين لسياستها · وكان من الطبيعى اذن أن تصير دمشق بؤرة المعارضة المضادة لزنكى · وفى هذه الظروف مد الصليبيون يدالعون اكثر من مرة لدمشق عندما كان يهددها زنكى أو نور الدين · ولم يكن الأخير بقادر على أن يغزو المملكة اللاتينية ومن وراء ظهره دمشق التى لا يثق بها ، كما أن قرب الصليبيين كان يحول دون فرض أى حصار على العاصمة السورية ·

ومن الغريب أن الصليبيين هم الذين قاموا بتقويض هذا الترتيب الذى كان يناسبهم تماما · فقد كان سقوط الرها يمثل التحدى الاكبر لأوربا المسيحية · وكان من الغريب ، بل ومن الظلم ، أن تهزم دولة مسيحية على أيدى الكفار ، وأن يضيع الايمان الحقيقى (المسيحية) فى المواجهة · وانطلاقا من هذه الرؤية تحركت أوربا يدفعها شعور بالعار ، والرغبة فى الانتقام وتصحيح الخطأ · وكان بطل هذه القضية هو البابا ايوجنيس الثالث Eugenius III · ولكن الرجل الذى وضع الجيوش على الطريق الى الشرق حقا كان هو برنار الكليرفوى Bernard de Clairvaux فقد تجمعت الجيوش فى فرنسا والمانيا تحت قيادة ملكيهما لويس السابع وكونراد الثالث استجابة لدعوته ·

وفى سنة ١١٤٨ وصلت الحملة الصليبية الثانية الى الأرض المقدسة · وكان الجميع يتوقعون أن يقوم الفرسان الأوربيون والجيوش الصليبية بشن هجومهم على الرها بغية استردادها ، عاصمة واقليما · ولو أن الهجوم كان قد بدأ من انطاكية فعلا لتوقف تيار نور الدين الصاعد ·

ولكن ما حدث بالفعل كان أسوأ ما يمكن للمرء أن يتوقعه ، فقد قرر الملوك الأوربيون والصليبيون الهجوم ··· ولكن على دمشق ! وكانت هذه الخطوة من الغرابة لدرجة أن المؤرخين حتى يومنا هذا يناقشون الأسباب التى أتت بجيوش الحملة الصليبية الثانية الى أسوار دمشق · وعند هذا باتت الأحداث أكثر اضطرابا وغموضا ، ذلك أن الجيوش المحاصرة قد أجبرت على التقهقر بشكل مخز وانسحبت بعد أربعة أيام من القتال كانت قد أحرزت أثناءها نصرا أوليا · واتهم القادة الأوربيون الصليبيين صراحة بقبول رشوة دمشق لاحباط الحصار وانتهت الحملة الصليبية الثانية بالفشل على حين بقيت الرها مدينة اسلامية · هذا التخبط السياسى هو الذى دفع بدمشق الى الارتماء بين ذراعى نور الدين محمود المفتوحتين فى سنة ١١٥٤ · وزاد من حرج الفشل الصليبى ووطأته موجة النقد الأوربية التى حالت دون شن هجوم صليبى جديد على الرغم من جهود برنار الكليرفوى وسوجير السان دونى Suger de St. Denis .

وفى الشمال الاسلامى كان الصليبيون يواجهون قوة متحدة متماسكة أكثر من ذى قبل · وقد دفعهم هذا الى عقد علاقة مباشرة مع بيزنطة التى كانت تبدو حتى ذلك الحين كمنافس أكثر من كونها حليفا · وكان الطرفان على استعداد للاتفاق واعترف الصليبيون بالسيادة البيزنطية على انطاكية ، وقبلوا لفترة قصيرة وجود بطريرك بيزنطى للمدينة · كما جدد الامبراطور مانويل كومنينوس الأول Manuel I Comnenus الأبنية الكنسية فى المملكة وقام على زخرفتها وتزيينها · ولم تكن الأديرة

البيزنطية هى الوحيدة التى تم تزيينها وتجديدها ، اذ غطى صحن وجناح كنيسة الميلاد فى بيت لحم بالفسيفساء اللامع البراق ، كما امتد اهتمام الامبراطور الى داخل كنيسة القيامة ، وبدت الكتابات اليونانية واللاتينية المنقوشـــة وكأنها تدخل بنا فى روح تحالف مســكونى بين أكثر الممالك ارثوذكسية واشدها كاثوليكية ٠

وفى الشمال أجبرت الجبهة الاسلامية الصامدة الفرنجة على الاتجاه جنوبا ٠ وكان الوقت مناسبا لذلك ٠ فقد كانت مصر آنذاك بمثابة الرجل المريض على ضفاف النيل اذ كانت الخلافة الفاطمية عارية الا من بعض ظلال قوتها السابقة ، فقد توالى تغير الوزراء الحاكمين لمصر فى ايقاع سريع من الانقلابات والفتن وارتقاء كرسى الحكم عن طريق الاغتيال ٠ وكان تقدم الصليبيين فى سنة ١١٥٠ الى غزة الواقعة على طرف الصحراء يشير الى الاتجاه الصليبى الى مصر ٠ ثم حدث ايضا الهجوم الصليبى على العريش سنة ١١٦١ وبدأت مصر فى أعقابه تدفـــع اتاوة ســـنوية للصليبيين ٠ واخيرا حانت فرصة التدخل فى سنة ١١٦٣ عندما لجأ احد الوزيرين المتنافسين فى القـــاهرة الى أمالريك Amalric (اموری) ملك بيت المقدس طالبا مســاعدته ٠ وخلال السنوات الست التالية غـزا الصليبيون مصر خمس مرات ٠ وكانت هناك فرصـــة طيبة لوقف الخطر المصرى كما حدث مع دمشق من سنوات قليلة مضت ، واذا لم يقبل الجار الجنوبى للصليبيين (أى مصر) أن يكون حليفا لهم ، فان حياده على الأقل سيؤدى الى موازنة الخطر الشمالى ٠ وعلاوة على هذا كانت بيزنطة على استعداد للتعاون مع الصليبيين ، كما كان اســطولها على اهبـــة الاستعداد للتحرك صوب مصر ٠ بيد أن هـــذا التحالف المسيحى لم يدم طويلا ، اذ كان الصليبيون يعتقدون انهم يستطيعون أن يحــرزوا النصر وحدهم وأن ينفردوا بثماره ٠

وقد أدى التدخل الصليبى لصالح احد الوزيرين المتنافسين فى مصر

بالوزير الآخر الى البحث عمن يحميه ، فأرسل البعثات الدبلوماسية العاجلة الى نور الدين محمود الذى لم يكن راغبا فى التدخل ، ولكن مساعده شيركوه قائد فرق الجيش السورية والعراقية اجتاز القلاع الصليبية فى شرق الأردن من طريق جانبى وشق طريقه الى مصر · ودار القتال على الأرض المصرية بين الصليبيين والسوريين المسلمين ، وكانت غالب المعارك تنتهى بانتصار الصليبيين · بيد أن النصر النهائى لم يكن من نصيب أى من الجانبين · وقد رفرفت اعلام الصليبيين فوق القاهرة ، كما شوهدت تحت اسوار الاسكندرية ، ولكن القصة التى دارت على أرض مصر انتهت بفشل ذريع للصليبيين الذين اساءوا التصرف وازدادت مطالبهم المالية ، بل وفكروا أيضا فى ضم مصر الى املاكهم · وهو امر لم تكن الجماهير المصرية لتقبله · وفى الوقت الذى كان فيه القتال دائرا بين القادة على السلطة كانت جماهير المصريين فى شغل عن القتال · وانتهى الوجود المسيحى فى مصر ولقى شيركوه تأييدا شعبيا متزايدا ، واضطر الصليبيون الى الانسحاب وان ظل حكم مصر سرابا يجذبهم نحوه بين الحين والحين ·

ولم تؤد هذه الحملات المجازفة الى تقلص الموارد العسكرية والمالية للمملكة اللاتينية فحسب ، وانما أدى فشلها الى تغيير خريطة الشرق الأوسط · اذ أن شيركوه صار وزيرا لمصر · وبعد موته سنة ١١٦٩ خلفه ابن أخيه صلاح الدين الذائع الصيت · وبعد عامين عندما توفى الخليفة العاضد انتهت الخلافة الفاطمية عام (١١٧١) · وتم فى مصر الاعتراف رسميا بالخليفة العباسى فى بغداد · وعلى العكس من جميع التوقعات لم تتحد مصر وسوريا ضد الصليبيين · فخلال السنوات الأخيرة من حكم نور الدين محمود الذى توفى سنة ١١٧٤ كان التوتر قد تصاعد بين الحاكم السورى وصلاح الدين مساعده الذى يحكم مصر · وكان على هذه الوحدة بين مصر وسوريا أن تنتظر حتى يتم خضوع سوريا والعراق للجيش المصرى تحت قيادة صلاح الدين ·

كان صــلاح الدين بطل التاريخ الاســلامى زعيما وقائدا عســكريا متوسط القيمة ، كما كان رجل دولة موهوبا ، كريما مع الصديق والعدو محبا للغير يبعث على الثقة · وكان صـــلاح الدين يجسد الاخـــلاق الاســلامية فى عيون المسلمين ، فهو الزعيم المثالى لحرب المقدســة ضد الكفار · ولكنه قبل أن يبدأ الهجوم على المملكة الصليبية وبعد أن نالته هزيمة مؤلمة فى احدى المعارك سنة ١١٧٧ · بدأ صــلاح الدين فى غزو سوريا الاسلامية واحتل دمشق فى سهولة · ولم يعترف حاكم ســـوريا بالحاكم الجديد الا بعد عشر سنوات · وظلت حلب بمعاونة الصليبيين فى انطاكية بعيدة عن متناول صلاح الدين حتى سنة ١١٨٣ · وعندئذ ، وبعد أن دعم صلاح الدين قوته بدأ استعداداته للمواجهة الشــاملة مع الصليبيين ·

وحاول الصليبيون مع القوى المعارضة فى مصر أن يحيكوا خيوط مؤامرة تطيح بصلاح الدين ولكنهم باءوا بفشل ذريع · كمــا انهم قاموا بعدد من الغارات الجريئة عبر ســيناء ووصلوا الى بحيرات الســويس ، على حين قاموا بشن غارات أخرى على تيماء فى شمال الحجاز · وكانت اجرأ حملة هى تلك التى نظمها رينو دى شاتيون Renaud de Chatillon زوج الملكة السابقة لأنطاكية ، والذى كان أسيرا لمدة سبع عشرة سنة ، وصــار زوجا للملكة الحاكمــة آنذاك على شرق الأردن ، وهى السيدة ايشيف Eschive · وفى شرق الأردن راودته فكرة خطة جريئة لاقتحام البحر الأحمر وربما غزو مكة والمدينة على الرغم من أن هدفه النهائى كان هو التحكم فى حركة المرور الدولية بين آســيا ومصر عن طـــريق باب المنـــدب · وفى سنة ١١٨٢ بنى اســـطولا فى قلعة الكرك الصحراوية ونقله مفككا لمسافة تقرب من مائة وخمسة وعشرين ميلا عبر الطريق الصــحراوى الى خليج العقبة حيث تم تركيبه وانزاله الى مياه البحر الأحمر · وتم احتــلال جزيرة فرعون الصغيرة المواجهة للعقبة ،

ثم اعقبت ذلك غـارة متعرجـة نهب الصـليبيون أثناءها بعض الموانيء المصرية والحجازية. ومضت أسابيع قبل أن ترد مصر المباغتة وعندما تمكن الأسطول المصرى من رصد موقع الصليبيين فى صحراء الحجاز ، كان الصليبيون قد توغلوا الى مسافة تقرب من المدينة .

وفى الوقت الذى كان فيه أحـد بارونات الصليبيين ينظم سياسته الخارجية ، كانت الخلافات الداخليـة تنهش بمخالبها المملكة الصليبية ، اذ تمزقت المملكة بين ريمون أمير طرابلس الذى كان يمثل طبقة النبـلاء الصـليبيين الأوائـل وبين جـاى دى لوزينـان Guy de Luisignan الذى كان واحدا من القادمين الجدد ، واعتلى عرش المملكة باعتباره زوجا لسيبيل Sybille وريثـة العـرش . ونظـرا لمعارضـة الارستقراطيـة الصليبية لم يجد ملك بيت المقدس الشجاع ، وربما غير الحكيم ، الوقت اللازم لفرض سيادته قبل أن يخترق صلاح الدين مرتفعات الجـولان عند طبرية عاصمة الجليل . وعلى الرغم من الخلاف التف الصليبيون حـول مليكهم . ولـكنهم بـدلا من أن ينتظروا لملاقاة المسـلمين فى موقعهم الاستراتيجى الممتاز فى الجليل اتبعوا نصيحة متهافتة وتحركوا باتجاه بحر الجليل لنجدة المدينة المحاصرة . وفى يوم ملتهب من أيام الصيف ، ٤ يوليو سنة ١١٨٧ ، وقع الصليبيون فى كمين فى سهل صغير مغلق فى قرون حطين. وتبدد الجيش الصليبى عن بكرة أبيه بين قتيل وأسير . وكان عـدد مقاتليه حوالى الف ومائتى فارس بمـا فى ذلك فرسان الرهبنـات العسكرية ، وحوالى الف من المشاة . وكانت هذه هى كل القوة العسكرية المتاحة للمملكة . وماتلا هزيمة الصليبيين فى حطين كان شـيئا أشـبه باستعراض عسـكرى أكثر منه حملة عسـكرية . فقد أخـذت المدن الصليبية تفتح أبوابها الواحدة بعد الأخرى ، كما سلمت القلاع والحصون تباعا استجابة لدعوة صلاح الدين الذى خير قاطنيها بن الرحيل أو التوجه الى ما تبقى من أراضى المسيحية . وفى الثانى من اكتوبر سنة ١١٨٧ ، اى بعد ثمانية وثمانين عاما من السيادة المسيحية فتحت بيت المقـدس

أبوابها لصلاح الدين · وبعد شهور قليلة لم يكن قد تبقى بأيدى الصليبيين سوى صور وانطاكية وطرابلس فى الشمال وبعض القلاع المتناثرة · وبدا واضحا أن الساعة الأخيرة فى عمر المملكة الصليبية قد بدأت دقاتها ·

وجاء رد الفعل الأوربى · فلم يكن ضياع القدس مجرد فقدان عاصمة ، وانما كان فقدانا لأكبر رمز محسوس للدين وهو الضريح المقدس · لقد صار قبر المسيح فى أيدى الكفار مرة أخرى · ومن ثم انطلقت الدعوة الى خروج صليبى جديد فى شتى أرجاء الغرب الأوربى ، وتزعم هذه الدعوة ملوك العالم المسيحى الغربى حيث تولى الامبراطور فردريك الأول بربروسا قيادة القوات الألمانية وهو فى السبعين من عمره · كما قاد ريتشارد قلب الأسد ، ملك انجلترا ، الفرسان الانجلو ــ نورمان والاكويتانيين ، على حين كان فيليب اوغسطس زعيم آل كابيه يقود قوات فرنسا · وتحرك أيضا الى الشرق عدد كبير من الـمع نبلاء أوربا · ومضى عامان قبل أن تصل بعض قوات هذه الحملة الصليبية الى شواطىء الأرض المقدسة من عدة طرق مختلفة · فقد اتخذت الحملة الألمانية الطريق البرى بمقتضى بعض المعاهدات مع حكام المجر وبيزنطة وقد تكبدت الحملة خسائر جسيمة عند عبورها الى آسيا الصغرى ، وكان غرق الامبراطور المسن فى مياه نهر كاليكاندوس Ca'ycandus فى أرمينيا الصغرى أكبر خسارة تدقت بهذه الحملة قبل وصولها الى شمال سوريا ، وهكذا تدهورت معنويات الجيش الألمانى بشكل تعذر معه على دوق سوابيا أن يصل ببقية الجيش الألمانى الى الأرض المقدسة · أما ريتشارد وفيليب اوغسطس فقد سلكا طريقين بحريين مختلفين وتقابلا فى صقلية حيث أمضيا شتاء سنة ١١٩٠ ــ ١١٩١ وهناك اختلفا سويا حول الصراعات المحلية ، وتبادل

الأثنان المنافسة التى كانا قد طرحاها جانبا بشكل رسـمى يوم ان قررا المشـاركة فى الحملة الصليبية ، ثم ابحرا سـويا سنة ١١٩١ · وكان ريتشـارد هو الثانى فى الوصـول ، لأنه استولى على جزيرة قبرس من حاكمها البيزنطى وهو فى الطريق الى عكا · وربما تكون السنتان ونصف السنة التى مضت فيما بين سـقوط بيت المقدس ووصـول فرق الحملة الصليبية الثالثة قد قضت على كل أمـل فى اسـترداد القدس · الا ان كونراد مونتفرى Conrad of Montferrat ، الذى أبحر من القسطنطينية ، ونجا من الوقوع أسيرا فى عكا بأعجوبة ، ثم دخل ميناء صور التى كانت المدينة الوحيدة الباقية بأيدى الصليبيين ··· هذا الرجل وجد فى صور أولئك الذين نجوا من سيف صلاح الدين وأولئك الذين سمح لهم القـائد المسلم بالعودة الى الأراضى المسيحية كشرط من شروط معاهدة التسليم · كانت مدينة صور بلا قائد ، فقام كونراد فى الحال باعادة تنظيم سـبل الدفاع عن المدينة ، وقاوم فى شجاعة تهديدات صلاح الدين والحصـار الذى فرضه على المدينة · وفى الوقت نفسـه بدأ جاى دى لوزينان ملك القدس التعس ، والذى كان قد أسر فى حطين ثم فك اسره مقابل وعـد شرف ، ينظم فلول القوات الصليبية الهزيلة ناكثا عهده مع صلاح الدين · واغلقت ابواب صور فى وجهه وفقا لأوامر مونتفرى ، ولكن فرقته الصغيرة تحركت فى جسارة الى سهل عكا حيث اتخذت مواقعها فى مواجهة المدينة فى سـنة ١١٨٩ · وهكذا باتت صـور وخليج عكا بمثابة رأس الجسر للحملة الثالثة ·

ومع وصـول دوق سـوابيا فى خريف سنة ١١٩٠ بدأت اعداد الجيوش الصليبية تتزايد · وتضخم عددها بوصول القوات الفرنسية فى ربيع سنة ١١٩١ ، ثم تلتها القوات الانجلو نورماندية بعد شهرين · وهكذا أصبحت عكا التى ضيق الصليبيون الخناق عليها على مدى عامين هى محور تاريخ الشرق الأدنى والتاريخ الأوربى · لقد حوصرت المدينة من

البحر ، كما أحاط بها الصليبيون من جهة البر · وضيق عليهم صلاح الدين الحصار بجيوشه التى كان يعسكر بها من شاطىء الى شاطىء فيما يشبه نصف الدائرة الضخمة · وعلى الرغم من جهود صلاح الدين للدخول الى المدينة المحاصرة بقوات جديدة وامدادات ، فان المدافعين عنها لم يتمكنوا من الصمود أمام الهجمات الصليبية · واستسلمت المدينة فى يوليو ١١٩١، وصارت عكا هى الانتصار الأول للحملة الصليبية الثالثة ، أو حملة الاسترداد · ومن سوء الحظ أن فتح المدينة أعقبه فى التو رحيل الجزء الأعظم من الجيش الى الوطن · ولم يبق من القادة سوى ريتشارد الذى ظل عاما كاملا احرز فيه انتصاراً باهراً على صلاح الدين فى أرسوف واستعاد المدن الساحلية حتى يافا فى الجنوب · كما وصل الى منطقة قريبة من أسوار بيت المقدس بيد انه لم يستطع أن يسترد المدينة ذاتها ·

وعندها بدأ المعسكران الاسلامى والصليبى يحسان بوطأة النفقات الهائلة من ناحية القوى البشرية والموارد المالية ابان الحملة الصليبية الثالثة · كما أن ريتشارد لم يتمكن من البقاء فى الأرض المقدسة تحت ضغوط الأخبار القادمة من انجلترا · كذلك كانت موارد صلاح الدين المالية والبشرية آخذة فى الضعف ، كما تململت فرق الجيش من طول فترة الحرب · وعلى هذا وقع الطرفان ، فى سبتمبر ١١٩٢ معاهدة سلام ثبتت الحدود تقريبا على ما هى عليه · وهكذا ولدت مملكة القدس الثانية كقطاع ضيق من الأرض يلتصق بالساحل ويمتد من بيروت حتى يافا · وبقيت القدس ، هدف الحملة الصليبية الثالثة ، مدينة مسلمة · وكانت المنطقة الوحيدة التى اتسعت فيها المملكة عرضا فيما بين يافا والرملة على طول الطريق الرئيسى الى المدينة المقدسة البعيدة المنال ·

وسرعان ما تحولت التوقعات الكبيرة التى كانت منتظرة من الحملة الصليبية الثالثة الى يأس واتهامات حادة للزعامة الصليبية · ذلك أن العامين اللذين استغرقتهما الجهود الأوربية لم تكن لتقارن بالانجازات

الهزيلة التى حققتها الحملة ٠ وعندئذ تحـــول النقد الانتقامى الى تحليل جاد ، وبدأت الشكوك تساور البعض حـول الالهام الالهى الذى يزعمـه الصليبيون ويدعونه ٠ وعلى الرغم من هذه الأزمة الايديولوجية ، فقد تم تنظيم عدد من الحملات الصغيرة قرب نهاية القرن الثانى عشر من أجـل تدعيم موقف المملكة الصليبية وفى محاولة فاشـلة لمد السلطة السياسية فوق أراضى الشرق ٠ وفى أثناء احدى هذه المحاولات تم ضم بيروت الى المملكة ٠ ومن الناحيـة الموضوعية بدا الموقف مناســبا ، ذلك أن وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٥ أدت الى تفسخ امبراطوريته فى الحال ٠ لقد كان هو الرجل الذى يحفظها من التفسخ ، ولم يكن ثمة مبدأ متوارث أو تناسق داخلى يجمع أطراف هذه الامبراطورية ٠ وانتهج الأيوبيون فى كل من سوريا والعراق واليمن سياســات مستقلة ، على حين اعترفوا بالسيادة الاسمية لحاكم القاهرة ٠ ومزقت الاحقاد والمنازعات القديمة الوحدة التى كان تحقيقها قد تم فى مشقة ٠ وفى هذه الظروف بدأت أوربا استعدادها لحملة جديدة بتحريض من البابوية والصليبيين وكانت الحملة الرابعـة الشهيرة ٠

لقد استترت تقلبات أحـداث الحملة الصليبية الرابعـة منذ بدايتها حتى نهايتها المأساوية خلف ضباب كثيف من الحيرة والشك ٠ وكان الأب الروحى للحملة هو انوسنت الثانى الذى يعتبر أعظم بابوات العصـــور الوسطى ، كما كان قادة هذه الحملة ينتمون الى اكبر الأسرات الحاكمة فى أوربا ، مثل تيلبلد الشمبانى Theobold of Champagne وفيليب حاكم سوابيا وبونيفيس مونتفرى ٠ وكان هـدف هـذه الحملة هو الغزو المباشر لمصر ٠ وفى سنة ١٢٠١ ، وبعد عـــدة سنوات من الاستعداد ٠ تجمع الصليبيون فى ميناء البندقية ٠ وبعد عام كان الصليبيون يفرضون حصـارهم على ٠٠٠ القسطنطينية العاصـمة المسيحية !! وقد استمرت الاتهامات والاتهامات المضادة بعد احتلال القسطنطينية مباشرة ، ولم تخمد

حتى يومنا هـذا · ويلقى المؤرخون باللوم على فظاظة الألمـان ، واطماع بارونات الشمال ، وعلى أحد المطالبين بعرش بيزنطة · ولكنهم أيضا يلقون باللوم على البندقية أولا وقبل كل شيء ·

والأحداث الرئيسية واضحة ، بيد أن الدوافع تترك مشكلة المسئولية دونما حل · فقد تم التخطيط للحملة على أساس أنها سوف تسلك الطريق البحرى تجنبا للصعوبات التى واجهتها الحكومات السـابقة عند عبور آسيا الصغرى · وتم النقل على متن اسطول بندقى بنته الجمهورية البندقية وتكفل الصليبيون بنفقات انشـائه · وعندما توجهت مختلف الفـرق الصليبية الى البندقية فى خريف سنة ١٢٠١ ، بات واضـحا أن تكاليف الانتقال تفوق طاقة الصليبيين · ومع ذلك نفذ البنادقة ما عرضـوه من خدمات ، بيد أن المكافأة اختلفت فى ماهيتها : فقد طلبوا الاستيلاء على مدينة زارا Zara المجرية على البحر الأدرياتى (وكانت هذه شوكة فى حلق البندقية ملكة البحر الأدرياتى) · ووافق الصليبيون وتم الاستيلاء على زارا التى كانت مدينة مسيحية فى مملكة مسيحية · وتلا هذا التحرك قرار مصيرى آخر · فمنذ سنوات كان اسحق انجلوس الثانى امبراطور بيزنطة قد امضى عن عرشه على يد اليكسيوس الثالث ، وحاول اليكسيوس الرابع انجلوس ابن الامبراطور المخلوع الحصول على مسـاعدة البلاط الألمـانى فقابل الجيوش الصـليبية فى زارا ، واقنع قادتهـا بغـزو القسطنطينية ، واعادته الى السلطة واعدا الصليبيين بأن يضـع موارد بيزنطـة تحت تصرفهم اذا ما استعاد العرش الامبراطورى ، فضـلا عن المكافأة السخية التى وعد بها الجيوش المحررة · وقد وجدت البندقية فى هذه الفكرة فرصـة عظيمة لتوطيد نفوذها فى بيزنطـة ، وبذلك تتم لها السيطرة على أعظم المراكز التجارية الرئيسية فى العالم · وقد وجد هذا المدعى البيزنطى تأييدا بين الألمان حيث كانت زوجته ايرين أخت فيليب ملك سوابيا · ومع ذلك ، وعلى الرغم من كل هذه المصالح المكتسبة ، لم يكن

ممكنا اتخاذ هذا القرار المعادى لبيزنطة لولا حالة العداء الدائم بين الغرب والامبراطورية البيزنطية · وبدأ دخان هذه الكراهية فى الظهور خــلال الحملة الصليبية الأولى ، وسرعان ما تأججت نيرانها فى عداوة صريحة ابان الحملة الصليبية الثالثة ، عندما وجه الصليبيون اتهامهم لبيزنطة ، بصراحة ، بمساعدة صلاح الدين ·

وعلى الرغم من ان الفكرة الأساسية ربما كانت أولا اجبار بيزنطة على الدخول فى تحالف لمســاعدة المملكة الصليبية ، فان الحملة نفسها غيرت من هدفها · فما أن حل الصليبيون بالقسطنطينية حتى تم ابعــاد مغتصب العرش ، وصــار اليكسيوس الرابع انجلوس صنيعة الصليبيين حاكما على الامبراطورية فى يوليو سنة ١٢٠٣ · وعندما تهرب من وعوده بالمكافأة عصف الصليبيون بالمدينة فى ابريل سنة ١٢٠٤ واقتحموها ، وصار بلدوين أمير الفلاندرز هو أول امبراطور للامبراطورية الجديدة : الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية · وأصبح أحــد البنادقــة أول بطريرك لاتينى لها · وتم تقسيم الامبراطورية مثل سائر الأسلاب والغنائم فيما بين المنتصرين ، وأسست البندقية امبراطوريتها البحرية فى بحر ايجه ·

وهكذا وجد البنــاء الصليبى فى القسطنطينية ، وحكم آل لوزينان مملكة قبرص المستقلة التى اعترفت بسيادة الامبراطورية الرومانية ، كما فعلت أرمينيا الصغرى (الذى تلقى حاكمها تاجه من سفراء الامبراطور) · ومن الناحية النظرية كان بوسع هذه الممالك أن تعمل كقواعد لمســاعدة مملكة بيت المقــدس المزعزعة الأركان · ولكن الأمــور كانت تختلف تماما على المستوى العملى ، اذ كان لكل مملكة مشاكلها الخاصة بها · وافتضح امر أوربا لهجومها على امبراطورية مسيحية · وأخذ الراغبون فى الرحيل

يفضلون التوجه الى قبرص أو القسطنطينية الأكثر ثراء وأقل خطرا من الوجود الصليبى فى الأرض المقدسة ٠

وفى الوقت نفسه تمتعت المملكة اللاتينية بالسلام على مدى ما يقرب من عشر سنوات ٠ ويرجع هذا أساسا الى التوتر الذى ساد معسكر الحاكم الأيوبى لمصر ، وكانت هذه المهلة قصيرة من حيث أنه كان من الواضح أن قوات المملكة لم تكن ندا للمسلمين ٠ وانعقد أمل المملكة الصليبية على مجىء حملة كبرى جديدة ٠ وكان من الواضح أن تنظيم مثل هذه الحملة أمر صعب المنال ٠

وعلى الرغم من بعض النكبات ظلت فكرة الحملة الصليبية قائمة ٠ فقد أخذ انوسنت الثالث يحرض على شن حملة جديدة غير عابىء بالفشل الذى حاق بالحملة الأخيرة ٠ وعلى الرغم من النقد والاستياء توهجت شرارة مسيحانية هنا وهناك ، وكان شاهدا عليها أغرب ظاهرة فى العصور الوسطى : تلك هى حملة الأطفال الصليبية سنة ١٢١٢ ٠ فقد عبرت فرق الصبيان بلادهم تحت قيادة شابين أحدهما المانى والآخر فرنسى الى شواطىء البحر المتوسط . وفى ظنهم انهم سيجدون أرضا يابسة يعبرون البحر من فوقها كما حدث قديما مع بنى اسرائيل عبر البحر الأحمر ٠ وقد نشأت الفكرة وتغذت على أساس أن ما منعته العناية الالهية عن الكبار الآثمين سوف تمنحه للأطفال رمز البراءة ٠ وشق الأطفال طريقهم الى بلاد الاسلام حقا . ولكن على متن سفن تجار الرقيق المسيحيين وتم بيعهم فى أسواق النخاسة فى شمال أفريقيا ٠

. أخيرا قامت الحملة الصليبية التى دعا اليها انوسنت الثالث ، واعلن عنها سنة ١٢١٥ فى مجمع اللاتيران الرابع ، بعد سنتين من موت البابا ٠ وهذه الحملة الصليبية اليتيمة بعد انوسنت الثالث ، والتى تعرف عادة باسم الحملة الخامسة . تفتح فصلا جديدا فى التاريخ الصليبى ٠

ذلك أن أهم ما كان يميزها ان هدفها كان هو مصر · وكانت ثمة أسباب عديدة تحفز الصليبيين على الهبوط فى دلتا النيـــل بدلا من نهر الأردن القريب ، أهمهـــا سببان : الأول هو اهتمام المـــدن التجارية الايطالية بالسيطرة على السوق الرئيسية فى حوض البحر المتوسط ، والثانى هو المذهب السياسى والعسكرى الجديد للصليبيين · ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يقصد فيها الصليبيون غزو مصر · ولكن بينما كانت حمـلات أماالريك فى القرن الثانى عشر تهدف الى تحويل مصر الى تابع ، أو حتى ضمها الى املاك المملكة اللاتينية ، كان هدف الحملة الخامسة هو استرداد شرف وهيبة المملكة اللذين فقدتهما على تراب حطين ·

كانت احدى النتائج الهامة للحملة الثالثة هى تلك السياسة التى اقتضت تدمير التحصينات أو « الازالة والمســـــاواة بالأرض » ، وهى السياسة التى بدأها صلاح الدين واتبعها من بعده حكام دمشق · فقد أدرك صـــلاح الدين بحق أهميـــة التحصينات فى المدن والقلاع بالنسبة لسيطرة الصليبيين على الأراضى المقدسة · اذ أن هذه الحصونات كانت ركيزة لأمن المملكة ، فضلا عن تدعيمها لقدرة الصليبيين على حكم الاقليم وقت السلم · وكان الحكم الصليبى الفعال يمتد حتى نقطة الامداد المباشر المتمركز داخـــل التحصينات الصـــليبية فاذا حدث أن اختفت هـــذه الاستحكامات أو المعاقل الصليبية ، لم تعد هنـــاك وسيلة لاعادة الحـكم الصليبى سوى عن طريق الاسترداد الشامل الذى كان يعنى انفاقا ماليا ضخما وامدادا هائلا من القوى البشرية · وبالاضافة الى هذا وبعد الحملة الثالثة صار مثل هذا العمل عرضة للاحباط والاجهاض بواسطة الحاميات الاسلامية المجاورة منذ ان صارت أقاليم المملكة ملاصقة للشريط الساحلى الضيق · وبالتالى بدأ صلاح الدين سياســـة التدمير المنظم لكل القلاع الصليبية وتحصينات المدن التى وقعت فى يديه · وحتى معاهدة الصلح التى وقعها مع ريتشارد اشترطت تدمير عدد من التحصينات الصليبية ·

وكان التدمير شاملا ، وقد أجهز حاكم دمشق على القلاع التى لم يدمرها صلاح الدين ٠

واستنتج الصليبيون من هـــذا النتيجة المنطقية التالية : وضـــوح استحالة الاسترداد الشامل نظراً لعدم وجود المال اللازم والقوى البشرية المناسبة ، بل والحماسة المطلوبة لبداية الغزو الشامل مرة أخرى ، وفى ظروف أصعب من تلك التى كانت متوفرة قبل مائة سنة ٠ وكانت النتيجة هى توجيه الحملة الى مصر ٠ ذلك أن الانتصار الكبير على مصر سوف يحقق خضوعها واجبارها على الدخول فى معاهدة سلام تشترط ترك المملكة عند حدودها القديمة ٠ وكان تصور الصليبيين أنه بواسطة التحكم فى المملكة التى ســوف تسحب حامياتها من الأرض المقدســة يمكن استعادة المملكة واعادة تحصينها بفضل الجهود الموحدة للعالم المسيحى ٠ ويمكن تمويل هذه التحصينات من التعويضات التى سوف تدفعها مصر ٠

كانت هذه هى خطة الحملة الصليبية الخامسة التى استغرقت حوالى أربع سنوات ٠ وكانت هذه الحملة ألمانية من أكثر من وجه بالاشتراك مع دوق النمسا وملك المجر ٠ واجتمع الكل فى عكا سنة ١٢١٧ ، ورســـا الأسطول الصليبى فى دمياط وحاصرها سنة ١٢١٨ ٠ وكان قائد الجيوش الصـــليبية هو حنـــا برين ملك القدس بالزواج ، وان كان الكاردينال بلاجيوس ، نائب البابا ، قد تولى القيادة أثناء الحصـــار ٠ وتم احتلال دمياط فى سنة ١٢١٩ ٠ وصار القائد الجديد هو الذى يصدر الأوامر ٠ وكان من الأمور المصيرية للحملة انها انتظرت فى دمياط مدة عام كامل لتقسيم الغنائم والأسلاب ، وايضا فى انتظار الامبراطور فردريك الثانى الذى أجـــل رحيله الى الشرق أكثر من مرة ٠ وعندما تحركت الجيوش الصليبية اخيرا صوب القاهرة وجدت نفسها قبالة الحصن الجديد الذى أطلق عليه فيما بعد اسم المنصورة ، ومن هذه المدينة قدم السلطان عرضه المتكرر باقرار الســـلام : ومؤداه أن يسترد الصليبيون المملكة باستثناء الأردن ، ودفع تعويضات مقابل الجلاء عن مصر ٠ وكانت شروطه كريمة

ومع ذلك رفضها بلاجيوس على الرغم من موافقة حنا برين ٠ وفرضت الحرب نفسها ٠ وقطع الجيش الاسلامى الذى تلقى التعزيزات من سوريا الطريق بين الجيش الصليبى ومؤخرته فى دمياط وأوقف تقدمه الى القاهرة فى الجنوب ٠ ووقعت فصائل الجيش الصليبى فى الشراك ، واضطر الصليبيون الى التخلى عن أحلامهم فى مصر ثمنا لحريتهم ٠ وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة ٠ وجاء هذا الفشل الجديد اضافة الى خيبة الأمل العامة ، وثارت الاتهامات حول الاهمال فى المسئولية ٠ وسرعان ما وجد الصليبيون أنفسهم محطا لسخرية الرأى العام الأوربى ٠ وكان النتائج القليلة الملموسة لهذه الحملة هى تحصين بعض المدن والقلاع ومن بينها قلعة الحج الضخمة التى كان الداوية يملكونها وقلعة مونتفورت التى كان التيوتون يحكمونها ٠ وكانت هذه التحصينات قد بدأت على أيدى الحملة الخامسة قبل التحرك الى مصر ٠

وعلى الرغم من كل شىء تجمعت حملة جديدة ، فقد كان الامبراطور فردريك الثانى قد قطع على نفسه القسم الصليبى منذ سنة ١٢١٥ ٠ وكان يؤجل حملته عاما بعد عام بدعوى وجود بعض المشاكل فى مملكة صقلية وداخل الامبراطورية فضلا عن بعض المشكلات الصحية ٠٠ وأخيراً قرر فى سنة ١٢٢٨ أن يبدأ حملته ٠ ذلك أن القسم الصليبى الذى كان قد قطعه على نفسه ، ووضعه كامبراطور فى العالم المسيحى ، ولقبه كملك لبيت المقدس بعد زواجه من ايزابيلا ابنة حنا برين ، جعلت من حملته أمرا حتميا ٠ كما أن الظروف السياسية جعلت من هذه الحملة أقوى الحملات الصليبية ٠ فالبابا جريجورى التاسع كان قد أصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور نظرا لماطلته ومراوغته الواضحة بشكل أغضب البابا ٠ وكان ذلك هو المنظر الأول فى مشهد غريب : فها هو الزعيم العلمانى المحروم من الكنيسة يقود حربا صليبية ٠ واعقبت ذلك أحداث غريبة أخرى ٠ فقد كان فردريك الثانى صقليا أكثر منه أى شىء آخر ،

ولم يكن الاسلام بالنسبة له مجرد كتاب مغلق ، كما ان المسلمين لم يكونوا مجرد قوم من الكفار الذين يستحقون الفناء فى نظره • ولذا اخذ فردريك يتفاوض مع الملك الكامل حاكم مصر مستغلا مشاكل السلطان فى كل من مصر وسوريا • ونجح فردريك الثانى الذى اثار جيشه الصغير سخرية معارضيه ، وجلب عليه قسوة الأصدقاء ، فى أن يحصل فى فبراير سنة ١٢٢٩ على موافقــة الســلطان على اتفاقية مشــجعة : أولا تترك القدس للصليبيين دون ساحة معبدها ومساجدها ، كما يتخلى المسلمون لهم عن بيت لحم والناصرة • ومنح الصليبيون ممرين ، احدهما بين الرملة وبيت المقدس ، والثانى من عكا الى الناصرة عبر الجليل • وربما توقع البعض أن هــذا الاتفاق ســوف يؤدى الى رأب صــدع الخصومات القديمة ، أو انهائها الى الأبــد • ولكن العكس هو الذى حدث فقد اثار هــذا النجاح غضب البابوية • ونظمت حملة الامبراطور المحــروم الى القــدس بحيث لا تتصل به الجيوش والنظم العسكرية الصليبية • وعندما دخل الامبراطور المدينة فى نهاية المطاف سكتت اجراس القدس بمجرد أن خضعت المدينة للتحريم البابوى •

ودخل الامبراطور كنيسة القيامة ، وتناول تاج بيت المقدس من فــوق المذبح ووضعه على رأسه ، ولم يشترك فى هذا الاحتفال سوى الفرســان التيوتون المخلصين • وعلى الرغم من التحريم والمنع لم يستطع الصليبيون فى الأرض المقدسة ، ســـواء منهم المقيمون بها أو القادمون من أعالى البحار ، كبح جماح فرحهم بتحرير القدس •

وقد ادانت المعارضة عــودة فردريك الثانى الى أوربا باعتبارهــا تخليا عن المملكة التى لن تكون قادرة على الدفاع عن مكتسباتها الجديدة • وعلى الرغم من أن البابا قد الغى قرار الحرمان السابق (والذى أعـــاد فرضه بعد عدة سنوات) ، فان المملكة قد تمزقت بسبب الحرب بين نواب الامبراطور فى الشرق ، وأبناء الأرستقراطية الصليبية حيث تم الاستيلاء

على التحصينـــــات الامبراطورية فى قبرص وفى ارجـــاء المملـــكة الصليبية بعد عشر سنوات من الصراع الداخلى ، وقـد أدى خلق حكومة ثورية حاكمـة الى ظهور طبقة اقطاعية · وبذلك دخلت المملكة الصليبية فى طور التحلل والأنهيار ·

وكان من حسن طالع الصليبيين ، أن العالم الاسـلامى المجـاور لم يحرز تقدما · فقد صارت دمشق هى محور المعارضة فى مصر ، كما أن امارة شرق الأردن كانت آخذة فى تغيير حلفائها · وكان الجميـــع على استعداد لقبول الصليبيين كحلفاء · ومن سوء الحظ أن المملكة اللاتينية كانت تفتقر الى الزعيم · فقد انشق الداوية والاسبتارية على أنفسهم وأخذ فريق منهم يؤيد التحالف الدمشقى ، على حين كان الآخر يؤيد التحالف المصرى · وقد نجحت حملة يتوبولد الشـــحبانى (١٢٣٩ ــ ١٢٤٠) ، والتى اعقبتها حملة ريتشارد الكورنلى Richaraed of Cornell (١٢٤٠ ــ ١٢٤١) فى توسيع حدود المملكة وضم الجليل فى ظل ظروف الانقسام السائدة فى المعسكر الاسـلامى · وكانت هناك بعض محاولات لتدعيم المملكة منها تشييد قلعة للداوية فى صفد ، وتحصين عسقلان · بيد أن الأخطـار الجديدة فى الداخـل والخارج لم تلبث أن أجهزت على النجاح الدبلوماسى الذى كان قد تم احرازه من قبل ·

لقد بدا التوتر والاستعداد للحرب بين مصر ودمشق وشرق الأردن من ناحية والمملكة الصليبية من ناحية أخرى فى الشريط الخصب المحدود حول شرقى البحر المتوسط كما لو كان نوعا من المراوغة التافهة اذا ما قورن بذلك الاضطراب المهول الذى غير وجه آسيا وحسم مصير شرق أوربا على مدى أجيال ، على الرغم من أهمية الحروب الصليبية بالنسبة لمصـــائر المشـــاركين فيها · ففى قراقورم فى آسـيا الوسـطى ظهر نجم جديد هو جنكيزخان حاكم المغول · فبعد ان سيطرت هـــذه القـــوة الجديدة على القبائل المغولية اندفع المغــول بخيولهم السريعة الصغيرة القوية ليقهروا

الصين فى أقل من جيل ، ثم اندفعوا كجلمود صخر خطة السيل من عـل يدمر كل شيء فى طريقه ، فأخضعوا مناطق السهول الروسية فى الغرب حتى سنة ١٢٤١ الى الحدود الألمانيـة البولندية · وفى الجنوب استولوا على فارس والعراق · وشـادوا امبراطورية أوربية آسيوية اكبر من اية امبراطورية سـابقة فى التاريخ ، ولكن هـذه الامبراطورية قامت على انقاض حضـارات اخرى سابقة · وكانت موجات الغزو المغولى صـوب شواطيء البحر المتوسط ، وكانت الدويلات الصليبية فى ذلك الحين على اطراف امبراطورية المغول ·

كانت قعقعة الحوافر المغولية تتصاعد وتقترب حين انضم الصليبيون الى تحالف بمشقى ضـد مصر التى أحست بخطر هذا التالف القـوى فطلبت مساعدة الخوارزميين الذين كانوا قد تحولوا الى مرتزقة يجوبون انحاء الشرق الأدنى بعد أن كانت لهم دولة قضى عليها الغـزو المغـولى واستولى على املاكها بالقرب من البحر الأسـود · وقد أوقع المصريون والخوارزميون هزيمـة مريرة بالصليبيين فى معركة غـزة · وكان السوريون قد نقضوا تحالفهم مع الصليبيين فى اللحظة الأخيرة · وبعد ذلك مباشرة هاجم الخوارزمية مدينة القدس فى سنة ١٢٤٤ · ولم تعد المدينة الى حوزة المسيحيين بعد ذلك ، كما انها لم تشهد جيشـا مسيحيا الا بعد سبعة قرون حين احتل الانجليز المدينـة المقدسـة وانتزعوها من الأتراك العثمانيين بقيادة اللبنى ·

وقد اثار الخطر المغولى الزاحف مخاوف اوربا ، فأخـذت تسعى للبحث عن حلفـاء جدد · ومنذ عام ١٢٤٥ ، أى عندما أرسـل البابا انوسنت الرابع مبعوثه جيوفانى بيانو كاربينى Jiovani of Piano Carpini الى البـلاط المغـولى ، وأعقبـه بسـفارة وليـم روبروكيس Willianm of Rubruquis (١٢٤٨ ـ ١٢٤٩) ، بدأت الشائعات تروج حول وجود مسيحيين بين القبائل المغولية · وكان لهذه الاشاعات ظل من

الحقيقة حيث تمكنت الدعاية النسطورية فى آسيا الصغرى أن تحول عددا من أبنـــاء القبائل المغولية الى المسيحية · وكان من نتائج سقوط القدس والخطر المغـــولى الماثل أن بدأ التفكير فى حملة صليبية جديدة · وكانت آخر حرب صليبية كبرى هى تلك التى تولى قيادتها سان لويس او لويس التاسع ملك فرنســـا · وكانت قبرص هى نقطة التجمع والتمركز للحملة الصليبية الجديدة حيث أمدت الحملة بالكثير من المؤن والذخائر · وفى ربيع سنة ١٢٤٨ ابحرت الجيوش صـــوب مصر ، واحتلت دمياط مــرة اخرى ، ثم تحرك الجيش باتجـــاه القاهرة · ولكن حدث ما ســـبق أن تعرضت له الحملة الخامســة ، اذ وقــع الجيش الصـــليبى فى الفخ عند المنصورة حيث انتهت هجمة طائشة قام بها شقيق الملك الى كارثة ، فقد تم اسر الملك ، وجميـــع افراد الجيش الصليبى · وفى مقابل الافراج عنهم اضطر الصليبيون الى الرحيل عن مصر ودفع فدية ضخمة تصل الى حوالى مليون قطعة ذهبية ·

انتهت الحملة الصليبية · وقضى أولئك الذين عادوا الى عكا (مايو ١٢٥٠) السنوات الأربع التالية فى تحصين المدن الصليبية الســـاحلية وتقوية حصونها · فاضافت كل من صيدا وعكا وقيصرية ويافا قلعة وبرجا وســـورا الى ما هو قائم بالفعل · الا أن أوربا صمت آذانهـــا أمام كل النداءات بالمساعدة · ولم يتحرك جنوبا سوى حركة قام بها الشباب تدعى البوستورو Peter of Amiens ، الا أنها سرعان ما انتهت على أيدى السلطات العلمانية والكهنوتية ، لأنها اتخذت من الحرب الصليبية شعارا لها كما دأبت على مهاجمة رجال الدين ·

وضمنت التحصينات الساحلية وجود المملكة لفترة من الزمن ، على الرغم من أن منطق الصليبيين كان يفترض أن تقوم حملة صليبية جديدة لمساعدتهم فى الأرض المقدسة · وفى الوقت نفسه جرت حادثتان غيرتا من اطار وتركيبة الشرق الأدنى ، فقد حدث ابان حملة لويس التاسع أن قامت

ثورة فى مصر سنـة ١٢٤٩ استولت على عرش الايوبيين الذى أسسه صلاح الدين(١) ، وأتت بطبقة المماليك العسكرية الى السلطة بادئة بذلك اغرب نظـام حكم فى التاريخ : فقد كان المماليك عبيدا جلبوا عبر البحر الأسود ، واعتنقوا الاسلام ، وتمت تنشئتهم كمقاتلين محترفين لا ينضم الى صفوفهم الا من كان مثلهم من الرقيق ، ولكن بمجرد قبوله فى صفوف المماليك تصبح امامه الفرصة لكي يصل الى أعلى مناصب الدولة والجيش ٠

وفى سنة ١٢٦٠ كان المملوك بيبرس هو الرجل الحـاكم فى مصر ، وهو قائد ممتاز ورجـل دولة هائل القـدرة ، وهو من أعظم حكام العالم الاسلامى ٠ فقد استطاع أن يغير مصير الشرق الأدنى فى أكثر من اتجاه ، فسرعان ما وضع يده على موارد مصر المالية واستبدل الأيوبيين الكسالى برجال عصاميين يتدفقون نشاطا وحميـة ٠ وكان لاستيلاء المماليك على الحكم فى مصر أثره من حيث تعميق هوة الخلاف بين القاهرة وسـوريا التى كانت ما تزال تحت حكم امـراء بنى أيوب ٠ وكانت المواجهـة بين الطرفين حين وصـل الطوفان المغولى الى العـراق ، واستولت القبائل

---

(١) الحقيقة أن وصف اسـتيلاء المماليك على الحكم فى مصر بأنه ثورة يجافى الواقع الى حد كبير ٠ ففى تصـورنا أن وثوب أولئك العبيد السابقين على عرش البـلاد انما جاء استجابة للتطورات السياسية التى ألمت بالعالم الاسلامى فى منتصف القرن الثالث : فها هى مساحة الأراضى الاسـلامية على أرض الأندلس تتقلص بفعل ضربات الاسترداد الأسبانية على حين سقطت الخلافة العباسية فى بغداد ، فى الوقت الذى كان فيه الأيوبيون غارقون فى منازعاتهم وحروبهم الداخلية ٠ وقد أدى انتصـار المماليك فى المنصورة ، ثم فى عين جالوت الى تأكيد صورتهم باعتبارهم القوة العسكرية الوحيدة القادرة على الدفاع عن العالم الاسلامى ٠ ومن ثم فانهم دبروا ما يشبه الانقلاب الصامت للاستيلاء على السلطة ، ثم أعاد بيبرس احياء الخلافة العباسـية فى مصر محاولا أن يكتسب من خلالها الشرعية التى كان يفتقر اليها حكمه ٠

انظر قاسم عبده قاسم ، دراسـات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٧٩) ٠

المغولية على بغداد سنة ١٢٥٨ . ولكي يتم تحاشى كارثة كونية اذا ما سفك دم الخليفة المقدس ، وضع الخليفة الثامن والثلاثون وآخر خلفاء بنى العباس فى غرارة ، وخنق حتى مات ، ثم استولت الجيوش المغولية بقيادة هولاكو على دمشق . وباتت الحرب مع المصريين وشيكة الحدوث ، وقنع الصليبيون بدور المتفرج فى هذه المواجهة الكبيرة ، فلم يكن لهم حول ولا طول ، كما كانوا يفتقرون الى الزعامة ، كما اضعفتهم الحروب الداخلية بين الكومونات الايطالية ، على الرغم من معركة عين جالوت الحاسمة (١٢٦٠) قد دارت رحاها على اعتاب ديارهم . ولقى المغول هزيمة نكراء ، ثم تقهقروا بسرعة فى اتجاه سوريا . وكانت تلك معركة من معارك التاريخ الحاسمة التى قررت مصير الشرق الأوسط ومستقبله ومنعته وقوعه فى براثن المغول . ثم حقق بيبرس انتصارات اخرى دفعت بالمغول مرة أخرى الى فارس وأرمينيا .

وبمطاردة المغول المتقهقرين صار بيبرس سيدا على سوريا ، وأحاط ببقايا مملكة الصليبيين من كل اتجاه ، وكان من السهل عليه آنذاك ان يهاجمها ويدمرها ، ولكن مهام اخرى اكثر اهمية كانت تشغله . فعلى الرغم من انتصاراته كان المغول لايزالون يشكلون خطرا حقيقيا . واطلق بيبرس من جديد شعار الجهاد ضد المغول فى هذه المرة . كما حاول تكوين حلف اسلامى بضم مغول القرن الذهبى على شواطىء البحر الأسود .

ونجحت ثلاث حملات قصيرة (١٢٦٣ ــ ١٢٦٦) فى حرمان الصليبيين من صفد ومن قلاع اخرى فى الجليل . كما استولى على قيصرية وأرسوف وحد من مساحة الشريط الضيق الذى قامت عليه المملكة ، وتم عزل مدن الساحل الصليبية عن بعضها البعض بواسطة الأراضى التى يسيطر عليها المسلمون . وبدا لوهلة أن حربا صليبية جديدة سوف تدور رحاها وتستخدم رؤوس الجسور الصليبية لكى تبدأ حربا

استردادية ضد المسلمين · وبالفعل بدأ لويس التاســـع فى تجهيز حملة كبيرة ، ولكنها اتجهت الى تونس التى كان حاكمها بزعم أنه على استعداد لقبول المسيحية · ويقال ان الملك لويس التاســـع كان يردد كلمة القدس القدس بصـــوت خفيض وهو على فراش المـــوت · بيد أن فكرة الحروب الصليبية كانت قد انتهت · أما محاولات جيمس ملك أرغونة الذى وصل الى منتصف الطريق الى الأراضى المقدسة ، وادوارد الأول ملك انجلترا ، فكانت مجرد جزء من قانون الفروسية أكثر من كونها محاولات لشن حرب صليبية قادرة على تغيير الموقف · ولكنها كانت ســـببا فى اعاقة بيبرس وخلفائه الذين تملكتهم فكرة امكان قيام حملة صليبية جديدة · وطالما لم تكن المدن الصليبية تضايق حكام المماليك ، كان المماليك على استعداد لمنح هذه المدن الهدنة التى كان بوسعهم نقضها متى شاءوا وحين يرون الوقت مناسبا لذلك ·

وأعطى تاج بيت المقـــدس لآل لوزينان فى قبرس ، ولكن جهودهم المخلصة لم تغير شيئا من الموقف · وأخذ الوجود الصليبى يتلاشى شيئا فشيئا · فتم الاستيلاء على انطاكية سنة ١٢٨٦ وطرابلس سنة ١٢٨٩ · وأخيرا سقطت عكا ، ذلك الحصن الصليبى الكبير بعد حصار باسل دام اربعة واربعين يوما ، ثم سقطت عكا فى ١٨ مايو ١٢٩١ · وكانت هـــذه هى النهاية ، ففى اغسطس ١٢٩١ هجر الداوية قلعة الحج ، أعظم القلاع الصليبية · وكان ذلك هو فصـــل الختام بالنسبة للحج الأوربى الكبير · ونهاية للملكة الصليبية ·

ـ ٤ ـ

الشرق(١)

كانت المرة الأولى التى تحتك فيها جماهير الصليبيين بالشرق ابان الحملة الأولى فى مكان ما بين البلقان وايطاليا · وكان الشرق فى هذه المرة مسيحيا · فالشرق المسيحى ، الذى كان جـزءا من الامبراطورية الرومانية القديمة . كان هو الامبراطورية البيزنطية · وكان الطريق المار بالبلقان والقسطنطينية وبعض مناطق آسيا الصغرى بمثابة البوابة التى تؤدى الى الشرق بأسره · فها هو العالم الاسلامى الحصين على مقربة من أسوار العاصمة البيزنطية · ومن هذا المكان كان العالم الاسـلامى يمتد باتجاه الشرق على اتســاع رقعة تضم العراق وسـوريا والأراضى المقدسة حتى الهند فى الشرق ، ومصر وشمال افريقيا فى الغرب ·

ولم تكن هاتان الواجهتان الشرقيتان ، الاسلامية منهما والمسيحية ، أرضا تدخل فى الخريطة التى يعرفها الرجل الغربى ، سواء كان انجليزيا أو فرنسيا أو المانيا · كانت صورة الشرق الخرافى الغامض العظيم فى مخيلة الغربى تتالف من عناصر متنوعة تجمـــع ما بين اللغـــات غير المسيحية التى يتحـدث بهـــا مسيحيو الشرق أى السريانية واليونانية والعربية ، الى جانب مدن الشرق العريقة فى شهرتها والأديرة والكنائس العظيمة ، عن ذلك الأدب غير اللاتينى الذى يلقى الحفادة والاحتفال ، ومن ملامح هـــذه الصـــورة أيضـــا تلك الثيـــاب الفخمة التى كان

---

(١) عنوان هذا الفصل كما كتبه المؤلف هو The Levant ، وقد رأينا ترجمته على هذا النحو لكى يلائم القارىء العربى · (المترجمان)

الاكليروس الشرقى يتميز بها والتى تليق بفدية الأمراء ، والثياب الموشاة بخيوط الذهب والفضـــة التى يرتديها رجال الدولة والجنود · هـــذه العناصر جميعها خلقت فى مخيلة الرجل الغربى صورة أقرب الى صورة الجنة الأرضية · ولم يكن الشرق غريبا تماما على الايطاليين والنورمان فى جنوب ايطاليا ، فقد كان الايطاليون يتبادلون التجـــارة مع كل من الشرق الاسلامى والقسطنطينية · أما النورمان فقد تعرفوا على الشرق من خـــلال الغزوات التى شنوها على الأمـــلاك البيزنطية قبيل الحروب الصليبية · فضلا عن أن مدينة البندقية التى تطغو فوق جداولها وقناواتها العديدة كانت مدينة شرقية السمات على الرغم من الأعلام المسيحية التى كانت ترفرف فوقها ، كمـــا كانت هى المنفذ الذى يدلف منه الغرب الى الشرق · فضلا عن انها كانت نقطة التفتيش الأوربية قبل الولوج الى عالم الشرق الغامض الساحر ·

وعلى مدى قرنين من الزمان ، عاش الغربيون تحت سماء الشرق يحيط بهم هـــذا الشرق وأبناؤه . من الارستقراطية العربية والفارسية ، والبدو الرحـــل الذين كانوا يجوبون الآفاق فيما بين الفرات والنيـــل ، والقادة الأتراك وحامياتهم ، والدروز ، وطائفة الحشاشين الرهيبـــة ، فضلا عن فلاحى سوريا وفلسطين ووادى النيل · وكان الجميع يخضعون لاحدى سلطتين ، اما الخليفة العباسى السنى فى بغداد ، واما الخليفة الشيعى الفاطمى فى القاهرة · كذلك كان هنـــاك المسيحيون الشرقيون الذين كان بعض أبناء الغرب المسيحى قد توجهوا صوب الشرق لانقاذهم من النير الاســـلامى ، الا أن الود والتفاهم بين الجانبين ظل مفقودا · فقـــد كان الامبراطور البيزنطى القابع على ضـــفاف البسفور هو حاكم المسيحيين الشرقيين · وحين صافحت عيون الغرب قصـــور الامبراطور وتيجانه التى تزهو بما يرصعها من جواهر ولآلىء ، والملابس المزركشـــة باللآلىء وخيوط الذهب التى يرتديها رجال الدولة ورجال الجيش الغريب

المؤلف من اليونانيين ، والسلاف ، والفيكنج فضلا عن الأتراك العاملين في جهاز الشرطة ··· حين حدث هذا وقع الغربيون في شـباك الحيرة والتخبط · وفى الشرق أيضا قامت كنيسـة الروم الارثوذكس وبطاركتها الذين أصروا على عدم الاعتراف بشرعية السـلطة البابوية فى روما ، وظلوا يفاخرون بتراث يمتد على مدى ألف عام ، زاعمين أن هذا التراث أكثر اصالة من تراث الغرب المسيحى · وقد استقر بطاركة هذه الكنيسة وأساقفتها ، لا فى داخل حدود الامبراطورية المسيحية فحسب وانما أيضا الأحوال · وكان من الصعب على الرجل الغربى ان يفهم هـذا الموقف فى بلاد الاسـلام التى لم تكتفى بقبولهم فقط ، وانما اكرمتهم فى غالب الغريب · ولكن اصرار البيزنطيين على العمل المستقل فى البلاد المحررة حديثـا كان يجلب له الضيق والضجر لكون هـذه البلاد تحت سيطرة المسيحيين اللاتين ·

وفى الشرق أيضا كانت ثمة ممالك مسيحية أخرى ، وان كانت يدين بالارثوذكسية ولكن بعد الغربى عن موطنه كان يجعله أكثر لينا ، وربما كان يغمره شـعور بالرضـا والفخر حين يعلم بوجودها ، ففى أقصى الشمال وعند جبال القوقاز كانت توجد مملكة جورجيا المسيحية التى لعب ملكها وأمراؤهـا وجيشها دوراً حيويا فى سياسية آسيا الصغرى وكان لسكانها لغتهم وأبجديتهم الخاصـة بهم ، كما كانت تربطهم بالأراضى المقدسة علاقات قديمة · وكثيرا ماتوجهت سفاراتهم وقساوستهم الى بلاط المسلمين وحكام المغول · كذلك كانت هناك مملكة أرمينيا الصغرى عند جبال طوروس وعلى طول سهل كليكيا السـاحلى فى آسيا الصغرى · وكان التأثير متبادل بين هذه المملكة وبين الفرنج نتيجة اتصالها المباشر بادارة انطاكية فيما بعد · وكان حكامها المعروفون ببسالتهم الحربية قد أقاموا نوعا من البلاط الاقليمى على النمط البيزنطى ، كما كان لمقاتليها شهرة ذائعة · وكثيرا ما قدمت أرمينيا للبلاط الاسلامى عددا من الوزراء

الذين اعتنقوا الاسلام • كما كان الأرمن يعملون كجنود مرتزقة فى خدمة حكام الشرق الاسلامى والمسيحى على السـواء • وكان الصليبيون قد ألفوا زى رجال الدين والرهبان الأرمن ، كما اعتادوا على صلبانهم ذات الفروع المشقوقة والنمط المعمارى الفريد الذى ميز محاريبهم ، فضلا عن اللاهويتين والمثالين الأرمن الذين كانت أعمارهم مألوفة فى الأوسـاط الصليبية ، وبعد جيلين من التعايش معا أدى الزواج المختلط بين الأرمن والصليبيين الى أن صـارت اللغة والعـادات الفرنسية عنصرا هاما وأساسيا فى حياة البلاط الأرمنى •

وربما كانت هـذه الممالك المسيحية الحقيقية القائمـة على حدود العالم الاسلامى أقل فى شهرتها من الامبراطورية الخرافية التى قيل ان القديس يوحنا يحكمها اما فى الهنـد الغربية أو فى أثيوبيا التى لاتقل غرابة عن الهند ، والتى كانت شـعاع الأمل الذى يومض بين دياجير الخوف من التهديد الاسلامى باعتبارها خصما من خصـوم الاسـلام الكثيرين(٢) • ولكن الذى لم يكن خرافة حقا هو وجود مملكة مسيحية فى الحبشة كانت ترتبط دينيا ببطريرك الاسكندرية القبطى • وقد زادت هذه المملكة المسيحية برهبانها واديرتهم التى تذكرنا بأقـدم المؤسسات الديرية فى العالم المسيحى من عدم تجانس الشرق • وكان المسلمون فى مصر هم أقـرب الجيران اليهم ، ولكن أقبـاط مصر المسيحيين كانوا يرتبطون مع هذه المملكة ، التى ادعى حاكمها انهم ينحدرون من نسـل سليمان وملكة سبأ ، بأوثق الروابط والصلات •

---

(٢) لم يكن هناك وجود حقيقى لهذه الامبراطورية التى شـاعت القصص عنها وعن حاكمها « برسترجون » فى العصور الوسطى ، وربما كان لقصور المعلومات الجرافية لدى الغرب آنذاك الفضل فى ترويج قصة هذه الامبراطورية الدهمية ، والخلط بينها وبين الحبشة المسيحية التى كانت تابعة للكنيسة المصرية منذ وقت مبكر •

(المترجمان)

كان الشرق ، المسلم والمسيحى ، هو الاكتشاف الكبير بالنسبة للصليبيين . وكان من الطبيعى أن يعلم الغرب بوجود الشرق ، فقد زاره الحجاج والتجار والمرتزقة . ولكن بقدوم الصليبيين الى الشرق ، صار هذا الشرق جزءا لا يتجزأ من التصور الأوربى للعالم ، ومن تصورهم للعالم المسكون . وكان هذا تطورا رئيسيا فى الشعور الغربى الآخذ فى النمو فيما يتعلق بالبلدان والشعوب والثقافات الواقعة فيما وراء أوربا . وقد لعبت العناصر الشرقية المتعددة دورا فى حياة المستعمرات الصليبية فى الشرق . لقد تمت المواجهة مع الشرق الاسلامى على المستوى العسكرى ، كما تمت أيضا على مستوى العلاقات الاقتصادية ، لأن المسلمين كانوا يشكلون غالبية السكان فى المناطق التى وقعت تحت السيادة الصليبية .

وكان بعض المسلمين القاطنين على سواحل الشرق من سلالة غزاة القرن السابع العرب الذين قضوا على السيادة البيزنطية على سوريا وفلسطين ومصر . أما غالبيتهم فكانوا من سلالة الأراميين والكنعانيين القدامى الذين خضعوا للتأثير الهلينى ثم الرومانى . وقد اعتنقوا المسيحية ثم تحولوا الى الاسلام . ويبدو أنه فى الشمال ، أى فى مقاطعات انطاكية والرها ، كان المسلمون أقل عددا منهم فى طرابلس وفى مملكة بيت المقدس الصليبية . ذلك أن قرب بيزنطة ، الى جانب حقيقة أنه قد اعقبت السيادة الاسلامية التى استمرت على هذه المناطق ثلاثة قرون ، فترة مائة عام تقريبا من السيادة البيزنطية التى استمرت حتى عشية الغزو الصليبى ... كل هذا ربما يكون السبب وراء بقاء قطاعات كبيرة من المسيحيين ، أو ارتداد البعض عن الاسلام . أما فى الجنوب ، فى المملكة اللاتينية ، فقد كان الوضع مختلفا حيث كانت المنطقة قد عزلت عن بيزنطة ما يقرب من أربعة قرون . وكانت اللغة العربية هى اللسان

المشترك للسكان حتى فى المناطق التى لم تكن فيها للاسلام السيادة الكاملة • وعلى الرغم من اختلاف التوزيع السكانى ، فان العربية لم تكن لغة المسلمين فقط وانما تحدثت بها جميع الطوائف المسيحية واليهود والسامرة ، وفى القرن الثامن ، أى فى عهد هارون الرشيد الذائع الصيت ، حلت العربية محل السريانية واليونانية اللتين اقتصر استخدامهما على الشئون الدينية . وتخلفتا عن مكانيهما فى الجهاز الحكومى والشارع والسوق للغة العربية • وما حدث بالنسبة للغة حدث أيضا فى مجال الأزياء ، فقد كان أصحاب الأديان الأخرى يرتدون الثياب الشرقية نفسها الا اذا فرضت السلطات الشرعية عليهم غير ذلك •

وكان المسلمون يعيشون فى المدن وفى الريف • ولكنهم فى الوقت الذى كانوا يشكلون فيه أقلية فى عواصم الصليبيين مثل الرها وانطاكية وطرابلس ، كان عددهم كبيرا فى المراكز العمرانية الصغيرة • وبعد الغزو الصليبى مباشرة والمذابح الشاملة وعمليات طرد السكان الأصليين فى المدن (غالبا ما كانوا من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين لم يفرق الصليبيون بينهم بسبب الزى المشترك) عاد المسلمون ثانية ليستقروا فى المدن • وكانت القدس هى الاستثناء الوحيد ، لأن الصليبيين أصدروا قرارا بأنه من الرجس أن يعيش فى المدينة التى شهدت آلام المسيح أولئك الذين دنسوا اسمه •

وكان الريف كله مسلما ، فقد استمرت المجتمعات القروية الاسلامية تعمل تحت الحكم الصليبى • وظلت الخلايا الاجتماعية الأساسية كما هى ، على الرغم من أن الدولة الاسلامية فقدت سيادتها وسلطتها • وتركزت الحياة الدينية فى القرى حول المساجد الصغيرة ، واستمر القضاة والعلماء يباشرون خدماتهم الدينية وغير الدينية لأنه لم يكن ممكنا الاستغناء عنهم فى شئون الزواج والميراث • وقد نجت بعض المساجد ، حتى فى المدن الكبيرة من التحويل الى كنائس وظلت بأيدى المسلمين •

فضـلا عن أن الصليبيين اعترفوا بالسـلطة التقليدية للشيوخ • ومنح الرئيس ، وهو شيخ القرية ، نوعا من السلطة وكان هو الذى يمثل القرية فى وتعامل مع الحاكم الصليبى • وفى حالة عـدم وجـود وكيل للخراج للاشراف على ضرائب الدخل ، كان الرئيس يتحمل هذه المسئولية بتفويض من الفرنج •

ولم يكن لقـاء الحاكم الصليبى بالمسلمين لقـاء حاكم بمحكوم فحسب ، وانما كان لقـاء على المستوى الاقتصـادى ، لقاء المستغل بالمستغل • وربما يكون من الغريب أن هـذا الجانب من العلاقة لم يكن عنيفا كمـا يفترض البعض ، والاقتباس التالى من ابن جبير الرحـالة المسلم الذى رحل مع قافلة من دمشق الى عكا فى طريقه الى تونس يوضح ذلك • فمن بيت جن عند سفح جبل حرمون وبانياس عبر الحدود الى المملكة اللاتينية مارا خلال الحصن الصليبى فى تبنين وصل الى « ••• وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلهم مسلمون ، وهم مع الأفرنج على حال ترفيه ، نعـوذ بالله من الفتنة ، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولا يعترضونهم فى غير ذلك • ولهم على ثمر الشـجر ضريبـة خفيفة يؤدونها أيضا • ومساكنهم بأيديهم ، وجميع أموالهم متروكة لهم • وكل ما بأيدى الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رساتيقهم كلها للمسلمين وهى الضياع والقرى • وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضـد أحوالهم من الترفيه والرفق • وهـذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الاسلامى جور صنفه ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ويأنس بعدله ••• » (٣)

---

(٣) النص من رحلة ابن جبير ، تحقيق الدكتور حسين نصـار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٩١ • (الترجمة)

اما فى المدن ، فلا شك أن المسلمين وجدوا أنفسهم فى موقف حرج كأقلية محتقرة وغير موثوق بها بالنسبة للفرنجة ٠ ومع ذلك فان حساسية ابن جبير تجاه الخنازير التى كانت تتجول فى شوارع المدن المسيحية ، والصلبان التى كانت ترتفع فى كل ركن من أركانها لم تحل دون المسلمين فى دمشق وتجار الموصل من الابقاء على فروع متاجرهم فى الأسواق المسيحية الكبيرة على الشاطىء ٠

وليس هناك شك فى أن الأرستقراطية المسلمة والمثقفين المسلمين ، وهم عادة سكان المدن ، قد اختفوا مع بداية الغزو الصليبى تاركين الفلاحين والمهنيين والتجار ٠ الا أن الصليبيين كانوا على معرفة جيدة بأبناء الطبقة العليا فى المجتمع الاسلامى ٠ فقد كان الحكام المسلمون وأبناء الأسر الحاكمة يزورون المدن الفرنجية ، كما أن الاتقياء منهم كانوا يزورون المدينة المقدسة ٠ كما عرف الفرنجة كثيرين من الجغرافيين والأطباء وغيرهم من أبناء الطبقة المثقفة ٠ ومع مرور الوقت نشأت علاقة غريبة فى بابها بين البارونات الصليبيين والحكام المسلمين ٠ ولم يقبل أى من الطرفين الآخر فيما يتعلق بالسلوك والثقافة ٠ الا أن نوعا من الاحترام المتبادل ساد العلاقة بين الطرفين ، وهو احترام أشبه باحترام المقاتل لرفيق السلاح حتى وان كان من أعدائه ٠

والى جانب السنة والشيعة عرف الرحالة الاوربيون التواقون للاستطلاع أن هناك فى جبل لبنان طائفة مسلمة تعرف باسم الدروز ٠ وقد كان أبناء هذه الفرقة التى تأسست فى القرن الحادى عشر يعتقدون أن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله هو آخر تجسيد للألوهية ، وتوقعوا عودته ٠

وكانت هناك طائفة اخرى تفوقهم شهرة هى طائفة الحشاشين المتطرفة والتى كان افرادها يستخدمون اية وسيلة ، بما فى ذلك القتل ، لحماية مصالحهم ٠ ومع مرور الوقت صاروا خطرا على المسيحيين

والمسلمين على السواء ٠ وقد وصف وليم الصـورى ، الذى كان يعيش فى الأراضى المقدسة وأصبح اكبر مؤرخيها ، طائفة الحشاشين الوصف التالى : « فى اقليم صور فى فينيقية ، وفى ابرشية طرطوس كانت تعيش جماعة من الناس يمتلكون عشرة حصـون بالقرى الملحقة بها ، وكان عددهم كما سمعنا ستين الفا وربما اكثر ٠ وعادة هـذه الجماعة ان يختاروا حاكمهم ، لا عن طريق الوراثة ، ولكن بامتياز الأحقية ٠ وعندما يتم اختيار هذا الزعيم يطلقون عليه لقب « العجـوز » ، او « الشيخ » ولايقبلون لقبا آخر ولا يحول شىء دون خضوعهم له وطاعتهم العمياء لأوامره ٠ وهم يعتبرون أن أى شىء يطلبه ممكن وغير مستحيل ، ويأخذون على عاتقهم تنفيذ اخطر المهـام تنفيذا لأوامره ٠ فاذا حدث ، مثلا ، ان كان هناك امير جلب على نفسه كراهية هذه الجماعة او عدم الثقة يضع الزعيم خنجرا فى يد واحـد أو اكثر من اتباعه ، ويسرع هـؤلاء لتنفيذ مهمتهم فى الحـال ، بصـرف النظر عن النتائج ، أو فرص النجـاة ، ويظلون جاهدين طوال الوقت حتى تحين اللحظة المواتية لتنفيذ أمـر الزعيم ٠٠٠ » ٠

كما يصفهم ماركو بولو بهذه الكلمات :

« ٠٠٠ لم يكن مسموحا لأى انسان أن يدخل حديقة العجوز غير اولئك الذين يريدهم ان ينضموا الى جماعته ٠ وكان هناك حصن منيع عند مدخل الحديقة ، وكان من القوة بحيث يكفى لمقاومة العالم بأسره ، ولم يكن ثمة طريق آخر للدخول ٠ وقد كان هذا الرجل يحتفظ فى بلاطه بعـدد من الشبان من أبنـاء المنطقة فيما بين الثانية عشرة والعشرين يصلحون لحياة الجندية ٠ وعندئذ يدخلهم الى حديقته على مرات ، فى كل مرة اربعة ، أو ستة ، أو عشرة ٠ ويعطيهم شرابا سائلا يروحون بعده فى سبات عميق ، ثم يأمر بحملهم الى الحديقـة حتى اذا ما استيقظوا وجدوا انفسهم بين جنباتها ٠ »

« وعندما يستيقظ هـؤلاء ويجدون أنفسهم فى مكان جميـل رائع يظنون انهم فى الجنة حقا ، وتتولى النسوة والصبايا العذارى مداعبتهم ليدخلن المسرة على قلوبهم »

« وحين يريد العجوز قتـل أمير ما ، يأمر واحدا من أولئك الشبان بقوله : اذهب واقتل فلانا ، وعنـدما تعود ستحملك ملائكتى الى الجنة ، أما اذامت فسوف أرسل ملائكتى لتعيدك الى الجنة · »

وعدد قليل جـدا من بلدان العالم هى تلك التى يتمركز فيها هـذا العدد الكبير من الطوائف الدينية فى منطقة واحـدة · وهـذه الظاهرة الغريبة ، التى جعلت من الشرق معرضا للتاريخ الاسـلامى والمسيحى واليهودى ، انما جاءت نتيجـة لعـدد من العوامل · فبالنسبـة للمذاهب المسيحيـة كان السبب الرئيسى سياسيا ؛ ذلك أن المذاهب اللاهوتية التى اعتبرت من قبيل الهرطقة ، وتعرض اتباعها لسوط الاضطهاد بأيدى اتباع العقيدة الارثوذكسية الرسمية فى الامبراطورية البيزنطية ، قد وجـدت لنفسها الملجأ والملاذ خارج حدودها · وكانت الجماعات القومية قد تبنت هـذه المذاهب المخالفة كمـا لو كانت هى عقيدتها الأصلية ، الأمر الذى خلق الكنائس القـومية فى جورجيا ، ارمينيا ، ومصر ، والحبشـة · ولم يتبلور البعض الآخر فى اطارات قومية ، ولكنها كانت تمثل قطاعات كبيرة من السكان · بل كانت تمثل ، احيانا ، مقاطعات بأسرها داخـل حدود العالم الاسلامى الواسع بما ساده من تسامح ، كما حدث بالنسبة لليعاقبة ، والموارنة ، والنسـاطرة · ومع أن اختلاط الطوائف المسيحية عبر عن نفسه بشكل واضح فى العراق وسوريا وفلسطين ، فان للمدينة المقدسة الحق فى أن تفخر بوجود اكبر مجموعة منها · فقد كانت جاذبية مهد الدين سببا كافيا لكل طائفة مسيحية لكى تتمسك بمكانها فى المدينة المقدسة · فقد كان السير فى شوارع القدس فى العصور الوسطى ، مع امعـان النظر فى الكنائس اللاتينية الفاخرة ، والكنائس اليونانيـة

العديدة ، فضلا عن الكنائس الصغيرة المتواضعة لبقية الطوائف ، أشبه ما يكون بالتجـــوال فى أرجـاء متحف غنى بكنوزه من متاحف التاريخ الكنسى ٠

وكانت الطائفة اليونانية هى أكبر الجماعات المسيحية ، كما كانت كنيســـة بيزنطـة هى أكبر الكنائس ٠ ومع أن قوتهـــا كانت تتركز فى المقاطعات الشمالية ولا سيما فى أنطاكية ٠ فانهـا كانت موجودة بشكل ما فى المملكة اللاتينية ٠ وقبل وصـــول الصليبيين كانت هى أغنى الكنائس الواقعة تحت الحكم الاسلامى وأكثرها تنظيما ٠ ولذا فانه مما يثير الحيرة أن الصـــليبيين ، الذين أقســـموا فى كليرمونت على تحرير المسيحيين البيزنطيين من الخطر الاســلامى ، قد تحولوا الى مناوئين ، بل وقطـاع طرق ٠ وقد أدى الى هذا التطور خليط غريب من الظروف ٠ فمن الناحية العقيدية ، فقد كان اللاتين يأملون فى أن البيزنطيين ليسوا هراطقة وانما هم منشقين عن روما بشكل مؤقت ٠ وبما أن طقوس الكنيســـة البيزنطية واكليروسها كانت صحيحة ، فقد كان من الممكن اغفال الخلافات البسيطة فى العقيدة والتغاضى عن الانحرافات فى الخدمة الكنسية فى سهولة ٠ وقد كان الامتثال اللاهوتى أو الموافقة هى العنصر الحاسـم فى العلاقات بين اللاتين والبيزنطيين ٠ ذلك أن اللاتين لم يكونوا بقادرين على تصور موقف يكونون فيه تحت سيادة رجال الدين الشرقيين ، كما لم يكن ممكنا من الناحية اللاهوتية أن تقبل وجود سلطة دينية لاتينية شرقية موحدة ٠ ومن ثم حل بطريرك لاتينى محل البطريرك البيزنطى فى انطاكية ، وحدث الشىء نفسه فى القدس بعد الغزو الصليبى مباشرة ٠ وبعد أن خلع الصليبيون أساقفة الكنيسة الارثوذكسية البيزنطية ، أو أعلنوا خلو الكراسى الاسـقفية ، عين الصليبيون أساقفتهم وطلبوا من رجال الكنيسة البيزنطية الاعتراف بالاساقفة اللاتين الجدد والخضوع لهم ٠ وكانت النتيجة أن وجدت حالة من التوتر الدائم بين البيزنطيين واللاتين ، فقد انسحب البطاركة الشرقيون

الى القسطنطينية بعد أن حرموا من كراسيهم ، وتوالى تعاقبهم فى العاصمة البيزنطية كأساقفة اسميين للبلاد التى قهرها الصليبيون · وبقيت الشرائح الدنيا من رجال الدين فى المقاطعات الصليبية ، وان اضطروا الى اعلان طاعتهم الأسمية للاتين ·

وكان تأسيس أى كنيسة لاتينية يقترن دائما باتلاف الكنائس البيزنطية وهو الأمر الذى وجد لنفسه التبرير الشرعى فى كونه التوارث المألوف من جانب اللاتين لأملاك البيزنطيين السابقة · وتجلت هذه العملية بوضوح فى الكنائس الكبرى وفى المدن أكثر من الريف · ومع ذلك لم يختف رجال الدين البيزنطيون الذين ظلوا يحتفظون بطقوسهم ومراسمهم الدينية المتمايزة فى كنيسة القيامة ، وفى كنيسة الميلاد فى بيت لحم · فضلا عن أنه فى الأوقات التى كانت فيها العلاقات السياسية أكثر ودية ، كما حدث فى منتصف القرن الثانى عشر ، عندما حدث تحالف صليبى بيزنطى فى عرض البحر ، رأى اللاتين أن يعينوا بطريركا شرقيا فى أسقفية انطاكية · وانفق الامبراطور البيزنطى بسخاء على تزيين الكنيسة فى بيت لحم حيث أعلنت الكتابات التى نقشت على جدران الكنيسة عن مولد الروح المسكونية الجديدة ·

وأيا ما كان وضع رجال الاكليروس الشرقيين فى الكنائس ، فقد ظلت أديرة الرهبان فى أيديهم ، وتم الحفاظ على تراث الرهبنة فى الأرض المقدسة · اما تراث الرهبنة المصرى ، الذى هو أقدم تراث رهبنة فى المسيحية ، فقد حفظته الأديرة القديمة فى صحراء يهوذا ، وعلى شواطىء الأردن · وظلت أديرة قرنطل ودير مار سابا ، ودير كوزيبا ، فضلا عن دير سانت كاترين فى سيناء ببهائه وعزلته ، ·· ظلت هذه الأديرة ملاذا للراهب الهارب من هذا العالم · وقد تغنى الأدب الكنسى القديم ، وتراتيل الكنيسة الشرقية بدوام الكنيسة الارثوذكسية ودوام المجد الالهى ·

وبينما كان عـــدد رجـــال الدين البيزنطيين كبيرا ، كان مجموع السكان الروم الارثوذكس كبيرا فى الشمال ، قليلا فى المملكة اللاتينية ، وكان اتباع الكنيسة الســورية يكونون غالبية الســكان المسيحيين فى المملكة · وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا ورثة الآشوريين القدماء كما كان بعض الصليبيين يعتقدون ، فقد كان الســوريون من قدامى الســكان الأصليين فى الأرض المقدســة وحافظوا على هويتهم الدينية وســلطة كنيستهم ورجالها تحت حكم الاسلام · وقد احتفظ لنا أحد أساقفة عكا فى القرن الثالث عشر بوصف واضح لأولئك المسيحيين الشرقيين ، على الرغم من أن حدة طبع هذا الأسقف قد أفسدت هذا الوصف :

« هناك قوم آخرون استقروا على هذه الأرض منذ القدم باســم أرباب شتى وحملوا نير العبودية بالتوالى تحت حكم اليونان والرومان واللاتين والبرابرة والمسلمين والمسيحيين · وأولئك القوم عبيد فى كل مكان وأتباع يحتفظ بهم أسيادهم لأغراض الفلاحة ، وغيرها من الأعمال الخسيسة · وهم جميعا عازفون عن القتــال ولا فائدة منهم فى المعركة كالنساء · ومع أن بعضهم يحملون القسى والسهام ، فانهم غير مسلحين، وعلى استعداد للهرب · هؤلاء القوم يعرفون باسم السوريان وهم غالبــا غير أهــل للثقة ، منافقون ، وثعالب ماكرة كاليونانيين · وهم كذابون خوانون ، يعشقون النجاح ويمكن رشوتهم بسهولة · وهم رجال يقولون ما لايعنون · ولا يأبهون للسرقة والنهب ، فمن أجل حفنة صغيرة من المــال يتحولون الى جواسيس ينقلون أخبار المسيحيين الى المسلمين الذين تربوا بينهم وتكلموا لغتهم ، وغالبــا ما حاكوا طرقهم الملتوية · لقد خالطوا الوثنيين وتعلموا أفعالهم وحبسوا زوجاتهم كما يفعل المسلمون · ولفوا زوجاتهم وبناتهم بالثياب حتى لايراهم أحد · ولم يحلقوا ذقونهم على نحو ما يفعل البيزنطيون والمسلمون وجميع الشرقيين ، وانما يعنون بها عناية كبيرة ويمجدون فيها على وجه الخصــوص شرف الوجه وكرامة الانسان وعظمته معتقدين أن الذقن علامة على الرجولة » ·

« ويستخدم السوريان لغة المسلمين فى حديثهم العادى ، كما يستخدمون الخط العربى فى الأعمال والتجارة وكافة انماط الكتابة الأخرى ، فيما عدا الكتاب المقدس وغيره من الكتب الدينية اذ يستخدمون فى كتابتها الأبجدية اليونانية . ويتبع السوريان قواعد البيزنطيين وعاداتهم فى مراسمهم الدينية وغيرها من الأمور الروحية ويطيعون البيزنطيين باعتبارهم سادة لهم . أما بالنسبة للأساقفة اللاتين الذين يقيمون فى أسقفياتهم ، فانهم يعلنون طاعتهم الاسمية لهم تظاهرا وخوفا من أسيادهم ، لأن لهم اساقفة بيزنطيين وهم لايخشون التحريم لأنهم يقولون أن اللاتين جميعا محرومون ، ومن ثم فانهم لا يستطيعون حرمان اى انسان » .

وبينما كان البيزنطيون والسوريون المسيحيون يعتبرون منشقين فقط ، كانت بقية الكنائس المسيحية تعتبر بدعا دينية محضة فى رأى الصليبيين . هذه الكنائس هى الكنائس القومية فى جورجيا وأرمينيا ومصر (الأقباط) ، وأثيوبيا ، وجميعها تؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح . ومع ذلك ، فغالبا ما كانت هذه الكنائس الشرقية ببطاركتها وأساقفتها تستفيد من الغزو الصليبى . ذلك أن اليعاقبة (أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة) قد تعرضوا للاضطهاد من جانب البيزنطيين داخل حدود الامبراطورية البيزنطية ولم تكن علاقاتهم بالكنيسة البيزنطية أحسن حالا فى المناطق الواقعة تحت سيطرة المسلمين . فقد كانت المجادلات اليومية والخصومات والاتهامات العنيفة أمرا كثير الوقوع . وقد وضع الغزو الصليبى نهاية هذه الحرب الحقيرة . فالصليبيون لم يكونوا يبحثون فى عقائد الطوائف كما يخبرنا احد البطاركة اليعاقبة ، فقد كان الجميع سواء فى نظر الفرنجة طالما انهم ليسوا فرنجة . فضلا عن أن هذه الكنائس لم تكن عاملا من عوامل تشكيل سياسة المنطقة ، مثلما كان الحال مع الكنيسة البيزنطية ، الأمر الذى جعل صورتها مرضية فى عيون الغزاة .

والصلة التى تربط الكنائس اليعقوبية صلة قديمة العهد . فقد كانت هذه الصلة تتأكد عدة مرات فى المراحل الأخيرة من السيادة البيزنطية ، أى خلال القرن السابع . وربما كان الفتح الاسلامى قد ساعد على تدهور هـــذه العلاقة الى حد ما . ولكن حقيقة أن ارمينيا وجورجيا كانتا من عوامل الحركة السياسية فى آسيا الصغرى جعل الأمور تسير لصالحهما. فقد كانت أعداد الأرمن كبيرة فى مقاطعة انطاكية ، وكانوا يمثلون غالبية السكان فى مقاطعـــة الرها ، كذلك قامت مستعمرات أرمنيـــة صغيرة فى المملكة اللاتينية التى عاش فى جنباتها أيضا بعض الأرمن . وقد قربهم الى الصليبيين شهرتهم كمقاتلين لايشق لهم غبار . وفى منتصف القرن الثانى عشر فكر الملك الأرمنى توروس Thoros فى أن يرســـل ثـــلاثين الفا من الأرمن للاستيطان فى الأرض المقدسة لكى يجعل المدينة مسيحية من ناحية عدد سكانها أيضا .

أما البلاط الأرمنى ، الذى تبنى فى القـــرن الثالث عشر عادات الفرنسيين وتقاليدهم الى حد ما ، فقد كان خليطا يمزج الشرق بالغرب . وقد زار أحـــد الرهبان القادمين من جبـــل صهيون بالقدس بلاط أرمينيا الصغرى عند غروب شمس القـــرن الثالث عشر ، عندما كانت أرمينيا تابعة للمغول ، وقد ترك هـــذا الراهب الانطباع التالى عن زيارته للملك وللكاثوليكوس ، بطريرك أرمينيا ، اذ يقول :

« لقد عشت أســـابيع ثلاثة فى قصر ملك أرمينيا وكليكيا ، وكان هناك عـــدد قليل من المغـــول فى بلاطه . وكان بقية رجـــال البلاط من المسيحيين ويبلغ عددهم حوالى مائتين . وقد اعتدت على رؤيتهم وهم فى طريقهم الى الكنيســـة ، وهـــم يستمعون الى القداس ، وهـــم يركعون ويصلون فى خشوع . وبالاضافة الى هذا ، كان كل من يقابلنى أو يقابل صـــديقى كرمونا منهم يخلع قبعته ويحيينا فى احترام ، ويقفون عنـــد قدومنا » .

« ويسمى كبير اســاقفة الأرمن واهــل جورجيا بالكاثوليكوس (الجاثليق) ، وقد مكثت معه أربعة عشر يوما ، وكان معه الكثيرون من المطارنة والأساقفة ورؤساء الأديرة وغيرهم · وقد كان مثاليا فى طعامه وردائه وأسلوب حياته ، لدرجة أننى لم أر مثله أحــدا ، ســواء من يرتديها لم تكن تساوى خمسة شلنات استرلينية فى رأيى · ومع ذلك فقد العلمانيين أو رجال الدين · وأننى أعلن حقا أن جميع الملابس التى كان كان لديه عدد كبير من القلاع الحصينة ، وكان دخله كبيرا ، كمـا كان ثريا لدرجة تفوق التصــور · وكان يرتدى برنســا خشنا أحمر اللون مصنوعا من جلد الأغنام ، غاية فى القذارة ورثا الى ابعد الحدود ، باكمام واسعة ، وتحته قميص رمادى قديم ممزق ، وفوقه شال اســود وعباءة خشنة سوداء اللون نسجت من صوف الغنم »

« والكاثوليكوس وســائر الأســاقفة جميعا من الرهبان · وفى الشرق كله لا يمكن لأى أحــد فى اية امة أن يكون اســقفا الا اذا كان راهبا · ويحظى الرهبان جميعا بالاحترام والتبجيل البالغ · اما رجال الدين والكهنة فليست لهم سلطة ، كما انهم لايحظون باحترام العامة · وتقتصر واجباتهم على القيـام بالمراسيم الدينية ، وهم يحددون مواعيد الصلاة بالضرب على لوح من الخشب الســميك او اية قطعة اخرى من الخشب لأنهم لايمتلكون أجراسا · وعنـدما يتم اعلان موعد الصلاة فى الليل ، يتوجهون لأداء صلاة الصبح وهم ينادون الناس اثناء سيرهم فى الشـــوارع لكى يتوجهوا لأداء الصـــلاة · ويتميز الرهبان الأرمن والجورجيون عن العامة بثيابهم الكتانية البيضاء التى يلفونها حول رقابهم واكتافهم » ·

« ويتم اخصاء اللصوص الذين ارتكبوا حوادث السرقة الصغيرة وغيرهم من الأشرار الذين يرتكبون أصغر الجرائم ، وذلك حتى لا ينجبوا أبناء يقلدون فعال آبائهم الآثمة · وربما يكون هذا هو السبب فى وجود كثير

الغوانى على ما يبدو لى · لأن هناك عددا كبيرا من الخصيان ، وهم جميعا يخدمون السيدات من بنات طبقة النبلاء · واعتقد أن ملكة أرمينيا تملك اكثر من أربعين خصيا ، وقد زرت قصرها · ولا يزورها أحد الا باذن خاص من الملك الذى يعين له أحد الخصيان بالاسم حتى يدخل به الى الملكة · وهكذا جرت العادة مع كل السيدات النبيلات ، الأرامل منهن والمتزوجات » ·

واكبر كنيسة للأرمن فى الأرض المقدسة هى كاتدرائية سان جيمس فى الحى الأرمنى بالقدس · وقد اقيمت فى القرن السابع أو قبله ، ثم أعيد بناؤها ابان حكم الصليبيين فى حوالى منتصف القرن الثانى عشر · وظلت هذه الكنيسة تؤدى خدماتها للجماعة الأرمنية دونما انقطاع على مدى ثمانية قرون ، وحتى وقتنا الحالى · وفى الجزء الجنوبى من الكنيسة ممر ثلاثى مقنطر يؤدى الى ردهة حيث توجد بوابة جميلة فى فى شكل صليبى اسطورى تؤدى الى قاعة القداس ذات الصحون الثلاثة · وتتمثل الرموز التى تشير الى صلة الأرمن بكنيسة الرسل وبالمدينة المقدسة فى كرسى سان جيمس المذهب الموجود بالقرب من المذبح ، ورفاته المقدسة ، فضلا عن رأسه الموجودة فى احدى أبرشيات الشمال · وفى القرن الرابع عشر أعاد ملوك اسبانيا تزيين الكاتدرائية من الداخل تعبيرا عن اهتمامهم بالمقدس ، اذ كان جسد سان جيمس محلا للتقديس فى سانتياجو دى كومبو ستلا ·

واهل جورجيا هم جيران الأرمن فى جبال القوقاز ، وصلتهم بالأرض المقدسة ترجع الى عصور قديمة · ففى نهاية القرن الخامس تم بناء دير جورجانى فى الوادى المؤدى الى مدينة القدس ، ثم اعيد بناؤه على يد الامبراطور جوستنيان فى القرن السادس · وظل هذا الدير فى حوزة الجورجيين خلال العهد الاسلامى حاملا اسم دير الصليب · وتقول اسطورة قديمة أن الشجرة التى قطعت منها فروع

الصليب الحقيقى نمت فى موقع الدير · وربما تكون هذه الأسطورة قد قامت على أساس من القصـــة التى تقول أن الملكة زوجة داود الثانى David II The Restorer المتوفى سـنة ١١٢٥ قـــد أنشـــأت ديرا للراهبات لخـدمة السيدات الجورجيات فى مدينـة بيت المقدس وأرسلت الى المدينة المقدسـة قطعة من الصليب المقدس ، وأرسـل جزءا منه الى باريس برفقة راهب افرنجى يدعى أنسلم · وتم الاحتفاظ بهذه القطعة فى كاتدرائية نوتردام حتى عشية الثورة الفرنسية·وقد أهدى جزء مما تبقى ، بعد تحطيم الصور الدينيـة والتمـاثيل المقـدسة ، الى نابليون ، ثم الى شارل العاشر ملك فرنسا فيما بعد ، ولا تزال بقاياه موجودة حتى الآن فى كاتدرائية نوتردام · وعلى الرغم من ضياع هذا الدير فى الصحراء ، وكونه غير معروف خارج البلاد ، فان هذا الدير الجورجانى احرز مكانة خاصة فى قلوب أهل جورجيا البواسل · ففى بداية القرن الثالث عشر أرسلت الملكة تامارا المتوفية سنة ١٢١١ هدايا الى جمـاعة الجورجيين فى القـــدس مع رجـل يدعى شـــوتا روســتافلى Shota Rustaveli ظل فى الدير الى أن مات · وهناك نظم أعظم قصيدة قومية لجورجيا ، وهى قصيدة « الرجل الذى يرتدى جلد الفهد » · وجيلا بعد جيل كانت هذه القصيدة تدرس وتتلى فى قرى جورجيا ومدنهـــا · ومنذ سنوات قليلة مضت وافق الحظ بعثة علمية من جورجيا (جمهورية جورجيا السوفييتية حاليا) فتمكنت من الكشف عن رسومات ترجع فى تاريخها الى العصور الوسطى ، وتصور القديسين والحكام وشاعر جورجيا القومى ·

وكانت الكنيســة اليعقوبية احـدى الكنائس التى تؤمن بالطبيعة الواحـدة للمسيح ، وكان لها أتبـاع كثيرون فى كل المقاطعات الصليبية تقريبا · وقد سميت باليعقوبية نسبة الى مؤسسها يعقوب البراذعى · وعلى الرغم من أن هذه العقيدة لم تتبلور كعقيدة دولة أو جماعة قومية بعينهـا ، فان ذلك لم يمنع اتباعهـــا من أن يعتبروا انفسهم « امة » ·

وعددهم فى الشمال أكثر من عددهم فى الجنوب · وكان مقدسهم الكبير هو دير برسوم فى أرض المسلمين ، ومع ذلك فان بطريركهم كان يقيم فى أنطاكية ، وكانت علاقاته مع كنائس الطبيعة الواحدة علاقة ودية بشكل عام · وباعتبار اليعاقبة أشهر المناوئين للكنيسة البيزنطية فقد لقوا معاملة ودية الى حد ما من جانب الصليبيين ، مما مكنهم من الاحتفاظ بأديرتهم وكنائسهم فى المـــدن الرئيسية فى المملكة الصليبية · وكان دير مريم المجدلية الذى بنى فى نهاية القرن الحادى عشر بأيدى الأقباط المصريين هو نقطة ارتكازهم فى الأرض المقدسة ·

ومن بين الطوائف المسيحية الكثيرة التى وجدت فى الأرض المقدسة تحت الحكم الصليبى ، لم تكن هناك طائفة أقرب الى الحكام من الطائفة المارونية فقد كانت هذه الطائفة أشبه بقطعة من التاريخ ترسبت فى وديان لبنان وجباله ، وكان أفرادها يعتنقون احدى العقائد الكثيرة التى مزقت الكنيسة فى القرن السابع ، وقد أدانت الكنيسة هذه العقيدة باعتبارها عقيدة توحيدية ، اذ كان المنشقون يعتقدون فى مشيئة واحــدة للمسيح وهى المشيئة الالهية ، وقد وجد أتباعها لأنفسهم ملجأ فى خلوات لبنـــان بعيدا عن القسطنطينية · وقد تبنت هذه العقيدة جماعة قومية فى لبنان ، مثلما حدث مع كثير من المذاهب الأخرى · وبعد الفتح الاسلامى وفصل لبنان عن بيزنطة صارت هذه العقيدة هى عقيدة الفلاحين المسيحيين فى أرض فينيقيا القديمـــة · وفى ســنة ١١٨٤ تقبل المسيحيون اللبنانيون الخضوع لسيادة كرسى الأسقفية الرومانية · وكانت تلك حادثة هائلة فى تاريخ لبنان ان لم تكن فى التاريخ الكنسى بأسره · وعلى الرغم من فترات التباعد بين مسيحيى لبنان والغرب ، فقد ظل المسيحيون فى لبنان على اتصالهم بروما ، ومن ثم كانوا أكثر تعرضا للمؤثرات الأوربية من أية طائفة مسيحية أخرى فى الشرق وهو موقف لايزال قائما فى العصر الحاضر ·

لقد خضعت الأرض المقدسة لسيطرة كل من روما الوثنية وبيزنطة المسيحية والعرب المسـلمين ، وفى كل عصر كان السـكان الأصليون يعتنقون ديانة السلطة الحاكمة ، بيد أن جهود التحويل لم تؤت ثمارها مع السـكان جميعا · فمع أن الوثنية اختفت تماما ، فقد ظلت المسيحية واليهودية كجزر منعزلة فى بحر الاسلام ·

ومن المستحيل معرفة عدد السكان اليهود فى الأرض المقدسة ابان العصر الصليبى ، وقد كان بعضهم ورثة مباشرين للسكان الأصليين ، كما أنه من المستحيل معرفة عدد السكان اليهود الجـدد فى المنطقة · وبشكل عام يبدو أن المجتمعات اليهودية الصغيرة فى الجليل ربما يرجعون بجذورهم الى عصر الهيكل الثانى الذى انتهى بتدمير الهيكل على يـد تيتوس سنة ٧١ ميلادية ·

وكانت لليهودية طوائفها ، شأنها فى ذلك شأن الاسلام والمسيحية · فقد كان السامرة يتركزون حـول نابلس ، ولم يهجروا أبدا جبل جزريم الذى يقدسونه كما كانت ذبيحة عيد الفصح السنوى ، ولا تزال ، رمـزا عندهم لبقائهم واستمرارهم · وفى القرن الثامن رفضت طائفة القرائين التى أسسها داود بن‌عانان قوانين المشنا والتلمود ، ولم تؤمن سوى بالكتب المقدسة · وقد انتشرت هذه البدعة فى الشرق ، وسرعان ما أخذ القراءون والربانون فى تبادل الرسائل العنيفة دفاعا عن عقيدة كل منهما ·

ولم يكن أمل الخلاص والعودة قاصرا على الربانين فحسب ، فقد حدث فى القرن العاشر أن توجه أحد علماء القرائين بدعوة لمجتمعات القرائين يقول فيها :

« أيها الأخوة · لقد دمرت القدس وصارت مدينة سـوداء منفية مهجورة وأنتم مستريحون تضطجعون فى أسرتكم ، وهى سكرى ، ليس

من [illegible] التحقير والتهميش [illegible] الأمر [illegible] إلى أبنائها [illegible] اليتامى [illegible] يرتدون الخرق [illegible] الذين [illegible] جلودهم على [illegible] ويتركوا أعمالهم وأسرهم وأوطانهم [illegible] القبر الجبال [illegible] والتبتل متمسكين بتلابيب الرب الذى يحرسون بوابته ويتضرعون إليه [illegible] الرهبان ويبكون.

فلتعلموا أيها الأخوة أن القدس اليوم ملجأ لكل إنسان لا يجد [illegible] ومأوى لجميع الحزانى، وملاذا للفقير والمسكين، يجتمع فيها عبيد الرب، واحد من مدينة واثنان من أسرة، على حين تبكى النسوة وتنوح باللغة المقدسة (العبرية) وبلغة فارس، وبلغة اسماعيل (اللغة العربية)».

وقد عانى الجميع، ربانية وقرائين وسامرة، ابان الحكم الصليبى، اذ أن أنباء اقتراب قوات الحملة الصليبية سبقت وصول الجيوش نفسها، وقد تركت هذه الأنباء التى رويت عن المذابح اليهودية فى أوربا أسوأ الأثر فى النفوس. وخشيت جماعات كثيرة فى الشرق أن يحدث لها ما هو أكثر سوءا مما حدث لإخوانهم فى الغرب. وحين حانت ساعة القتال انضم اليهود الربانيون والقراءون والسامرة الى قوات المسلمين لكى يدافعوا عن مدنهم. وقد دفعوا ثمنا غاليا فى القدس وحيفا فى سبيل صد الغزاة(٤). واختفى القراءون تماما ربما لأنهم كانوا

(٤) من الواضح أن المؤلف هنا يحاول اختلاق دور لليهود إبان الحروب الصليبية، وهى محاولة لا تجد لها سندا من الواقع أو التاريخ. ويكفى أن نشير إلى أن النظرية السياسية الإسلامية تمنح الجماعات الذمية من أهل الكتاب حق العيش فى ديار الإسلام، وحرية العقيدة [illegible]

(م - عالم الصليبيين)

يتمركزون فيها الدين . أما اليهود الذين كانوا يعيشون فى قرى الجليل ، والسامريون الذين كانوا يسكنون نابلس ، فقد نجوا من الغزو دون أن يمسهم أذى ، ولم تتعرض اليهودية للانقراض فى موطنها التاريخى ، بل إنها بدأت تزدهر بالفعل . وقد عامل الصليبيون اليهود ، معاملتهم لكل ما هو غير فرنجى ، أى أنهم إعتبروهم مواطنين من الدرجة الثانية ، وتركوهم يمارسون حياتهم وشعائرهم كما تعودوا . هذه النظرة خلقت مناخا مناسبا . فضلا عن أن امكانية الاتصال بأوربا على نحو متطور ساهم فى اعادة بناء الجماعات اليهودية . وفى القرن الثالث عشر تم احياء الحياة اليهودية فى الارض المقدسة بدرجة كبيرة .

كان التصرف الرسمى الوحيد ضد اليهود هو منعهم من سكنى بيت المقدس . ومع ذلك فان اليهود استوطنوها وعملوا كصباغين فى ظل الحكم الصليبى . وكان فتح صلاح الدين للمدينة سنة ١١٨٧ نقطة التحول فى تاريخ اليهود ، فقد طلب صلاح الدين من اليهود العودة الى المدينة المقدسة . وبعد سنوات قليلة كتب الشاعر اليهودى الاسبانى يهوذا الحريزى ، الذى زار القدس آنذاك ، يقول :

وهكذا أمر (صلاح الدين) أن ينادى فى كل مدينة ، للعظيم والبسيط من الناس على حد سواء : أتى المتحدث من قلب القدس والقول

والعمل والتنظيم الاجتماعى فى مقابل الجزية التى هى فى الواقع ضريبة دفاع يدفعها الذميون لقاء توطينهم فى دار الاسلام والدفاع عنهم . وهو ما يعنى أن العمل العسكرى ظل وقفا على المسلمين وربما يكون أفراد من اليهود قد اشتركوا فى القتال ، كما حدث من قبل بعض المسيحيين ، ولكن ذلك الموقف يظل موقفا فرديا لايعبر عن حقيقة تاريخية عامة .
عن هذا الموضوع انظر . د. قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، دار المعارف ١٩٧٧ .

ان أى انسان من نسل افرايم يرغب فى الاستيطان فى المدينة فله مطلق الحـــرية فى ذلك » • وسرعان ما تحولت الهجرة اليهودية الى القدس والارض المقدسة الى حركة عامة • وفى القرن الثالث عشر ترك مشاهير اليهـــود مثـــل يهييـــل Yehiel الباريسى ، وفهمنديا Nahmanides الاسبانى مواطنهم الأصلية لكى يستقروا فى الأراضى المقدسة • وازدهر المجتمع اليهودى فى القدس مرة ثانية ، مع أن التمركز الأكبر لليهود كان فى المدن الساحلية مثل صور وعكا • ومع ختام القرن الثالث عشر ، وعندما اقتربت المملكة الصليبية من نهايتها • تنبأ أحد تلاميذ نهمنديا بقرب قدوم المسيح المخلص •

الفصل ٩

المثال والواقع

كشفت نشأة المملكة اللاتينية في بيت المقدس، وتكوين المستعمرات الفرنجية جنوبا وشمالا في الأرض المقدسة من كيليكيا إلى البحر الأحمر، وكشفت الغزوات الصليبية اللاحقة على الأراضي الإسلامية عن أن الغرب قد تمكن لكي يستقر تحت سماء الشرق. ومع العقد الثاني من القرن الثاني عشر كانت المستوطنات الصليبية أمرا واقعا، بيد أن شكل هذه المستوطنات لم يكن قد تحدد بعد، كما أن استمرارها في البقاء كان أمرا غير مضمون. ومع نهاية الحملة الصليبية الأولى بدأ قادتها رحلة العودة إلى أوطانهم وصحبوا معهم الجزء الأكبر من أولئك الذين نجوا من مخاطر المعارك الفتاكة. وبدأت المستعمرات الحديثة النشأة في تكوين مؤسساتها السياسية وهيئاتها الاجتماعية، على حين تم توجيه النظام الاقتصادي لخدمة حاجات المجتمع الجديد.

وخلال حصار القدس بدأت المثل والتوقعات صدامها بالواقع، فقد بدأت المجادلات حول ما ينبغي عمله بعد الفتح الوشيك الحدوث بين طنين آلات الحصار وهدم الأسوار، وأصوات الأحجار الطائرة في ظل أسوار المدينة المحاصرة. وقد ثار الجدل حول إذا ما كان ينبغي اختيار بطريرك للمدينة قبل انتخاب حاكم علماني لها على اعتبار أن للقيم الروحية الأسبقية على الاعتبارات الدنيوية؟ أم هل يجب عدم انتخاب أحد، طالما أن غزو المدينة سوف يبعث، بالتأكيد، مملكة المسيح ويعجل بنزول أورشليم السماء على وادي الدموع هذا؟ وتقرر تأجيل البت في هذا الموضوع، ولكن بمجرد أن تم الاستيلاء على المدينة، وبعد احتفال

الجيش المنتصر بالقداس فى كنيسة القيامة ، كان لابد من الوصول الى حل المشكلة . وكان القرار بانتخاب جودفرى البولونى كمدافع عن المدينة وحام للقبر المقدس . ولم يكن بهذا ملكا ، كما ان حكمه ولقبه لم يكونا دائمين . وكان هذا هو التوفيق بين الآراء والآمال المتصارعة المتضاربة . فضلا عن ان الانتخاب ذاته كان بمثابة حجر الرحى فى ايديولوجية الحركة الصليبية . بيد ان هذه المثل الصليبية حين اصطدمت بالواقع بحقائقه شابتها بعض الأضرار . فعلى الرغم من الاشعاع المسيحانى الذى رافق ميلاد المملكة ، فقد تحددت ابعاد مستقبلها كدولة علمانية مثل اية دولة اخرى . وقد ادى الاعتراف بهذه الحقيقة بدوره الى تلاشى الاشعاع المسيحانى للحركة الصليبية . لقد قدر للقدس ان تظل اورشليم الأرض ، ولم تكن صهيون يعنى شيئا اكثر من مجرد تل فى جبال منطقة يهودا .

وفى اطار الوجود الأوربى على تراب الشرق ، ظهرت الى الوجود اربعة كيانات سياسية ، فقد كانت امارة الرها هى دولة الصليبيين فى اقصى الشمال فيما بين أعالى نهر دجلة والفرات ، وكانت اكثر مؤسسات الصليبيين غرابة ، فقد كان المسيحيون الشرقيون الذين يقطنون الرها متمسكين بهويتهم على الرغم من عزلتهم عن الامبراطورية البيزنطية وعن موجات الغزاة المتعاقبة من التركمان والأتراك ، فضلا عن الأرمن واليعاقبة الذين كانوا يشكلون غالبية السكان ، كما كان هناك ايضا السوريان والنساطرة وغيرهم من الجماعات المسيحية الصغيرة . وكان يحكم هذا الوجود المكثف لطوائف المسيحيين وطوائفهم بلدوين اخو جودفرى الذى أسس اسرة حاكمة على أرض العراق . فقد كان على امارة الرها ، وهى المقاطعة المسيحية الشرقية التى كان يحكمها الغرب اللاتينى وبها قطاعات من السكان المسلمين فى المدن وفى الريف ، ان تواجه المركزين الاسلاميين الكبيرين فى الموصل وبغداد باعتبارها حصن الصليبيين فى الشمال الشرقى .

والى الغرب كانت تقع انطاكية ، وحدودها فى الغرب على الشاطئ السورى وميناءى سان سيمون (انطاكية) واللاذقية . وفى الشمال تحدها المقاطعات الأرمنية فى جبال طوروس ... أما فى الشرق ، فكانت انطاكية تواجه المدن الاسلامية الكبرى حلب وحمص وحماة . وفى قمة توسعها بلغت الامارة أبواب هذه العواصم الاسلامية . وكان حكام حلب يجدون أنفسهم مضطرين بين الحين والحين الى دفع اتاوة لحكام انطاكية لكى يسمحوا لهم أن يستخدموا الطواحين التى تقع خارج أبواب العاصمة مباشرة . وقد حاول الصليبيون أن يحتفظوا برؤوس جسور عبر نهر العاصى ، ولكنهم كانوا يعتمدون اساسا على الاستحكامات الواقعة على شاطىء النهر . ولم تستطع امارة انطاكية أن تسيطر على أراض واسعة . ومن الناحية العملية كان نهر العاصى هو الحد الطبيعى الذى يفصل بين انطاكية وجيرانها المسلمين .

ومن المستحيل معرفة ما اذا كان غالبية السكان من المسلمين أم من المسيحيين . ولكن يفترض أن المسيحيين الشرقيين كانوا يمثلون غالبية السكان . وكان مسيحيو انطاكية يدينون بثلاثة مذاهب دينية رئيسية هي : الكنيسة البيزنطية ، والكنيسة السورية التى كانت يونانية في أدبها الكنسى ومذهبها ، على حين كان اتباعها يتحدثون اللغة العربية ، ثم الكنيسة المونوفيزيتية اليعقوبية التي كان تستخدم أدبا كنسيا سريانيا ، وتستخدم اللغة العربية فى الحياة اليومية . وكان بعض السكان المسلمون من العرب والأتراك وكان معظمهم ورثة السوريين الهللينيين الذين اعتنقوا الاسلام ، وكانوا يقطنون المدن أيضا ، ولكن المسلمين كانوا يسكنون الريف أساسا . وقد أضاف الصليبيون أنفسهم الى هذا المزيج القومى والدينى . وعندما أصبح بوهيموند أول حاكم لأنطاكية نال الاعتراف بكونها من أملاك النورمان الذين يحكمون جنوب ايطاليا وصقلية . وكان طبيعيا اثناء موجات الهجرة الأوربية اللاحقة

التي استولى عليها النورمان في جنوب ايطاليا وجزيرة صقلية ، وايضا النورمان في مقاطعة ... وانجلترا ، المقاطعة التي تحكمها اسرتهم المليكية الأصلية ولم يكن النورمان هم العنصر الوحيد في انطاكية لكن الترك ... انهم كانوا يشكلون غالبية السكان الأوربيين .

أما مقاطعة طرابلس اللبنانية ، التي كانت أصغر المستوطنات الصليبية ، فكانت تسمى حسب اسم المدينة العاصمة ، وكانت تتمتع بحدود آمنة مشتركة مع امارتين صليبيتين هما انطاكية في الشمال والقدس في الجنوب ، اذ كانت طرابلس تقع بين البحر في الغرب وسلاسل لبنان الجبلية في الشرق ، وكان أغلب سكانها من المسلمين كما كان جميع السكان الأصليين يتكلمون العربية ، وكانت الطوائف المسيحية الشرقية ، ولا سيما اليعاقبة يشكلون جزءا هاما من سكان الولاية . كما كان الموارنة يمثلون الجماعة الدينية المتميزة ، ذلك أن أولئك الفلاحين الذين اشتهروا بمهارتهم الفائقة في استخدام القوس والسهم ، ظلوا يحافظون على عقيدة آبائهم ونظامهم الاجتماعي ، وكان البروفنساليون هم الذين يحكمون مقاطعة طرابلس ، فقد أسس ريموند الصانجيلي كونت تولوز ، وماركيز البروفانس ، أسرة حاكمة في لبنان وبهذا أصبحت لبنان تنتمي من حيث اللغة والعادات ، الى جنوب فرنسا وملجأ لأولئك القادمين من جبال البرينيس حتى حوض الرون الأدنى وقطالونيا ، واستقروا في الشرق الأدنى المسيحي .

وكانت مملكة القدس هي الكيان السياسي الرابع ، فقد كان لهيبة العاصمة المهيب يضفي على حاكمها لقب ملك ، كما كان يمنحه نوعا من الأفضلية والامتياز على بقية الكيانات الصليبية . وكان آل بوايون Bouillon في حوض اللورين الأدنى يحكمون المملكة الى أن تزوج فولك Fulk كونت انجو وريثة المملكة الملكة ميليساندي وأسس أسرة انجوفين Angevine الحاكمة وأصبح حاكم المملكة الأول

جودفري البويوني لقب المدافع عن القبر المقدس ، ولكن أخاه وخليفته بلدوين الأول توج ملكا للقدس فى كنيسة الميلاد فى بيت لحم ، مما ضمن حقه فى ميراث الملك داود . وفى جراة اطلق بلدوين على نفسه لقب « ملك آسيا ومصر » ، وهو لقب يدل على رغبة خبيئة . وهى رغبة كادت أن تتحقق على يد أحد خلفائه وهو الملك أماوريك . وعلى الرغم من أن ملوك بيت المقدس الصليبيين لم يصيروا حكاما على آسيا وأفريقيا مطلقا ، فان مملكتهم هى التى أحرزت أكبر قدر من التوسع بين الكيانات السياسية الغربية على أرض الشرق .

وجنوب الحد الشمالى حيث تقع امارة طرابلس كانت المملكة تمتد بطول الساحل الفينيقى والسورى حتى الصحراء التى تفصل الأرض المقدسة عن مصر . وكانت مدنها الساحلية عنوانا على مجد التاريخ القديم والكلاسيكى ، فهناك كانت بيروت وصيدا وصور وعكا وابولونيا (ارسوف) وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة . وقد تطورت بعض المدن وازدهرت لكونها أسواقا رئيسية للتجارة الدولية . وفى داخلية البلاد كانت حدود المملكة تمتد فوق جبال لبنان حتى المياه الرئيسية فى الأردن وكانت [illegible] خطوط الحدود الشرقية الشمالية فوق مرتفعات الجولان . ومن هنا تمتد الحدود حوالى ثلاثمائة ميل باتجاه الجنوب حتى العقبة على البحر الأحمر ، ويدخل فى نطاقها اقليم شرق الأردن (جلعاد وعمون ومؤاب القديمة) على الطرف الشرقى .

وتقتضى المملكة شكل درع مستدير فى قاعدة مدببة كالأسفين المحشور بين مركزى القوة الاسلامية فى دمشق العاصمة السورية الكبيرة التى كان يحكمها الأتراك السلاجقة والتابعة للخلافة السنية فى بغداد ، وفى القاهرة العاصمة الفاطمية للخلافة الشيعية فى مصر . [illegible] الحقيقة وصل الصليبيون الى [illegible] [illegible] جيوشهم [illegible] تلك [illegible] الخيل [illegible] ولكن [illegible] المملكة

استقرت بشكل نهائى فى الشرق والجنوب على طول حدود صحراء سوريا وشرق الأردن والنقب وسيناء ، وكانت هذه حدودا طبيعية للمملكة ٠

وكان سكان مملكة بيت المقدس اكثر تنوعا من سكان المقاطعات الصليبية في الشمال ٠ فقد احتفظت الأماكن المقدسة وتأثيرات المؤسسات الدينية بمقاطعات مسيحية يهودية سامرية يحيط بها السكان المسلمون ٠ ففى اماكن مثل القدس وبيت لحم والناصرة ، وجبل تبور زاد عدد السكان المسيحيين ، وربما كانت لهم السيطرة ايضا على غيرهم من عناصر السكان ٠ وينطبق هذا القول نفسه على بعض المناطق الزراعية حول القدس وفى الجليل ٠ كما كانت هناك مستوطنات يهودية متناثرة فى منطقة الجليل الزراعية ، كما وجدت جماعات يهودية منظمة فى جميع المدن الرئيسية فى فلسطين وسوريا ٠ وكان الاقليم قد صار اسلاميا بعد اربعة قرون من الحكم الاسلامى ، وحتى مع عدم السيادة الكاملة للدين كانت اللغة العربية هى اللغة المشتركة للسكان بغض النظر عن دياناتهم ٠ وقد فشلت محاولة تمت قبل ذلك لكتابة اللغة اليونانية بحروف عربية ، ولكن العربية ظلت تكتب بحروف عبرية على مدى آلاف السنين على أيدى اليهود الشرقيين ٠

وفى القدس ، حيث الكيان الصليبى الذى قام فى أقصى الجنوب ، تنوع التركيب الاثنولوجى للعناصر الغربية عنه فى الشمال ٠ فقد كان لجاذبية الأماكن المقدسة الفضل فى توازن الميل الطبيعى للاستقرار بين أبناء الوطن ٠ وقد قدمت الأسرة الحاكمة ونواة السكان الأوربيين من شمال شرق ووسط فرنسا ٠ ولكن موجات الهجرة اللاحقة قدمت بالبروفنساليين والأنجيين ٠ وكانت شوارع القدس فى القرن الثانى عشر أو عكا فى القرن الثالث عشر عالما مصغر الأشكال والألوان لأوربا المعاصرة والشرق الأدنى المعاصر ٠ فقد احتك الفرنسيون ، وهم العنصر

الغالب ، بأبناء الجماعات القومية واللغوية الأخرى الذين كان يحيون فى أحياء أو شوارع خاصة بهم · ولم تكن فى الغالب أكثر من عدة منازل تجمعت حول كنيسة مكرسة لقديس مشهور بين أهل الوطن · وهكذا بين كل من الاسبان والبروفنساليين والايطاليين والألمان والمجريين والبريطانيين مكانا لأنفسهم ·

وفى الوقت الذى كانت فيه الأغلبية العظمى فى مدينة مثل القدس ، بمؤسساتها الكنسية المتعددة ، من الغرب ، استقر عدد كبير من السكان الأصليين الذين جذبتهم المطامع الاقتصادية الى المدن الساحلية بعد الغزو الصليبى · ذلك أن المسلمين الذين هربوا أو طردوا أثناء حوادث الغزو ، عادوا ليستقروا فى كل مدن المملكة تقريبا باستثناء القدس · وحيثما كان المسلمون أقل ظهورا ، كان يوجد المسيحيون الشرقيون المتحدثون باللغة العربية ، والذين كانوا يرتدون الثياب العربية نفسها ونفس غطاء الرأس · اذ كان للأرمن الذين يؤمنون بالطبيعة الواحدة للمسيح أحياؤهم الخاصة ، كما احتفظ الجورجيون واليعاقبة والأقباط والأثيوبيون بكنائسهم الخاصة· وتقابل البيزنطيون والسوريون مع الموارنة والنساطرة · كما وجد أيضا الدروز والبدو الذين كانوا يفدون الى الأسواق والمراكز التجارية لكى يقايضوا بمنتجاتهم الزراعية ، أو يعرضوا خدماتهم · وفيما عدا الجيوب السكانية المسيحية كان الريف مسلما ، وخاصة فى أقاليم يهوذا والسامرة والجليل التى كانت أقل جاذبية بالنسبة للغربيين من المدن الساحلية وحصونها ·

وقد اختفت المثل والتوقعات المسيحانية · ومع ذلك كان لايزال هناك أمل فى تدخل السماء · ولكن كل يوم يمر كان يفرض على الأقلية الصغيرة المنتصرة أن تخوض صراعا جديدا فى سبيل البقاء · وكان لابد من اليقظة المستمرة ، والحذر من الهجوم الخارجى ، أو الثورة والتخريب فى الداخل · ولم يكن ثمة مجال للاختيار فى بداية الأمر ، فقد نظمت الدولة

[illegible] الملكية والأمراء على الطبقة
العسكريين وعلى [illegible] الذين يخوضون المعارك
أيضا [illegible] ويصنعون السلام ، وبعد هذا
[illegible] من أوضح [illegible] العسكري الصليبي
الموجه لخدمة اغراض الحرب ٠

وكان بوسع مملكة بيت المقدس أن تخوض الحرب بما يقرب من ستمائة فارس وعشرة أضعاف هذا العدد من المشاة ٠ كما كانت انطاكية وطرابلس تستطيعان تجهيز العدد نفسه ٠ وقد يبدو اليوم أن ألفا ومائتي فارس قوة ضعيفة ، ولكن في العصور الوسطى كان للفارس المدرع نفس التأثير الذي تحدثه الدبابة الحديثة في ميدان القتال ٠ فقد وصل تنكرد ، مثلا ، إلى دمشق بثمانين فارسا ، كما أن الملك اماليريك غزا مصر ومعه حوالي ثلاثمائة فارس فقط ٠ وفي أوربا أيضا تم خوض المعارك الرئيسية انذاك بأعداد مماثلة أو حتى بفرق أصغر من ذلك ٠ فضلا عن أن القوات التابعة للرهبنات العسكرية كانت تخضع لأوامر المملكة ٠ وقد كانت هذه النظم الرهبانية العسكرية قادرة على تنشئة جيش يضارع جيش المملكة نفسها من حيث القوة ٠ وبطبيعة الحال ، كانت تصل آلاف الفرسان الأوربيين إبان الحروب الصليبية الى شواطىء الشرق المسيحي ، مما زاد من القوة البشرية العسكرية المتاحة ٠ وقد كانت الجيوش الصليبية لاتقهر في المعارك التى أخذت أهبتها لها ، والحقيقة انها نادرا ماهزمت في هذه المعارك ٠ ولكن الهزيمة ذاتها لها معنى عند الصليبيين يختلف عن معناها عند أعدائهم ٠ فقد كان لدى الأعداء احتياطي لا ينفد من القوة البشرية ، وبالنسبة لهم لم تكن الهزيمة تعني أكثر من [illegible] معركة [illegible] بعيدة عن متناول الجيوش الصليبية في حلب أو دمشق أو القاهرة ، أما بالنسبة للصليبيين الذين كانوا يحشدون كل قواتهم البشرية تقريبا في [illegible] الهجوم الرئيسية ، فقد كانت

الهزيمة الواحدة ربما تعنى خسارة المعركة أو الحرب بل حتى ضياع المملكة نفسها ، وهذا ما حدث بالضبط فى حطين فى يوليو ١١٨٧ . لقد كانت معركة حطين عندما كان يعنى الهزيمة فقدان المملكة [illegible] فقد كان نجاح الغزو أو الاحتلال أو الدفاع يعتمد بشكل أساسى على موضوع القوة البشرية الهام [illegible] غير [illegible] القسم الأكبر [illegible] الصليبيين [illegible] فى الأراضى [illegible] الكيانات اللاتينية فى الشرق [illegible] الحملة الصليبية الأولى [illegible] الأراضى المقدسة إلى أرض الوطن ، كان [illegible] الذين لم يرحلوا ، ومنهم أمثال جودفرى بوايون وبوهيمند ، وريموند السانجيلى ، وبلدوين ، وتنكرد ينتظرون قدوم حملة صليبية جديدة ، وحدوث هجرة جماعية من أوربا لتقديم القـــوة البشرية اللازمة لاستكمال غزو الشرق الأدنى . فقد كان لجاذبية الأرض المقدسة ، والتصور العظيم لقيام دولة دينية فى مهد دينها وإغراء الشرق الغامض أثره فى اقتناع أولئك الذين بقـــوا فى الأرض المقدســـة بأن الغرب لن يتخلى عنهم ، بيد أن توقعاتهم قد خابت ، وذلك لأن حملة صليبية جرت ســـنة ١١٠١ كان مصيرها الضياع بين الرمال فى آسيا الصغرى . وعلى الرغم من أن جيوش الحملتين الثانية والثالثة حاولت عبور آسية الصغرى مرة ثانية ، فإن هذه المحاولات انتهت إلى كارثة وكرب عظيم . وفى القرن الثانى عشر كانت الاتصالات البعيدة تتم عن طـــريق البحر ، أما نقل الأعداد الضخمة فيتطلب الطرق البرية . وكان اقتصار الصليبيين على استخدام الطرق البحرية أمـــرا خطيرا ، إذ إنه حد من إمكانية الهجرة الجمـــاعية لأن امكانيات النقل البحرى فى القرن الثانى عشر لم تكن لتحل محل النقل البرى فى أفضل أحوالها [illegible]

وكانت [illegible] صعوبات فنية كثيرة تعـــوق نمو الموارد البشرية للمملكة [illegible] الحملة الصليبية الأولى والهبـــة البشرية التى [illegible] لم تكن استجابات أوربا لتوســـلات المملكة كافيـــة للوفاء

باحتياجاتها . وبدلا من طوفان المستوطنين الجدد الذى كان متوقعا لم ترحل الى الشرق سوى جماعات هزيلة · ولم يأت بالآف الناس الى الشرق مـرة أخـرى سوى تلك الحمـلات الصليبية التى اعقبت الكوارث مثل سقوط الرها سنة ١١٤٦ ، وسقوط بيت المقدس سنة ١١٨٧ · ولكن لم يبق بالأرض المقدسـة سوى جزء صغير للغاية من الحشـود التى اشتركت فى الحمـلات الصليبية الكبيرة · فبمجرد أن كان الصليبيون الجدد يبرون بالقسـم الذى قطعوه على انفسهم كانوا يتركون المملكة الى بلادهم الأوربية · وبعد احتلال بيت المقدس بستة شـهور فى سنة ١٠٩٩ لم يكن الصليبيون يشكلون أكثر من احـد احيـاء العاصـمة · وربما كانت النتائج الملموسة لاستمرار الهجرة اكثر وضوحا خـلال فترات السـلم النسبى التى كانت تسود فيما بين الحمـلات الصليبية الكبرى وليس ابانها · فبعد أربعة أجيال ، واثناء معركة حطين سنة ١١٨٧ كان يعيش فى مملكة بيت المقدس حوالى مائة وعشرين الفا من الصليبيين ، وكان هنـاك عـدد مماثل يعيش فى الامارات الصليبية الشمالية · وقد بلغ العدد الكلى للصليبيين فى الشرق حوالى ربع مليون نسمة ، ونظرا لأن فترة العصور الوسطى القصيرة بالفعل ، كانت اكثر قصرا فى الشرق نتيجة للمناخ والطعام وعدم التكيف ، وحالة الحرب والحصار الدائمـة ، فان موجات الهجرة لم تكن كافيـة لأن تجعل من المستوطنات الصليبية كيانات سياسية حية ·

كانت نسبة الصليبيين داخل حدودهم بالقياس الى عدد اعدائهم واحدا الى خمسة تقريبا وبينما يبرهن هذا التقييم الأحصائى على أن الصليبيين فشلوا فى الاستعمار الاستيطانى فان هذا التقييم الاحصائى نفسه يبدو اكثر اهميـة عند النظر اليه من خـلال الاطـار الجغرافى السياسى للشـرق الأدنى ، حيث لم يكن ربع المليون أوربى يواجهون السكان المسلمين داخل مناطق سيادتهم فحسب ، وانما كانوا يواجهون

ملايين المسلمين من النيل الى بلاد النهرين · ومن حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا عاجزين عن تعبئة مواردهم لمدى أكثر من مائة وخمسين عاما · ذلك أن رابطة الدين المشترك واللغـــة والثقافة المشتركة لم تكن لتحول دون مسيرة التاريخ وخوض التجربة · ذلك أن محاولات توحيد القوى الاسلامية ، مثل محاولة صلاح الدين على سبيل المثال ، لم تكن تعمر طويلا بعد وفاة صاحبها · ولم يقدر على خلق دولة موحدة سوى دكتاتورية القائد المملوكي بيبرس العسكرية في منتصف القرن الثالث عشر ، وذلك من خلال فرض الوحدة الصارمة ، ودنما رحمة ·

ونظرا للتفوق العددى للمسلمين ، كان على الصليبيين أن يظلوا اقلية فى حالة حـــرب مستديمة · فقد أملى عليهم المنطق والحـــذر أن يتمركزوا فى مواقع قليلة محصنة · وصارت هـــذه هى الصفة المميزة للملكة الصليبية · وبينما كانوا فى بلادهم ، سيدا وخادما ، يعيشون فى الريف على الدوام اضطر اللاتين فى الشرق الى ان يعيشوا فى مدن وقلاع حصينة دونما استثناء · أما الاستيطان الصليبى بالريف فقد اتخذ شكل بيوت الضياع الحصينة التى تناثرت هنا وهناك ، ولكن بالقرب من القلاع أو المدن المحصنة · ولكن القرى التى سكنها المهاجرون الغربيون كانت نادرة · كما أنها على اية حال لم تكن تخلو من وجود برج دفاعى الا اذا كانت واقعة فى ظل احدى القلاع ·

ومن هذه المراكز الحصينة ، التى كانت مدنا فى العـــادة ، كان الصليبيون يحكمون البـــلاد · ولكى يكون وجـــودهم محسوسا وسيادتهم فعالة ، فانهم رصعوا جميع الطرق الرئيسية والممرات بالحصون الصغيرة والممرات التى كانت تشبه نقاط المراقبة أو نقاط الشرطة · وصارت شبكة التحصينات الواسعة التى لم تشهدها المنطقة من قبل هى الشبكة الحاكمة للمملـــكة ، فطالما كانت القـــلاع والحصون والاســـتحكامات مصونة ظل الصليبيون يحكمون الأرض المقدسة · بيد أنهم كانوا يحكمونها فقط طالما كانت حاميات قلاعها وحراسها ودوريات الطرق قادرة على حفظ الأمن ،

[illegible] علامات [illegible] المملكة [illegible] الجليل [illegible] لنشاطهم [illegible] الدولة والمجتمع [illegible] لاتباعهم عادة ، لكى يضمنوا لهم [illegible]

ارتبطت بالأسر المحلية الحاكمة • وكانت هذه اقطاعات غير عادية لأن مركزها كان المدينة وليس القلعة • وهنا عدل الاقطاع الغربى نفسه وفقا للتراث الحضرى العريق فى الشرق ، حيث صارت المدينة هى المركز المالى والتشريعى والادارى للدولة الصليبية ، وكان على سيد المدينة أن يضمن وجود عدد من الفرسان المدرعين والمشاة لخدمة البيت الملكى • وكانت حراسة القلاع والحفاظ على التحصينات فى الضياع جزءا من واجبات الحاكم العسكرية •

وما أن تم التخلص من تأثير الايديولوجية الصليبية القديمة وآمالها المسيحانية ، واعتمادها على الحكومة الكنسية ، حتى سارت عملية تنظيم الأرض المفتوحة على الطريق الذى سار عليه الاقطاع الأوربى • ومن اللافت للنظر أنه على الرغم من الاقتصاد المالى المتطور الذى جعل من الممكن خلق ملكية بيروقراطية يديرها موظفون رسميون ذوو رواتب ثابتة ، وجيش يتقاضى أفراده أجورهم ، فان الصليبيين نظموا دولتهم وفقا للتقاليد التى جلبوها معهم من أوربا • وبعد جيل من المعاناة والشكوك ، كانت نتيجة تنظيم الحكومة على أسس اقطاعية أن انقسم الاقليم الى عدد من اقطاعات الأمراء والضياع التى تدين بالولاء لتاج بيت المقدس • ومع ذلك فان الخريطة الاقطاعية الجديدة لم تؤد مباشرة الى حدوث أى ضعف ملحوظ للسلطة المركزية • فقد كان الاعتماد على الحاكم ومكانته كقائد أعلى للجيوش كبيرا لدرجة كبحت جماح الاتجاهات المتباعدة عن مركز الحكم الرئيسى ، وهى اتجاهات متوارثة فى النظام الاقطاعى •

لقد كان السادة الصليبيون الاقطاعيون والبارونات الصليبيون الأوائل اكثر نظاما وتدريبا من زملائهم الأوربيين • ولم يكن هذا نتيجة لحالة التوتر التى نجمت عن الطوارىء المستمرة فقط ، ولكنها كانت أيضا بمثابة التركيب الاجتماعى الخاص لأشراف الصليبيين ونبلائهم • ومع

بعض الاستثناءات القليلة ، فان أبناء الشريحة العليا من طبقة النبلاء قد عادوا أدراجهم الى أوربا بعد مشاركتهم فى الحملة الصليبية الأولى • فقد كانت المجموعة الأولى قد أخذت على نفسها قسما بالمشاركة فى الحملة الصليبية وتحرير القبر المقدس ولم تكن التزاماتهم الدينية تتعدى ذلك الحد • وعند نهاية رحلتهم كانت لهم حـرية العـودة الى وطنهم • أما الآخرون ، الباحثون لأنفسهم عن السلطة والسيادة فى الشرق ، فقد خابت آمالهم ، وفضلوا العودة الى أوطانهم • والذين قرروا البقاء فى الأرض المقدسة لم يكونوا ينتمون الى الأسر الكبيرة فى أوساط النبلاء الأوربيين ، وانما كانوا فى الغالب من الفرسان الأدنى فى مراتبهم من بيوتات السادة الاقطاعيين الأوربيين • وقد سهل هذا من مهمة الحـكم ، اذ لم يكن ملك بيت المقدس يجابه أية معارضة من البارونات خلال الجيل الأول من وجود المملكة •

وبعد حوالى ثلاثين عاما صارت الخطوط العريضة للنظام الاقطاعى فى المملكة ثابتة مستقرة • وكانت الأملاك الملكية فى ذلك الوقت ماتزال أوسع ، ومن المؤكد أنها كانت أكثر ثراء ، من أكبر الاقطاعيات ، وربما من جميع الاقطاعيات مجتمعة • فقد كانت منطقة يهوذا كلها تقريبا . فيما بين حبرون [الخليل] فى الجنوب ، والسامرة القديمة حول نابلس فى الشمال داخلة فى نطاق الاملاك الملكية • وفى الوقت نفسه كان التاج سيدا على المدن البحرية الرئيسية الثلاث فى المملكة وهى يافا وعكا وصور ، فضلا عن العاصمة بيت المقدس • وفى مقابل الاملاك الملكية الواسعة كانت هناك كبار الاقطاعيات التى كان بعضها كبيرا جـدا مثل اقطاع الجليل ، واقطاع شرق الأردن ، ومقاطعة يافا (التى صارت امارة يافا ــ عسقلان فيما بعد وصارت من امــلاك الأسرة الحاكمة) • وكان بعضها الآخـر صغيرا بالقياس الى المستوى الأوربى • وكانت هذه تتمركز حول المدن الساحلية ، مثل صيدا وبيروت وحيفا وقيصرية وأرسوف ، أو حول المراكز الداخلية

مثل نابلس وحبرون والرملة وبيسان • ومن الغريب أن عدد الاقطاعيات الدينية كان ضئيلا للغاية على الرغم من الدوافع الدينية التى اذكت نيران الحروب الصليبية • ومن هذه الاقطاعيات الدينية كانت اللد (التى أطلق عليها اسم سان جورج فيما بعد) ، وبيت لحم والناصرة ، وكانت هذه الاقطاعيات صغيرة جدا فى حجمها • وكانت المدينة هى المركز المعتاد للاقطاعية ، بيد أنه كانت ثمة استثناءات لهذه القاعدة مثلا اقطـــاعية شرق الأردن التى كانت بمثابة دولة حاجزة بين أراضى الهلال وأراضى الصليب ، فقد كان لها قلعة مركزية • وكان مسكن السيد الاقطاعى فى قلعة المدينة ، أو بالقرب منها حيث يقيم أيضا الجهاز الحاكم العسكرى والادارى للاقطاعية • وكانت حامية المدينة تتمركز فى القلعة التى كانت تبنى فى الغالب قريبا من البوابة الرئيسية للمدينة كما كانت تضم موظفى الجمرك الذين كانوا يقومون بتحصيل الرســـوم على المنتجات والمواد الغذائية •

وكانت الامارات الاقطاعية تنظم على نسق المملكة • فقد كانت محكمة الملك أو المحكمة العليا ، كما اطلق عليها الصليبيون ، هى النظام الرئيسى الذى قامت عليه الحكومة الملكية • فهنا كان الملك يقابل كبار الاقطاعيين ، ومن الناحية القانونية كان فرسان البيت الملكى والاتباع فى الأملاك الملكية هم كبار الاقطاعيين ، (وذلك لانهم كانوا أيضا أتباعا مباشرين للتــاج) • وكانت المحكمة الملكية،شأنها شأن أية مملكة أخرى فى العلم المسيحى ، محكمة قانونية فى المحل الأول مهتمتها ارساء العدالة بين أتباع التــاج ، ومعالجة المشاكل الخاصة باقطاعاتهم ومسوغات الملكية (بالنسبة للضياع التى كان التاج يهبها على سبيل التشريف)•والأهم من ذلك أن هذه المحكمة كانت هى المجلس الأعلى للحكم • ومع أنها مجلس استشارى أصلا ، فقد تحولت بالتدريج لتصبح العامل السياسى الحاسم فى المملكة • وعلى الرغم من أن اعضاءها كانوا يجتمعون بناء على أمر الملك ، وعلى الرغم من أن

الملك كان يستطيع أن يختار موضوع المناقشـــة ، فان أمور السياســـة الخارجية ، واعلان الحرب والســـلام ، واصدار أوامر التعبئة وفرض الضرائب الاستثنائية (غير الاقطاعية) ، كانت كلها أمورا خاضعة لمداولة المحكمة العليا ٠

وطالما كانت قوة التاج كبيرة كان رأيه حاســـما ٠ ولكن مع بداية القرن الثالث عشر ، حلت المحكمة العليا محل سلطة التاج المتهالكة ٠٠ وقد لعبت المحكمة العليا دورا هاما فى شئون الوراثة الملكية والصراع من حولـــها فى القرن الثـــانى عشر ، وأثناء القرن الثـــالث عشر ، كانت مسألة شرعية الوراثة ما تزال تشوبها ضبابية عدم الوضوح مما جعلها محـــلا للصراع مرة أخرى ٠ وتدخلت المحكمة العليا فى هـــذه المســألة باقتدار ، مما جعلهـــا عنصر الســلطة الهـــام فى المملكة ٠ فقد تفوقت بقدرتهـــا وبنائها على الفرع التنفيذى فى الحكومة (اذ كانت تضـــم كل من له مركز فى المـــلكة) ٠ وكانت الادارة المركـــزية ، التى تم تنظيمـــها عقب الغزو مباشرة ، انعكاسا للتراث الأوربى الذى يمتد بجذوره الى عصر شارلمان ، حين كان موظفو البيت الملكى موظفين فى الدولة أيضا ٠ وكانت وظائفهم تشمل عمدة القصر ، والكونستابل ، ورئيس الحجاب ، والمسئول عن الطعـــام والشراب فى القصر ، فضـــلا عن الأسقف الذى كان يقوم برئاسة قضـــاة محكمة البلاط ٠ واستمر هـــذا الاطار الأولى قائمـــا على مدى قرنين من الزمان دونما تغيير ملحوظ ٠ بيد أن الأمر نفسه يشـــهد على عـــدم أهمية هـــذه الوظائف ، كما يشـــهد على الروح المحافظة للمملكة ٠ ولسنا فى حاجة الى القول بأن هذه الوظائف لم تكن محـــل صراع ، ذلك أن التاج كان قد عين من يشغلونهـــا من بين كبار النبلاء ، كما لو كانت الخدمة فى هـــذه الوظائف جزءا من تربيتهم فى الحياة السياسية والعامة ٠

وكانت الأهميـــة المتزايدة للمحكمة العليـــا مقرونة بتغييرات فى

تركيبها • فمنذ منتصف القرن الثانى عشر ، كان يسمح لكل أصحاب الاقطاعيات فى المملكة بالانضمام الى المحكمة العليا • وكان هذا يعنى ، من الناحية النظرية ، أن تضم كل النبلاء فى المملكة وأفصالهم ، وأفصال أفصالهم وفقا لتدرج السلم الاقطاعى • ومع القرن الثالث عشر ظهر فى المحكمة نواب لبعض الهيئات المتضامنة ، مثل القادة العسكريين ، والفيكونتات ، والقناصل • كما ظهر نواب من نمط جديد ، هم نواب الهيئات المتحدة مثل الجماعات الاخوانية (وكانت هذه فى الأصل جمعيات خيرية يرأسها قديس من الوطن ، وكان الانضمام اليها حقا للنبلاء وأبناء الطبقة الوسطى أحيانا على السواء • ثم حدث أن صارت نواة للحركات الثورية) وفى السنين الأخيرة من عمر المملكة كانت المحكمة العليا فى طريقها لأن تكون برلمانا للمملكة يجمع بين أصحاب الأملاك على اختلافهم ونواب الجمعيات •

كانت محكمة السيد الاقطاعى التى تجمع أتباع الاقطاعية محكمة قانونية فى الأصل ، مثل المحكمة العليا ، كما كانت بمثابة مجلس استشارى للسيد الاقطاعى أيضا • وكان النظام التنفيذى فى الاقطاعية صورة من نظام التاج • بيد أن الاقطاعيات الكبيرة هى التى كانت قادرة على التباهى بأن لديها درجات وظيفية مشابهة لتلك التى لدى الدولة • وعادة ما كان لكل اقطاعية محكمة خاصة ، فضلا عن موظف أو اثنين لادارة مالية السيد الاقطاعى والبيت الحاكم • ولكن البناء السكانى للاقطاعيات الصليبية كان يختلف اختلافا جذريا عن النمط الأوربى المألوف لدى النبلاء الصليبيين • ذلك أن الصليبيين كانوا مضطرين للتعامل مع الفرسان وسكان المدن فى الكومونات التجارية الايطالية بدلا من النبلاء والأقنان الذين عرفهم المجتمع الأوربى ، وكان الجميع ينضوون تحت لواء الاطار الفرنجى العام • فضلا عن المسيحيين الشرقيين الذين كانت تضمهم حوالى ست طوائف ، بالاضافة الى

المسلمين واليهود والدروز والحشاشين والسامرة فى بعض أجزاء المنطقة ·

لقد كان ذلك عالما غريبا ومثيرا ، ولم يكن فى تجارب الصليبيين السابقة ما يجعلهم على استعداد للتعامل معه · وقد سلك الصليبيون أسهل طرق المقاومة ، ذلك أنهم ببساطة لم يخالطوا السكان الوطنيين على الصعيد الاجتماعى ، وتركوهم لنظامهم الحكومى · وكان هذا قرارا حاسما لأنه كان يتطلب التخلى عن أى عمل تبشيرى واسع النطاق بين المسلمين أو المسيحيين الشرقيين · وهكذا ، وعلى الرغم من أن الأرض المقدسة كانت تحت السيادة المسيحية ، فانها لم تصبح اطلاقا بلدا مسيحيا ، لأن غالبية السكان ظلوا من غير المسيحيين · ومرة أخرى اصطدم الواقع بالمثال ، وأملى الواقع شروطه القاسية بالتسليم · وكانت هناك فرصة لبناء الدولة المسيحية كما وجدت تحت سلطة البيزنطيين منذ ثلاثة قرون مضت ، وقبل أن تقهرها قوات فرسان البادية التى اندفعت فى سرعة من أعماق شبه الجزيرة العربية لتأسيس السيادة الاسلامية · ولكن الصليبيين لم يستغلوا الفرصة ، لأن التحويل الى المسيحية لم يكن ابدا جزءا من برنامج الكيان الصليبى · ولم تكن موجات الهجرة الأوربية تسمح بحلول الاستعماريين الأوربيين محل السكان الأصليين ·

ومن ناحية أخرى ، كان مبدأ عدم التدخل ، الذى كان الى حد ما تقليدا لتراث النظام الاسلامى السابق ، يضمن استقلال الجماعات الدينية المتعددة · ففى القرى كان التقاضى بين أعضاء الجماعات المختلفة يتم أمام سلطاتهم التقليدية ، علمانية كانت أم دينية · وكانت هذه هى الحال فى مدن المملكة ، ولم يطبق التشريع الفرنجى سوى فى الحالات التى كانت تجمع بين الفرنجة وغير الفرنجة ، أو عندما يلجأ فرد من ابناء اقلية ما الى المحاكم الأجنبية ·

وكان الصليبيون الأحرار أو سكان المدن يحتلون درجة أقل من درجة النبلاء والفرسان فى سلم الحكومة الصليبية · ومن خلال رتبتهم ودرجتهم تكونت فى بطء طبقة أشراف المدينة ، ولكنها كانت طبقة مختلفة عن شبيهتها فى المدن الأوربية فسكان المدن من الفرنجة لم يصبحوا أبدا سادة الاقتصاد الوطنى على نحو ما حدث لرفاقهم الأوربيين · ذلك أن أكثر المهن ربحا ، وهى التجارة الدولية ، صارت بالفعل حكرا على الايطاليين والبروفنساليين وأهل قطالونيا · أما طبقة الأشراف الصليبية فقد وصلت الى السلطة ، لا عن طريق النجاح الاقتصادى ، وانما من خلال القنوات الادارية · ففى كل مدينة ، ولا سيما فى عكا وبيت المقدس ، وصلت بعض الأسر الى السلطة فى حاشية البطريرك والملك والأسقف والسيد الاقطاعى الكبير · فقد كان أبناء هذه الأسر قد تلقوا تعليمهم فى المدارس الملحقة بالأديرة والكنائس ، حيث لقنوا مبادىء القراءة والكتابة والحساب · كما كانت لهم معرفة سطحية باللاتينية بحيث يمكنهم استكمال الحسابات والتقارير ، وكتابة مذكرة حول العقود التى كان موثق العقود الرسمى يتولى تحريرها · وكانوا ، وهم يحاولون الكتابة باللاتينية يدخلون تعبيرات فرنسية وايطالية فى سياق الكلمات اللاتينية ، كما انهم أجهزوا على النحو اللاتينى · ومع ذلك ، فانهم كانوا اكفاء · ومثلما فعل سادتهم من الأشراف وجدوا متنفسا ايجابيا منتجا لمواهبهم الادارية فى محاكم المملكة الخاصة بغير النبلاء ·

وقد صارت محكمة سكان المدن ومحلفوها ، نقطة الارتكاز لدى طبقة الأشراف ، كما صارت المحكمة نفسها مصدر السلطة فى المدينة بحيث كان المحلفون يتمتعون بأهمية كبيرة باعتبارهم الشريحة العليا بين الفرنجة غير النبلاء · ومع ظهور كفاءات المحكمة ارتقت مكانتهم بسرعة · وأصبحت محكمة سكان المدن ، التى كانت مكتبا للسجلات ،

بمثابة فرع للنظام التشريعى · وكانت هذه المحكمة الخاصة بسكان المدن واملاكهم وعقاراتهم تقوم بتسجيل كل صفقات العقارات الخاصة بالمواطنين مثل البيع والتأجير والرهونات العقارية وأراضى المدينة والحدائق والآبار وغيرها · كما كانت تعرض على قضاة المحكمة القضايا الخاصة بالدعاوى والمنازعات · ومنذ شروق الشمس الى غروبها ، وعلى مدى ثلاثة أيام فى الاسبوع ، كان القضاة يجلسون للفصل فى الخصومات ، يحيط بهم الموثقون والكتبة والشمامسة · ويفد اليهم سكان المدينة الصليبية بمشاكلهم المختلفة من قضايا عقارية ، الى محاولات التهرب الضريبية والجمركية والسرقة والجنايات الكبرى · وقد جاء مراقب شرطة المدينة ، أو المحتسب الذى كان مسئولا عن الأعمال التجارية الشريفة فى الأسواق ، ومعه المجرمون ليعرض على المحكمة التهم الموجهة ضدهم · ومن هنا يأخذ المسئول عن السجن المحكوم عليهم للعقوبة البدنية أو الحبس · وفى بعض الحالات ، كان يتم تحديد تاريخ آخر للفصل بين المتنازعين ، أو يحدد موعد آخر للدفاع عن الحقيقة فى مبارزة بالسيوف ، كما كان مألوفا فى عرف سكان المدن ·

وبمرور الوقت وجد سيد المدينة أنه من الأفضل والأكثر فائدة أن يقتسم اختصاصاته الواسعة مع محكمة المدينة · فكانت المحكمة تقرر قوانين حظر التجول والأسعار ونظافة الشوارع ، ثم يقوم منادى المدينة بارتقاء حجر خاص ، وهو عادة بقايا عمود قديم كانوا يسمونه le bon ليعلن هذه القوانين على المواطنين المتجمعين · وقد أدى استمرار المثول أمام المحكمة الى ظهور فئة كبيرة من المحامين من سكان المدن ، كما حدث بين النبلاء الصليبيين ، ونظرا لمعرفتهم التى لم يكن أحد يشك فيها ، علت مكانتهم لدرجة أن النبلاء المتكبرين كانوا يطلبوا نصيحتهم ، بل وكانوا يدعونهم الى المحكمة الاقطاعية فى المملكة فى بعض الأحيان ·

والى جانب محكمة السيد الاقطـاعية ، ومحكمة المدن كانت هناك محكمة السوق المنفصلة ٠ وهى هيئة فرنجية سـورية مختلطة تحكم فى المنازعات الصغيرة التى كانت تنشب فى الســـوق حيث كان المدعون والمتهمون افـرادا من جماعات مختلفة ٠ وقبل تأسيس محـكمة الســوق كانت هناك محكمة ســـورية وطنية يرأسها الرئيس ٠ ووفقا لما جاء فى بعض المصـــادر الصليبية طلب المسيحيون الحليون اشراف ملوك بيت المقدس الأوائل على هـــذه المحاكم ، ثم انتقلت بعض اختصاصاتها الى محكمة السوق بمرور الزمن ٠ ولم يحدث هــــذا التطور فى القرى التى يقطنهـــا المسيحيون الشرقيون والمسلمون ، اذ ظلت المحاكم الوطنيـــة تواصل عملها ، وذلك لأن هذا التطور كان مرتبطا بحياة المدينة ٠

وقد ظهرت مؤسسة جديدة هامة لمجابهة ظروف الحياة الجديدة ، وهى محكمة السلسلة ٠ والاسم مشتق من السلسلة التى كانت تستخدم فى المدن الصليبية الســـاحلية كمـــا يصفها الرحالة اليهودى الاسبانى الشهير بنيامين التطيلى فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر :

« وصور مدينة رائعة ، وبها ميناء فى وسطها حيث تدخـل السفن الى المدينة بين برجين ، وفى الليل يلقى أولئك الذين يجمعون الضرائب بالسلاسل الحديدية من برج الى برج بحيث لا يستطيع أى انســـان أن يمر بقارب أو بأية وسيلة أخرى لسرقة السفن ليلا ٠ » ٠

وفى أوقات الحرب أيضا كانت تمد السلاسل بين الابراج العـــوداء لكى تمنع سفن العدو من دخول الميناء ٠ وكانت محكمة السلسلة عبارة عن هيئة قانونية تخصصت فى القضايا البحرية ٠ فقد كانت القضـــايا الخاصـــة بالنقل والملاحين وغرق السفن والقروض البحرية والشركات التجـــارية ، تتطلب معرفة متخصصة من جانب قادة السفن الذين كانوا عادة من أصحاب السفن أو التجار فى الوقت نفسه ٠ وبعد أن توضـــح المحكمة القضية تبلغ نتائجها الى محكمة المدينة للحكم والتنفيذ ٠

وكان تطــور هــذه المؤسسات جميعا بعيدا كل البعد عن آمال وتطلعات الحملة الصليبية الأولى ، بيد أنها كانت ضرورية للحفاظ على المملكة وحكومتها • وكان الملك يعتبر نفســـه خليفة الملك داود ، ولكنه لم يكن أكثر من حاكم لاحدى دول العالم المسيحى •

وكان وجود المستوطنات الصليبية فى الشرق يعتمد على أوربا ، ليس فقط من أجل الهجرة ، وانما من أجل العون المالى أيضــا • وحقــا وصلت أعداد من المهاجرين من أوربا الى الأرض المقدسة ، ولكم كانت هـــذه الهجرة مختلفة عن الجماهير العريضـــة التى جاءت فى ركاب الحملة الصليبية الأولى !! • اذ لم يكن دافعهم الأول دينيا خالصا ، بل ولم يكن مسيحانيا • فقد ذهب بعض الأوربيين الى الشرق ليتخلص من قيـــود العبودية والرق • على حين ذهب البعض الآخر رغبـــة فى أن يبدأ حياة جديدة فى أرض غير معروفة ، وبامكانيات هزيلة • لقــد تلاشى المد المسيحانى الذى صحب الحملة الصليبية الأولى فى غمــار النسيان وجر معه الاعتقاد فى تحقيق النبوءات القديمة واقتراب الحساب الأخير • لقد عاشت أوربا أعظم ساعات النهضة الروحانية ، ولكنها عادت الآن تستسلم للحياة الروتينية ومشاغل الحياة اليومية •

وعلى الرغم من أن الهجرة الى الشرق صارت تعتمد على الدوافع الاجتماعية والاقتصــادية ، فان أوربا كانت لاتزال تشـعر بأن المملكة الصليبية البعيدة كانت أكثر من مجـــرد كيان سياسى آخــر فى العالم المسيحى • لقد تولت هـــذه المملكة حماية الضريح المقدس ، كما تولت أيضا حماية الصــورة الروحية التى أرادت أوربا أن تروجها لنفسها • لقد كانت المملكة الصليبية من خلق أسمى الأوقات التى عاشتها أوربا ، كمـــا كانت من خلق فرحة الســـمو فوق الصراعات الصغيرة التافهة والحروب التى تطحن برحاها الأخوة ، فضـــلا عن أنهـــا كانت تجسيدا لايمان أوربا وشعورها بعالمية دينهــا • وطالما أن هـــذه العقائد ظلت

قوية كانت أوربا تعتبر نفسها قيمة على سليلتها الشـــابة (مملكة بيت المقدس) · وعلى مدى قرنين من الزمان كانت أوربا تهتم بالمملكة وترسل المهاجرين وتقدم المعونات المــالية لخــزائن الصليبيين الخــاوية دائمــا كما كانت تجهز وتجرد الحملات الجديدة على الشرق · وكان يقود هــذا الســـلوك القوتان العالميتان المسيحيتان وهمــا الامبراطورية والبابوية اللتان كانتا زعيمتى العـــالم المسيحى على المستوى الدنيوى والمستوى الروحى · وكانت دعوى المملكة على أوربا المسيحية من القوة بحيث أن البابوية فرضت ضريبــة على رجال الدين والعلمانيين لمــدة جيلين لكى تضمن الموارد المالية اللازمة للصليبيين ومملكتهم · وقد سار ملوك أوربا وامراؤها فى الطريق نفسه · فقد شعرت فرنســا وانجلترا النورماندية بأقوى الروابط التى تصلها بالمملكة ، كما جاءت المساعدات من النرويج وصقلية واســـبانيا والمجر · وكان التأييد والعون مستمرين طالما كانت أوربا تعتبر أن مملكة بيت المقدس قطعة من لحمها وبعض دمائها ·

ومع ذلك ، فقد تغير هذا كله مع بداية القرن الثالث عشر ، حيث هبت رياح جديدة ، واستسلم مثال المسيحية العالميــة للممالك الاقطاعية النامية ، وبدأت الرؤية الجديدة تناهض غزو القوة بالارساليات السلمية · وبالتدريج بدأت أوربا تقطع صــلاتها العــاطفية بمستعمراتها الشرقية · ولم تكن الحماسة الصليبية القديمة تؤجج سوى صدور أصحاب الرؤى مثل ســان لويس (الملك لويس التــاسع) ، ولفترة وجيزة فقط · ولــكن الحركة كانت حينذاك تسير فى طريق نهايتها المحتومة ·

- ٦ -

الحيـاة فيمـا وراء البحـار

جلب النبلاء والفرسـان معهم من أوربا مفاهيم ومثل أسلوب حياة الأسـياد الاقطاعيين واعادوا غرسها فى تربه البلاد المفتوحة حديثا • وقد واصلت أوربا الغربية الحيـاة تحت سـماء الشرق ، وضربت اللغـة والانماط والعـادات الفرنسية بجذورها فى تربة عالم البحر المتوسـط الشرقى ، وسرعان ما نما جيل ثان وثالث من ابناء الفاتحين الأصليين • وبالنسبة لهـذه الأجيـال الجديدة كانت كلمة « الوطن » تعنى الأرض المقدسة على حين كانت أوربا ـ الوطن القديم ـ مـكانا ترتبط به أصـول اسـلافهم البعيدة ، وكانت الأجيـال الجديدة سـلالة حديثة من الرجال والنساء اطلق عليهم اسم البولان Poulains وهو اسم يمكن ترجمته او فهمه بمعنى « الأولاد » • وقد كانت حياتهم المنزلية وعلاقاتهم الأسرية وخصوصياتهم كلها انعكاسا لأوربا ، ولفرنسـا على وجه التحديد • بيد ان بيئتهم ـ اى ظروف الحياة المادية وما يقابلونه يوميا فى الشارع والسوق ـ كانت عالم شرق البحر المتوسط • وهكذا ، فان سليل العائلة النبيلة ، او حتى سـليل عائلة من الفرسـان ، كان يمر بنفس مراحل التربية والتعليم التى يمر بها أقرانه الأوربيون • فقد نشأ فى ظل تعاليم نفس الدين ولقن نفس مبادىء العقيدة ورسم مواقفه وتصوراته الثقافية معتمدا على نفس الأساطير والقصص الدينى وروايات البطولة واشعار البلاط التى يتذوقهـا قرينه فى غرب أوربا • وهكذا برزت الى الوجود فرنسا ما وراء البحار •

ومع ذلك فالفرنجى الذى ولد فى بلاد الشام لم يـكن أوربيا تماما •

فالزيجات المختلطة بالسيدات الأرمنيات والبيزنطيات كانت أمرا شائعا فى أوساط الشريحة العليا من نبلاء الفرنجة · ومن ثم فقد كان من المألوف تماما أن تكون أم أحدهم أو جدته أو خالته مسيحية شرقية·وتنسحب هذه الحقيقة أيضا على البيوت الملكية وبيوت الأمراء الصليبيين · واكنت مثل هذه الزيجات تجلب معها الخدم والحشم الشرقيين ـ سواء من المسيحيين أو المسلمين ـ الذين كثرت أعدادهم فى جميع بيوت الفرنجة الأثرياء · أما أبناء الشرائح الدنيا من المجتمع الفرنجي ، سواء من الفرسان الصغار أو سكان المدن ، فغالبا ما كانوا يتزاوجون بالمسيحيات الشرقيات من نفس مستواهم الاجتماعى · ويعلق أحد كاتبى الحوليات من الصليبيين على الاحوال التى نتجت عن ذلك بقوله :

«··· تأمل ، من فضلك ، واعتبر كيف نقل الرب فى أيامنا الغرب الى الشرق · لأننا نحن الذين كنا غربيين أصبحنا الآن شرقيين · وذلك الذى كان رومانيا أو فرنجيا قد اصبح الآن جليليا او فلسطينيا · والذى كان مواطنا فى ريمس أو شارتر قد اصبح الآن من مواطنى صور أو انطاكية · لقد نسينا بالفعل اماكن مولدنا واصبحت غير معروفة للكثيرين منا ، أو على الأقل انها أصبحت لا تتذكر · ويملك البعض هنا بالفعل المنازل والخدم الذين ورثوهم عن ذويهم كما اتخذ البعض زوجات ليس من بنى جلدتهم فحسب ولكن من السوريين والأرمن أيضا بل ومن المسلمين الذين نالوا نعمة التعميد · كما أن البعض قد اتخذ لنفسه صهرا ، أو زوجة ابن ، أو زوج ابنة ، وهنا ايضا احفاد وحفيدات والبعض يزرع الكروم بينما يزرع البعض الآخر الحقول · ويستخدمون جميعا كلمات وتعبيرات من لغات مختلفة · وهذه اللغات ، التى اصبحت الآن شائعة ، أصبحت معروفة لدى الجنسين · كما ان العقيدة وجدت بين أولئك الذين كان اباؤهم غرباء ··· » ·

وهكذا اعتاد الفرنجى الشاب « البولان » منذ نعومة اظفاره على

مواجهة الغرب والتعايش معه فى الشرق ، فقد كان البيت أو القلعة التى يعيش بها فى المدينة بناء شرقيا كان فى العادة ملكا لأحد المسلمين قبل الغزو الصليبى ، وكان يختلف تماما عن الابنية والتحصينات الأوربية ٠ فقد كان الخشب هو مادة البناء الأكثر شيوعا فى الغرب ، ولكنه لم يكن معروفا تقريبا فى الأرض المقدسة اذ كان الحجر هو مادة البناء الشائعة والمستخدمة فى كل من المدن والقرى ٠ وعادة ما كانت تحمل من مكان لا يبعد من المدينة نفسها ، مثل الحجارة التى تقطع من منحدرات جبل الكرمل فى قيسارية والحجارة المعروفة باسم Chastel Pélerin اى الحاج الطاهر والتى كانت تقطع من المحاجر القريبة التى تسد طريق الكثبان الرملية المتحركة باتجاه الشرق أو الحجارة ذات اللون الوردى الجذاب التى تجلب بيت المقدس ٠

وكان المنزل ذو الطابقين أو الثلاثة طوابق هو النمط الشائع فى المساكن ٠ بيد أن المنازل ذات الطوابق الخمسة كانت معروفة أيضا وغالبا ما كانت أسقفها المسطحة مرصعة بأشجار النخيل المزروعة فى أحواض أو بالأشجار دائمة الخضرة ، بحيث تصير مكانا يستمتع فيه المرء بالنسمات الباردة بعد مغيب الشمس الحارقة ٠ وفى الداخل ، كانت الحوائط السميكة تحفظ الدفء فى الشتاء ، حيث تهبط درجة الحرارة فى اماكن مثل بيت المقدس وصفد وجبال شرق عكا وفى طرابلس وانطاكية الى درجة التجمد ٠ وفى الصيف ، كانت الحوائط والنوافذ الضيقة تحفظ للحجرات برودتها ، حتى أثناء وقت الخماسين اللافحة ٠ كما كانت الأسقف شاهقة الارتفاع ٠ وتضفى الاقواس الرقيقة مزيدا من الشعور بالارتفاع على المكان ؛ اذ كانت النوافذ الضيقة تحد من دخول الضوء والحرارة ٠ ولم تكن النوافذ تغطى بالألواح الخشبية أو بجلد الرق ، وانما كانت تتألق بالزجاج المصنوع محليا ٠ وكان الزجاج النقى الشفاف نادرا الى حد ما ، ولكن الزجاج الأزرق أو الأخضر والنصف

شفاف والذى يضم الفقاعات الهوائية كان كثيرا ما يستخدم ما لم يفضل المرء الزجاج المرسوم ٠

وعادة ما كانت واجهة الدور الأرضى فى المنازل الشرقية عبارة عن حائط صلد ليس فيه سوى المدخل ٠ وكانت نوافذ الطوابق العلوية تسمح بدخول بعض الضوء ٠ ولكن الفتحات الأســاسية فى البيت كانت تطل على فنائه الداخلى ، حيث يوجد البئر عصب الحياة ، والذى يحفظ فيه ماء المطر٠أو فى بعض الأماكن كانت تحفره حفرة فى الأرض تتصل باحدى القنوات المائية الصناعية القديمة ٠ وفى بعض المناطق الريفية ، كمــا نعرف من خلال وصف أحد القصور الصليبية الرائعة فى بيروت ، تقــام نافورة لترطيب الهــواء ، وتسقط مياهها مرة أخرى فى بحيرة كسيت بالموزايكو ٠

وفى بعض المنازل ، كانت السلالم تبنى خارج المنزل بحيث تسمح بالصعود من الشارع الى كل طابق من طوابق المنزل ٠ وغالبا ما كانت منازل الأثرياء تحتوى على نوع من البناء الاضــافى فى الخــارج يتكون من الأقواس المغطــاة بالقماش الســميك لكى تحمى المدخل من الشمس والمطر كالمظلات الراقية فى مداخل فنادقنا الفاخرة ٠ وفى أعمدة الأقواس نقرت ثقوب لكى تربط فيها الخيول ٠

أما البيوت المكلفة فقد كانت مداخلها تزين بالموزايكو الذى يحمــل بصمات الفن البيزنطى الاســلامى ، فضلا عن أن قطع السجاد الصغير وقطع النسيج والسجادات كانت تغطى الحوائط ٠ وكان الموزايكو يشكل جزءا أســاسيا فى الزينة الداخلية ، وغالبــا ما كان يعــرض تصميمات هندسية الى جانب رسوم الزهور والحيوانات ٠ وفى المنازل الأكثر ثراء ، كانت أقواس السقوف تستقر على حواف منحوتة ، أو على منظر عقود وأقواس ، وربما كانت الأقواس البسيطة تضاف الى الزينة ، وكان الاثاث

افخم بكثير من ذلك الموجود فى أوربا · ففى افضل الاحوال كانت المناضد والكراسى وأرجل ورؤوس الأسرة من الخشب المحفور على هيئة العقود البارزة أو باقات صغيرة من الزهور ، أو رؤوس البشر أو الحيوانات · وغالبا ما كانت الكراسى تبدو على هيئة حرف × مستدير ، بينما كان الجزء العلوى من الكرسى يستخدم كمقعد بمسندين·ومع الكراسى توضع الحشايا المستطيلة والدائرية وقد غطيت بالحرير أو الديباج الذى ينتهى بشرابة من اجل مزيد من الراحة ، وربما كان عرق اللؤلؤ الذى برع فيه صناع بيت لحم يستخدم فى تزيين الاثاث · وفى بعض اعمال الموزايكو · وفى كل بيت من بيوت النبلاء ، وفى كل بناء كنسى ، كانت توجد منضدة للكتابة على هيئة صندوق ولها كرسى خاص بها · وتتم الكتابة على السطح المائل ، على حين كانت زجاجات الحبر والألوان والريش وغيرها من أدوات النسخ تحفظ فى الرفوف السفلى للمنضدة ·

أما أدوات المطبخ والمائدة فكانت تختلف تبعا للطبقة الاجتماعية · وكان طهى الطعام يتم فى أوانى فخارية كبيرة فى افران مفتوحة وتلك الأفران التى حفظها الزمن فى الأماكن التى احتلها الصليبيون عبارة عن فتحات ضخمة كان من الممكن شى اللحم فوقها أو تعليق القدور عليها · وتغطى الفتحات بنوع خاص من الاسياخ الحديدية التى تحمل القدور وأوانى الطبخ · وكانت الملاعق والسكاكين هى أدوات المائدة الرئيسية · وكان من المعتاد أن تصنع الملاعق من الخشب بينما تصنع السكاكين من الصلب أو الحديد ، وغالبا ما كان الواحد منهم يستخدم خنجرة كسكين للمائدة (وكانت للخناجر أحيانا مقابض مزينة من العاج أو الخشب المحفور ونصل من الصلب الهندى الشهير) ، على الرغم من ان الأدوات المعدنية غالبا ما كانت تستورد من أوربا · وفى بيوت النبلاء كان الصبية أو التابعون الصغار يقومون على خدمة المائدة ، وحين تستقبل الأسرة ضيوفا من أصحاب المقام الرفيع يقوم أبناء الأسرة الصغار

بهـــذا الواجب أحيانا • وتنقل شرائح اللحم على الخبز المستدير الذى يقوم مقام الأطباق ، وقد يوضع الخبز فى اطباق من الفخار تزينها غالبا الرسوم • وكان أكثر أنواع الطـــلاء شيوعا هو الذى يتكون من خلفية قاتمة اللون تغطيها رسومات هندسية من الطلاء البنى والاخضر والاصفر• وفى بعض الأحيان كانت هذه الرسوم عبارة عن رمـوز مسيحية ـ مثل الصلبان والسمكة والاكاليل وتيجان الأساقفة ـ وكانت تستخدم ايضـــا رؤوس الحيوانات والكائنات الأسطورية وما شـــابه ذلك • أما الأطباق الأكثر فخامة فكانت تزينها رسوم الفرسان والخيالة فوق ظهور خيولهم •

وكانت الأطباق المعدنية والكئوس تعد جزءا من زينة المنزل • فكان بعضها يخصص تماما للزينة مثل اطبـاق النحاس الكبيرة المنقوشـــة بآيات من الكتاب المقدس وببعض مناظره وصوره • ويبدو ان هذه كانت تستورد من أوروبا ولكن مثل هذه الآنية المستخدمة للزينة ، وفى الاحتفالات ، والآنية التى كانت تقدم عليها الوجبات للملك الصليبى فى المسجد الاقصى بعد التتويج ، لابد وانها كانت من المعــادن الثمينة التى صممت ونقشت فى سوريا أو فلسطين•وكذلك شاع استخدام الأكواب والكئوس المعدنية وكان بعضها يطعم بالفضـــة على الطريقة العـربية الشرقية المحببة • ولم تكن النقوش العربية التى تمجـد الله لتقف حجر عثرة فى ســـبيل استخدام الصليبيين لها على الرغم من انها قد تستخدم فى شرب الخمر (وهــو ما لم يكن الفنانون الذين صنعوها يقصـــدونه بكل تأكيد) • وفى الوقت نفسه كانت الأكواب والكئوس المعدنية شائعة الاستخدام فى أوربا أيضا ، على حين لم تكن المصنوعات الزجاجية اكثر شيوعا فى الشرق • وهناك بعض الأمثلة على الأكواب الزجاجية التى تزينها الرســـوم والنقوش ، والتى يحتمل ان تكون قد صنعت فى صور ، وهى تكشف عن شكل ممتاز وزينة فائقة الجمال •• ويحمل احدها شعار صاحبها مما يرجح ان تلك كانت عادة شائعة •

وكان البيت الشرقى وزينته الداخلية يجدان التكملة لهما فى الوان الطهى · وأياما كانت تقاليد فن الطهى المجلوبة من أوربا ، فقد كان من العسير عليها أن تنافس قائمة الأطعمة المحلية · ولم تكن الوان الطهى الشرقية تتلاءم مع المناخ السائد فحسب ، ولكن التوابل المشهية واستخدامها فى اللحم والأسماك ، والصلصة ، كانت تجعل من السهل على الأطعمة أن تحوز السبق على الأطباق الكثيرة والبسيطة المعروفة فى أوربا ·أما الخدم الشرقيون ، مثلهم مثل الباعة فى الشوارع والأسواق ، فلم يجدوا صعوبة فى تقديم فنونهم لكل من أبناء البيوتات النبيلة والعادية على السواء · بل اننا نعرف بعض قدامى الصليبيين الذين كانوا يتباهون بأطعمتهم المصرية مثلما يتفاخر المرء حاليا بأن لديه طاهيا يحمل الوشاح الأزرق ·

وقد تركت الموضة والملابس تأثيرها أيضا على المجتمع الصليبى ، ولكن الفرنجة جددوا فى هذا المجال ما اتخذوه من أزياء وملابس · وكان الفرنجى مستعدا للاستفادة من ميزة المنسوجات الراقية التى عرفها الشرق الأدنى أو الاقصى · والمنسوجات التى لم تكن متوفرة فى أوربا سوى فى بيوت الملوك والأمراء أو التى تظهر بين الآونة والأخرى فى الاحتفالات الكنسية ، كانت في متناول الناس جميعا حتى محدودى الدخل منهم فى الشرق ، فالحرير والتفتاه والقصب والقطن والصوف والشاش كانت تنسيج بأيدى الفرنجة ونسائهم ولكنهم كانوا يقاومون الطرز الشرقية· وكان من الممكن لهمأن يرتدوا الأقمشة الشرقية ، الا أن تفصيل الملابس ظل أوربيا فلم يكن الفرنجى يرتدى عباءة شرقية أبدا ، أو على الأقل لا يرتديها أمام الملأ · وقد يضع فى بعض الأحيان شالا صغيرة أو طرحة على خوذته لتحميه من أشعة الشمس القوية · وقد يستخدم عباءه بيضاء كما يفعل الشرقيون وأعضاء المنظمات العسكرية ولكن ملابسه كانت أوربية فى اساسها · وكانت تتغير تبعا للطرز الأوربية · وكان الفرنجة

يستوردون من أوربا قطع الملابس التى لا يمكن الحصول عليها من داخل المملكة مثل أغطية الرأس · ومضى احساس الصليبى بهويته الجنسية بعيدا لدرجة انهم كانوا يمنعون غير الفرنجة من ارتداء الملابس الأوربية الطراز · وهذا التمسك بالعادات الفرنجية عبر عن نفسه أيضا فى مقاومة العادة الشرقية فى اطلاق الذقون · فبينما كان المشتركون فى الحملة الصليبية الأولى ملتحين ، كما كانت العادة فى بلادهم آنذاك ، فان الفرنجة فى الأرض المقدسة تابعوا موضة حلق الذقون التى سادت أوربا بعد جيلين (فى منتصف القرن الثانى عشر) · وصارت وجوههم بالذقون الحليقة والشعر المسدل على الكتفين علامة مميزة لذم كما كانت موضع احتقار الشرقيين وامتعاضهم ·

وكان للمناخ والبيئة تأثيرهما فى مجال الصحة والتجميل · فقد وصف أحد مؤرخى القرن التاسع عشر أوربا العصور الوسطى بأنها مجتمع نسى ان يستحم لمدة الف سنة · وهذا الوصف لم يكن ينطبق على الفرنجة فى الشرق بالتاكيد ، اذ كان الصابون ينتج محليا ، وربما كان يصدر الى الخارج أيضا · وقد جلب تردد البولان على الحمامات تهمة « الرفاهية » عليهم ، اذ أشار برنار الكليرفوى Bernard de Clairvaux الزاهد فى فخر بأن الداوية الذين يتمتعون بعطفه وحمايته لا يستخدمون الحمام اطلاقا ! وبعدها بخمسين عاما كتب جيمس الفيترى James de Vitry أسقف عكا منددا بهذه البذاءات التى تحدث بين سيدات الطبقة الراقية فى المجتمع الصليبى · فقد كان الجنوية يسمحون حتى بالاستحمام العام فى البالنيوم baineum فى عكا (على الرغم من عدم اختلاط الجنسين) · وأيا ما كانت العادة ، فان الأوربيين الذين كانوا يزورون المملكة كانوا يعودون الى أوربا بانطباع ان مجتمعا مخنثا قد خلف أبطال الحملة الصليبية الأولى ، الذين كانوا قد أصبحوا آنذاك قدوة أسطورية تتمثل فيها كل صفات الفروسية وقيمها ·

واليوم ، قد يصف المرء مثل هذا التصرف بالدهاء أو المكر أو الواقعية ، ولكن الأمر كان يختلف أمام ناظرى القادم من أوربا حديثا • وقد كان جيمس الفيترى عنيفا الى حد ما فى ادانته اذ يقول : « لقد تربوا فى العز ، ناعمين ومخنثين وهم فى الثياب الناعمة » • وتحت اليد الثقيلة للقسيس الغاضب يمكن للمرء أن يرصد أسلوب حياة وصفه مراقب معاصر ساخط ، بأنه أسلوب حياة شرق البحر المتوسط :

« وهكذا تعلموا ان يخفوا ما يعنونه فى كلمات ماكرة ، تغطيها الأوراق ولكنها لا تحمل ثمارا مثل اشجار الصفصاف العاقر ، لدرجة ان أولئك الذين لا يعرفونهم معرفة كاملة من خلال التجربة لا يمكن أن يفهموا تحفظاتهم وحيلهم الكلامية ، أو يتجنب الوقوع فى شراك خداعهم• انهم شكاكون غيورون على زوجاتهم اللاتى يحبسونهن ويراقبونهن بطريقة صارمة وواعية بحيث ان اخوتهن واقاربهن يكادون لا يقتربون منهن ، على حين يمنعونهن كثيرا من ارتياد الكنائس وحضور القداس والصلوات والتبشير بكلمة الرب وغيرها من المسائل المتعلقة بخلاصهن لدرجة انهم نادرا ما يسمحون لهن بالذهاب الى الكنيسة مرة كل عام ، وبالرغم مما سبق ذكره فان بعض الأزواج يسمحون لزوجاتهم بالخروج الى الحمام ثلاث مرات أسبوعيا فى رقابة مشددة » • وبالنسبة للمرأة يقول : « ولكن كلما شدو البولان على زوجاتهم زادت محاولاتهن بآلاف الطرق والحيل للخروج من هذا التضييق • فانهن تعلمن أساليب الشر التى لا يمكن احصاؤها بشكل يصعب تصديقه ، وهى أساليب تعلمنها من النساء السوريات » •

وعلى الرغم من الحرب الدائرة بشكل يكاد يكون مستمرا مع تتابع الزمن فان أطايب الأرض المقدسة ونعمها جعلت الحياة أقل قسوة وفظاظة مما كانت عليه تحت السماء الرمادية فى شمال أوربا ، فالملابس والمنازل والمقابلات فى الشارع او فى السوق والثرثرة فى الشؤون

السياسية داخـــل الحمامات كلهـــا تعيد الى الأذهان ذكرى المـــدن الهللينستية ٠ والفارس الفرنجي الذى ينمو ويترعرع فى مثـــل هـــذا الوســـط ، على الرغم من كلامه وملابســـه لم يكن فرنسيا ، وانما هو فرنجى من الشرق الأدنى ٠ ولا يستطيع المرء أن يتهمهم بسهولة بالجبن فقد كانوا محاربين اكفاء ٠ وبينما لم يكن الصليبيون فى القرن الثالث عشر دبلوماسيين مهرة على الدوام الا أن النبـــلاء منهم كانوا يولدون سياسيين ويرغبون فى ان يكون لهم اصـــبع فى كل مؤامرة أو دسيسة سياسية ٠ شأنهم فى ذلك شأن ايطاليى عصر النهضة فى مدنهم الدول ٠ city-states

ونادرا ما كان الفرنجى النبيل يعيش فى الريف ٠ بل ان النبـــلاء القلائل الذين كانت لهم حصـــون يستخدمونها كمراكز للضياع ، عادة ما كانوا يحتفظون بمنزل فى المدينة (عادة فى بيت المقدس ، وفى القرن الثالث عشر فى عكا أو صور) وقليل جدا من النبلاء كانوا يعيشـــون فى ضيعاتهم ٠ وذلك لأنهم كانوا أساسا فئة من المـــلاك الذين يجمعون الدخل من ضياعهم الريفية وينفقونها فى أماكن اقامتهم الحضرية ٠ اذ كان الريف وقراه بالنسبة لهم مكانا يعيش الانسان خارجه ويشرف عليه ولكنه نادرا ما يقطن فيه٠أما العلاقة بين الاقطاعى وحائز الأرض ،أو بين الاقطاعى والقن ، التى عرفتها أوربا العصـــور الوســطى ، فلم تكن موجودة فى الشرق تقـــريبا ٠ وكان ناظر الضيعة أو من يمـــاثله فى وظيفته كالـــكاتب يقـــوم بالاشراف على ايجارات القرية ، على الرغم من أنه نادرا ما كان يتدخل فى العمل الزراعى نفســـه ٠ ولم يكن النبيل الصليبى يقدم على الزراعة والفلاحة لحسابه ، بل نادرا ما كان يحتفظ بأرض عقار ٠ وعادة ما كان يرضى بثلث أو ربع محاصيل القرية ، التى عادة ما كانت تدعمها الدخول الناتجة عن الضرائب المفروضة على سكان المدن ٠ والحقيقة ، أن زيارة النبيل الصليبى لأملاكه الريفية كانت نادرة اذ كان الواحد منهم

يخرج الى الريف للقنص أو صيد الأسماك ونادرا ما كان يخرج لأعمال اقتصادية · فقد كانت مظاهر حيـــاة الريف ، دون تحمـــل أعبائها ، موجودة فى البساتين الجميلة والكروم ومزارع الزيتون التى كانت تحيط بجميع المدن ، وكان بعض النبلاء يحتفظون بنوع من الاكواخ أو ما يشبه ذلك فى هذه « الضواحى » حيث يقضون أيام الصيف الحارة والأمسيات الأقل حرارة فى رفقة أبناء طبقتهم ، وكان بعضهم أحيانا من طبقة النبلاء المسلمين · ومن هذا المكان قد يخرجون لمطاردة أحـد الثعالب أو خنزير برى أو يصيدون بالصقور · وكانوا يقضون شطرا كبيرا من وقتهم فى ركوب الخيل وفى التدريبات العسكرية · وكان النبـلاء الصليبيون مثل اقرانهم المسلمين يتباهون على بعضهم البعض ويتفاخرون بجمال خيولهم اذ كانوا ينفقون مبالغ طائلة فى سبيل اقتناء الخيول وتجهيزها بالسروج وأفخر الثياب وبالأدوات الغالية والمعـــادن النفيسة · وكانت الأراضى الفضـــاء حول المدن تستخدم كمكان لاستعراض الخيل والخيالة · وفى فترات السـلم ، كان المسلمون يشاركون فى هـــذه التدريبات · وكانت المباريات هى المجد الذى يتوج النبيل الفارس ، وهى معارك وهمية يقوم بها النبلاء أو الأبطـال الأفراد ، وفى مثل هـــذه المناسبات كانت السيدات تظهر فى ميادين المدينة أو القلعة للمشاركة فى هـذه العروض التى تعـد من أكثر العروض تشويقا واثارة فى العصـــور الوسطى · وهنا يمكن للتابع الاقطـــاعى الصغير أو الفارس المحنك ان يحصـــل على المكافاة والشهرة لقاء شجاعته ومهارته العسكرية اذ كانت الخيول والأســلحة والدروع المملوكة للخاسر ، وهى غالبا ذات قيمة مرتفعـة ، تصبح من أملاك الفائز · ومع ذلك ، فانه يبدو أن تلك المباريات ، التى كانت ترتبط غالبا بالأعيـاد ، كانت اقـل فى الشرق الصليبى منها فى أوربا فى ذلك الوقت · وربما يكون السبب فى ذلك هو أن المعارك الوهميـــة تكثر فى مجتمع تخلص من الحرب لتصبح ظاهرة شـبه يومية حيث كان الواقع

القاسى يغذى الدافع الى القيام بهذه العروض التى كانت غاية فى القوة فى أوربا على الرغم من التحريم الكنسى لها ·

وكان الشطر الأعظم من وقت النبيل أو الفارس يقضى فى المدينة ، مكان اقامته المعتاد ، وكان وقت صغار الفرسان ينظم وفقا لواجبات كل منهم فى الخدمة فى حامية المدينة كحراسة قلعتها ، والطواف على الأسوار والابراج وحراسة قصر السيد ، أما النبلاء الأعلى رتبة فكانوا يقضون جزءا كبيرا من وقتهم فى مجالسة سيدهم الأعلى ، وغالبا ما كانوا يجلسون فى بلاطه كمستشارين أو قضاة ، وكمستشارين كان عليهم أن يقدموا المشورة فى المسائل التى تطرح عليهم لمناقشتها ، وكقضاة ، كان عليهم انجاز الالتزامات الاقطاعية التى تحكم نظراءهم ·

وثمة مقالة صغيرة عنوانها « فى العصور الأربعة للرجال » كتبها أحد الفرنجة فى منتصف القرن الثالث عشر وتصف الوظائف التى تناسب كل عصر · وتعطينا هذه المقالة انطباعا بأن الفرنجة فى الشرق كانوا يكونون مجتمعا نبيلا متدينا · ومن سوء الحظ ان هذه الصورة تصطدم اصطداما عنيفا بالمصادر الأخرى ـ على الرغم من الأصول الكنسية ـ التى تقدم لنا رواية مختلفة تماما عن سلوك النبلاء · وأيا ما كانت الحقيقة ، وسواء كان الواحد منهم يحضر القداس اليومى أو لا يحضره ، فليس هناك شك فى أنه كان على النبيل ان يشارك فى احتفالات الكنيسة والتى كانت فى مدينة مثل بيت المقدس لا تثير المشاعر الدينية فحسب ، وانما كانت مظاهر للروعة والفخامة لكل من المشاركين والمتفرجين ·

وبالنسبة لوسائل التسلية والعلاقات الاجتماعية الأخرى ، كان المرء يلتقى بأصدقائه فى المنزل ، أو فى الحمام ، أو حتى فى احدى الحانات · وكان الشطرنج ـ لعبة الملوك ـ معروفا ، ولكن النرد كانت التسلية الأكثر شيوعا ، وكان الواحد منهم يقامر بثروته وحياته · وكانت

الوجبات الغذائية والشراب ـ الشراب حتى الثمالة ـ جزءا لا يتجزأ من التسلية ، كما كانت حانات كثيرة وبعض المنازل الخاصة تحتفظ بعدد من المومسات على الطراز الغربى أو بعدد من الفتيات الشرقيات الراقصات ، وكن أحيانا من الاماء أو الجوارى الشرقيات · أما الدعارة التى كانت مهنة شائعة فى كل مدن العصور الوسطى ، وأكثر شيوعا فى الموانىء ، فقد كانت مكلفة للغاية فى مدينة ساحلية مثل عكا ، حيث كان البابا يحذر رجال الدين من مغبة تأخير المنازل للمومسات · ولدينا وصف حى لهذه المدينة مسجله قلم جيمس الفيترى الذى شغل اسقفية عكا لبعض الوقت :

« لا يكاد يوجد بين « البولان » واحد فى كل الف يأخذ زواجه مأخذ الجد · فهم لا يعتبرون الزنا خطيئة قاتلة · فمنذ الطفولة وهم مدللون ومستسلمون للملذات الحسية حيث لا يتعودون على سماع عمل الرب ، الذى يستخفون به · وقد وجدت هنا أجانب هربوا فى يأس من أوطانهم بسبب العديد من الخطايا الفظيعة ، وهؤلاء الناس ، الذين لا يخشون الله ، يفسدون المدينة بأسرها بأعمالهم الدينئة · ونماذجهم الخبيثة ·

« وفى كل ليلة وكل يوم تقريبا يقتل اناس سرا أو جهرا · ففى الليل يخنق الرجال زوجاتهم اذا كانوا يكرهونهن ، على حين تستخدم النساء فن السم القديم والشراب السحرى لقتل الأزواج حتى يستطعن الاقتران برجال آخرين · وهناك فى المدينة باعة للسموم حتى انه لا يمكن لأحد أن يثق فى أحد فأعداء الانسان هم أهل بيته » ·

« وتعج المدينة ببيوت الدعارة ولأن المومسات يدفعن أعلى الايجارات فلهذا انه ليس فقط المدنيين فحسب ولكن القسوس بل وحتى الرهبان يقومون بتأجير منازلهم فى جميع انحاء المدينة للعاهرات » ·

ومن الصعب التأكد من درجة تعليم النبلاء الفرنجة · ويبدو أن

الشرائح العليا من النبلاء كانوا متعلمين وقد كتبوا بعض مؤلفات قليلة ، وبعض الشهادات التى توضح أن مستواهم التعليمى كان مساويا لمستوى أقرانهم الأوربيين · ونعلم عن الاحتفالات التى كانت تمثل فيها مشـاهد من ملحمة آرثر والقصص الخرافية الشائعة فى أوربا · ولكن هناك شك حـول ما اذا كانت نفس درجـة التعليم متوفرة لدى الشرائح الدنيا من النبـلاء ، وبالمثل ، فان معلوماتنا قليلة جـدا عن الاهتمامات الثقافية للنبلاء · ويبدو أن عددا قليلا جدا منهم كانوا يهتمون بالتراث الشرقى الفنى المحيط بهم ، كمـا أن قليلين منهم اتقنوا اللغـة العربية التى كانت اللغة الشائعة فى الشرق ومفتاح كنوزه · وعلى العموم ، يبدو أن هـذه السـلالة الأوربية التى تربت فى الشرق لم تكن لها اهتمامات ثقافيـة كبيرة ·

ويتأكد قصور الاهتمامات الثقافية بالحقيقة القائلة بانه لم تنشأ فى المستعمرات الصليبية مراكز للدراسة أو مراكز ثقافية أو مدرسة أو جامعة وذلك فى عصر كانت كل المراكز الأوربيـة العظمى تزخر بالكليـات والجامعات · وكان الذى يرغب فى تعليم أرحب أفقا يذهب الى أوربا ، على نحو ما فعل مؤرخ المملكة الوحيد وليم الصورى ، الذى كان واحدا من البولان واحتل مكانته بين اكبر مؤرخى العصور الوسطى · وهـذه الظاهرة فى حد ذاتها تشرح السبب فى أن المستعمرات الصليبية لم تصبح أبدا معابر بين الشرق والغرب ، على الرغم من أن هذه المستعمرات ظلت على مدى مائتى عام طلائع أوربا فى شرق البحر المتوسط ·

وثمة استثناء واحد كبير فى المستوى المنخفض فى مجـال الفكر والروح ، وهـو الاهتمام الخاص للنبـلاء بالقوانين العرفيـة للمملكة ، أى القانون الاقطاعى كمـا كان يمارس فى بيت المقدس وقبرص · وكان النبلاء الوطنيون هم المفسرين الرئيسيين لهذا القانون ، وعلى الرغم من أنه يبدو أنه كانت لديهم بعض المعرفة بالقانون الرومانى ـ بالقـدر الذى

يكفى للاقتباس منه على الأقل ـ فان قانون المملكة كان قانونا عرفيا ينتمى الى العصور الوسطى • وكانت سيطرتهم على الموضوع محكمة بحيث ان بعض مؤلفات المشرعين الصليبيين بقيت فى الأعمال القانونية الأوربية • وكلها تقريبا كتب تحوى نصـــوص القانون الاقطـــاعى وظلت تستخدم ويقتبس منها حتى عصر الثورة الفرنسية حين حل القانون الجديد محل القـانون الاقطاعى • وعند قــراءة مقالات جــان الابيلانى Jean d'Ibelin أو فيليب النوفارى Philip of Novara يتأثر المـرء بصيحة الفرح التى يطلقها أولئك المشرعون وهم ينكبون على معالجة دقائق وتفاصيل القانون وتفريعاته وحالات التطبيق المكنـــة ـ وهى نوع من المعالجة الحصيفة المأثورة لدى اللاهوتيين المدرسيين • ويبدو أن هذا الاهتمام بالقانون قد احتوى كل الطاقات الثقافية للنبلاء الصليبيين اذ كانوا يتعلمون القانون وهم فى طـور الشباب بحضـــور المقابلات فى البلاط الملكى أو بلاطات الأمراء ، وخلالها يلقنهم الكبار المبادىء القانونية • بل ان الشاب منهم كان يتعلم تقاليد البلاد القانونية أثناء احدى الحملات العسكرية • وليس أقل أهمية من الاهتمام بالقانون السابق الاشارة اليه حقيقة ان المقــالة القانونية غالبا ما كانت تكتب كدليل على كيفية التحايل على القانون ، وهى ممارسة فى الدقائق لا تهتم بتحقيق العدالة بقدر اهتمامها بكسب القضية • ولا يبدو ان مثل هذه الأنشطة كانت تناسب النبيل الفارس ، الوريث الجـدير بفرسـان المـائدة المستديرة أو لرفاق رولان Roland . ويمكن للمرء أن يقول انه اذا كان النبلاء الصليبيون لم يتأثروا بجراثيم الفلسفة اليونانية ، فانهم على الأقـل ادركوا مواهب الشرق وقد يكون ذلك حكما طائشا الى حد ما اذا ما تحقق المرء من أن هذه الدراســـة للقانون كانت ترتبط بحاجة النبـــلاء الأســـاسية الى تأمين « حرياتهم وحقوقهم الانتخابية » التى كانوا يرون فيها أمرا يرتبط بالحرية الدستورية فى المملكة •

واذا كان بمقدور النبلاء الفرنجة أن يتتبعوا شـجرة نسبهم حتى

موطنهم الأوربى ـ وأن لم يكن احـد البيوتات الشهيرة فى العـالم المسيحى ـ فان سكان المدن على الرغم من القابهم لم يكونوا من سلالة سكان المدن الأوربية • أما الطبقة الدنيا من الجماهير الفرنجية فقد كانوا فى غالبيتهم من سكان الريف ، وقد تركوا أوربا ، اما برفقة احدى الحملات الصليبية ، أو كجزء من موجة من موجات الهجرة ، وكانت هذه الطبقة من المجتمع هى التى تؤلف غالبية السكان الفرنجة ، ولم يكن التحول من حياتهم الريفية والتقلب فى الوظائف امرا هينا • اما الصناع والحرفيون الوطنيون الأصليون سـواء من المسيحيين الشرقيين أو المسلمين ، فقد كان فى مقدورهم أن يقدموا منتجات تتفوق كثيرا وتتوافق مع الحاجات المحلية • ومن المؤكد أن منتجاتهم كانت أكثر رقيا من أى شىء ينتج فى مشاغل الضياع الاقطاعية فى أوربا • وعلى أية حال ، فان سكان المدن كانوا يتمتعون بأنهم قادرون على انتاج البضائع التى تلائم الذوق الأوربى وابتكار الانماط التى يقبل عليها المستوطنون الجدد فى سهولة • كما أنهم كانوا يتمتعون بحقيقة ان المهاجرين الجدد يفضلون أبناء جلدتهم • الا أن هذه الميزة كانت سريعا ما تختفى فى مواجهة منافسة الأسعار المحلية •

كانت هذه الطبقة من المهاجرين هى التى تؤلف الطبقة الوسطى فى المجتمع الجـديد من الحرفيين والتجـار وهى وظائف نادرا ما كانت متميزة • وكان هـؤلاء يلبون حاجـة المجتمع الى الحـائكين وصناع الاحـذية ، والصـاغة والنجـارين والحدادين والطحانين والطباخين والخبـازين ، والحلوانية وصناع الشـموع • وفى الموانىء والأماكن الساحلية ظهرت وتطورت حرف تزويد السفن بالمؤن التى تكفيها طـوال رحلة الأسـابيع الثلاثة الى أوربا • كما ظهرت حرف أخرى جديدة مثل المكارية وسائقى الجمال والسقائين . وباعة التوابل والبخور والعطور ، كما كان من الطبيعى ان تظهر حرف الادلاء وبائعى الذخائر المقدسـة ، والخمارين ، وكان أصحاب الخمارات معروفين فى شتى انحاء العـالم

المسيحى · وكان الحجـــاج والمهاجرون يشكون دائما من وقوعهم فى براثن المحتـــالين · وكانت بعض الحانات ، التى تستخدم كفنـــادق فى الموانىء وفى مراكز تجمع الحجاج ، تستخدم أيضـــا كبيوت للدعارة ، وفى هذه الاماكن ازدهرت حرفة الدعارة والمقامرة بالنرد مما أدى الى انتهاك حرمة أولئك الذين جاءوا سعيا وراء التوبة والمطالب الروحية ·

ومن ناحية أخرى ، كان سكان المدن يحتلون مراتب الوظائف الدنيا فى المملكة ســـواء فى المدينـــة أو فى الادارة الريفية التابعـــة للسيد الاقطاعى · وكان بعضهم على قدر من الالمـــام باللغـــة العربية يمكنه من العمل كترجمان ، على حين كان البعض الآخر ، الأكثر تعليما ، يشغلون وظائف الكتبة أو كتبة الشـــكاوى (العرائض) · ويمكننا ان نتصورهم يجلسون بجـــوار اماكن اقامة السيد أو الأســـقف ، ومعهم مناضدهم ، وزجاجات الحبر وريشهم وشرائط الرق يدبجون الطلبات المتواضـــعة للناس البسطاء ، ثم هناك الواجبات الادارية المنتظمة · اذ كانت كل من المؤسسات الاقطـــاعية والكنسية تحتاج الى النظـــار لادارة الضياع والاشراف على الخدم وعند بوابات المدينـــة وعلى مدخـــل الموانىء كان هناك مجموعة من الكتبة وجباة الضرائب ورسوم الجمارك يقومون بهذه الواجبات وسط ضجيج المساومة والمهاترات ·

وكان ســـكان المـــدن يستأجرون الأركان والسقائف والدكك التى يبيعون عليها من سيد المدينـــة أو من المؤسسة الكنسية ليستخدمونها فى أسواق بيت المقدس الثلاثة وفى أســـواق انطاكية وطرابلس وعكا · وفى السوق كانوا يبيعون بضائعهم ، وثمار حدائقهم والفواكه أو المنتجـــات المشتراة من الريف لكى يعاد بيعها الى سكان المدينة · كذلك كان هناك صرافو النقود من سكان المدن · وغالبا ما كانت هذه المهنة ترتبط باقراض النقود ، كما كانت هى أول مهنة يحتك بها الفرنجى فى عالم المـــال ، أمـــا الأنشطة المالية العليا فقد كانت بعيدة عن متناوله لأن الظروف التاريخية

ابان الفترة الباكرة من الغزو الصليبى جعلت من الميدان احتكارا حقيقا للتجار الايطاليين (ثم البروفنساليين والكتلان فيما بعد) ·

واذا ما بدانا بالحملة الصليبية الأولى وبالعقد الأول من حيـــاة المملكة على وجه الخصوص، حين كان الصليبيون يقاتلون القوى الاسلامية من صقلية حتى البحر الأحمر ، كانت أســـاطيل البندقية ، وبيزا وجنوه ـ اكبر متاجر أوربا ـ أساسية ولا غنى عنها فى غزو المدن البحرية فى سوريا ولبنان والأرض المقدسة · وقد طلب الايطاليون ، الذين تحركوا بمزيج من الدوافع والمثل الدينية والحسابات المادية ·· طلبوا مكافأة عن خدماتهم · والاعـلان الدينى بأن هـذه الأساطيل قد ابحرت الى الشرق لكى تخوض حربا مقدسة وفى خدمة المسيحية لم يمنع ان تضمن هـذه الأساطيل لنفسها نصيبا من الغـزو ليس فقط فى النهب السريع ، الذى لم يكن تجنبه ممكنا ، ولكن أيضا فى الأرباح الأكثر دواما فى شـــكل الحصول على شوارع أو احياء فى المـــدن واعفاءات ضريبية وجمركية وامتيازات الحكم الذاتى والحصـــانة فى حكم مواطنيهم والحفاظ على املاكهم · وهكذا فان كل مدينة فرنجية رئيسية فى شرق البحر المتوســـط ـ باستثناء مدينة بيت المقدس ـ كانت كلها مدنا بحرية وكان يوجد بها عدة شوارع أو شارع واحد على الأقل ينتمى الى أى من الجماعات الايطالية المختلفة · وكان الايطاليون يشكلون الطبقة الثالثة المميزة بين الفرنجـة (الى جانب النبلاء وسكان المدن) وكان وجودهم اضافة الى ذلك الاختلاف فى الأوطان والمزيج من اللغات ·

ولم تنشــأ المستوطنات الايطالية مباشرة بعد الغـزو اذ لم يستقر هناك سوى عدد قليل جدا من التجار فى السنوات الأولى من عمر المملكة ولكن نواة النشاط الادارى من الموظفين الذين تم ارسالهم من المدن الايطالية لحماية حقوقها وامتيازاتها أصبحت شكلا ثابتا منذ ذلك الحين حيث كانت بمثابة موضـــع للقدم · الا أن مستقبلهم كان يعتمد على قدرتهم على

استخدام الاملاك فى انطاكية أو صور أو عكا كقاعدة لأعمالهم التجارية ٠ ولم يكن الواقع مطابقا لتطلعاتهم ٠ وذلك لأن المدن الصليبية الكبرى لم تكن مراكز للانتاج ، ولا يمكن مقارنتها بالقسطنطينية أو الاسكندرية ٠ كما انها لم تكن متنفسا لبلاد داخلية غنية ٠ ومن ثم لم تكن التجارة الأوربية بقادرة على اقامة علاقات مباشرة مع هذه المراكز الاسلامية أو البيزنطية ٠ ومع ذلك ، فان الوضع المميز لجماعات المستوطنات الصليبية قد عوض العقبات الاقتصادية الواضحة ، فعلى سبيل المثال كانت الاعفاءات الضريبية التى تتمتع بها هذه الجماعات التجارية تجعل من المراكز الصليبية محطا مثاليا للتجارة المستوردة من داخل البلاد الاسلامية ــ مثل الموانىء الحرة فى البحر المتوسط فى العصور الوسطى ٠ ومع نمو حجم التجارة وارتياد الأراضى الاسلامية فى عمقها ، بدأ التجار الايطاليون ، الذين كانوا يستخدمون الموانىء الصليبية كمجرد محطات على الطريق ، يطيلون مدة اقامتهم فى شرق البحر المتوسط ، وقامت جماعات معقولة الحجم من التجار الايطاليين باستيطان جميع الموانىء الرئيسية فى الكيان الصليبى فى الشرق ٠

وكانت الكوميونات ، كما اطلق على مثل هذه الجماعات المستوطنة ، عالما غريبا ؛ اذ كانت نوعا من المستعمرات داخل المستعمرات ، فهى أقلية تحيط بها أغلبية ناطقة بالفرنسية ٠ وقد استخدم الايطاليون وأساءوا استخدام « اللغة الأجنبية » ، كما فعل غيرهم فى اتصالاتهم مع رفاقهم الفرنجة ٠ ولكن داخل أحيائهم وفى الساحة ينتقل المرء الى ايطاليا المحبوبة ، فاذا ما تم لهم الحصول على بضاعة من أحد البيزنطيين أو المسلمين ، غالبا ما يكون العمل بين الايطاليين أنفسهم ٠ وهنا يتحدث كل بلهجته الخاصة ، سواء أكان من البندقية أو تسكانيا أو ليجوريا ٠ وكان الموثقون يكتبون باللاتينية أو بفرنسية القرن الثالث عشر فى بعض الأحيان ، ولكنهم كانوا يفكرون على الطريقة الايطالية ٠ وكانت كل الظروف مواتية لتساعد الايطاليين على الاحتفاظ بهويتهم ٠ وكان السيد

الأعلى للكومون ليس فقط مجرد أحد سكان الحى · ولكنه كان ايضا المالك لكل الممتلكات الحقيقية داخل نطاق الكومون · وقد تحولت المبانى الكبيرة المتألقة التى كانت يوما ما سكنا للحاكم المسلم أو البيزنطى أو التركى ، وكذلك البيوت التى كانت ملكا للارستقراطية التجارية المسامة فى المدينة ·· كل هذه تحولت الى قصور فى قوائم الجرد الايطالية واستولت عليها ادارة الكومون ، أما المبانى الكبيرة جدا التى لا تنفع لغرض عملى فقد كانت تقسم الى غرف تؤجر لفترات محدودة ، والى محلات لتخزين البضائع · وكانت تظل خالية طوال معظم العام ولكنها كانت تمتلىء الى نهايتها حين يصل أسطول من أوربا قرب عيد الفصح ·

وأصبح الشارع الرئيسى أو الميدان الرئيسى فى المدينة هو السوق حيث كانت البيوت المحيطة بها تضم عادة بعض الحوانيت والسقائف والمحلات حيث تنتظر البضائع الشرقية دورها فى التصدير الى أوربا ، أو حيث تعرض البضائع المستوردة من أوربا فى انتظار المشترين · وكان التجار يسكنون فى الأدوار العليا · وكانت الحانات والفنادق التى تقدم الوجبات على الذوق الايطالى تنتشر فى كل مكان · وبالاضافة الى ذلك كانت هناك المناضد التى أقامها صرافو النقود وبائعو الأطعمة· والى جانب الدكاكين والمحلات كان هناك مكان للسوق والبازار المغطى ، وكان لكل حى مخابزه الخاصه ، وأفرانه وحماماته · وكانت بعض العائلات الايطالية العاملة فى المال والمصارف ترى أن من المناسب فتح فروع لها فى المدن الصليبية· وكانت العائلات التجارية المصرفية ترسل افرادا من الأسرة التجارية الى فلسطين للقيام بالأعمال المالية الكبرى التى كانت ما تزال أعمالا تقوم بها العائلة ·

وكان مركز الحى هو البلاتزو أو قصر الكوميون الذى يقيم به من يديرون شؤونه ففيه يسكن القنصل أو الفيكومت Vicomte وهو حاكم مرسل من المدينة الأم · ويدعمه مجلس فى تمثيله لمصالح الكوميون لدى سيد المدينة أو الحاكم أو الملك وهو الواسطة بين الكوميون والسيد أو

الحاكم أو الملك ، كما أنه مسئـول عن ادارة ممتلكات الكوميون والحفاظ على امتيازاته فى المدينـــة ، وكان على الموثقين التابعين له أن يقوموا باعداد الاتفاقيات بين التجار ، وعقود الزواج ، وكان على المحلفين ان يجلسوا للحكم أو للفصـــل فى القضـــايا التى تخص مواطنيهم ، وقد يصدرون أحكامهم فى بعض القضايا على الآخرين من سـكان الحى · وكانت الجرائم التى يعاقب عليها بالموت كالقتل والاغتصـــاب تستثنى احيانا من هذا النظام ويقوم حراس السلام المأمورين بالقبض على المتهم ويحيلونه الى السلطات العامة ، وكانت تحدث دائما بعض المشاجرات فى مثل هذه القضايا لأن الايطاليين كانوا بطبيعة الحال لا يرغبون فى أن يسلموا أحدهم الى سلطات خارجية · ولم يكن قانون المحاكم الكوميونية هو نفسه القانون المطبق فى المملكة ، وانما كان هو القانون السائد فى المدينة الايطالية الأم · وكانت الاجراءات تتم بلغة التجار الوطنية ، كما كانت اجراءات التنفيذ معروفة من الوطن الأم فضلا عن ان الاحكام كانت تتم براسطة أقرانهم · وكان لرئيس الكوميون جهازه المساعد من الكتبة والمأمورين · وكان مسؤولية الكتبة تنحصر فى جرد ممتلكات الكوميون كما كان مأمورو المدينـة يعلنون مراسـيم مجلس الكوميون ويشرفون على تنفيذها · ومن آن لآخر كانت تصدر المراسيم التى تحظر ممارسـة الدعارة والقمار ، ولكن فى مثل هـذه الجماعات التى تتكون من التجار الرحل ، لم تكن مثل هذه المراسيم ذات تأثير حقيقى ·

وعلى الرغم من أن المدن الايطالية الأم جنت بعض المكاسب من هذه المستعمرات،فان دخلها الرئيسى من عالم الشرق الأوسط كان يأتى بطريق غير مباشر عن طريق فرض الضرائب الجمركية على أولئك التجار الذين اثروا من تجارة شرق المتوسط فى ايطاليا · بيد أن مثل هذه المزايا غالبا ماكانت تصبح عبئا اذا كانت الكوميونات تدخل فى منافسة حرة فى البر

والبحر · وكان كل منها يحارب الآخر فى سبيل الحصول على الامتيازات والأكثر أهميـة من ذلك أنهم نقلوا المنافسة التجـارية من ايطاليا الى عالم شرق البحر المتوسط · وعلى مدى أكثر من جيل خلال القرن الثالث عشر ، كانت أية مواجهة بين الأساطيل الايطالية القوية تنتهى اما بالقتال أو القرصنة على حيـن كانت أسوار عـكا وصور تردد أصداء ارتطـام القذائف الحجرية · وكانت الاحياء الكوميونية تحيط نفسها بحزام من الأسوار المحميـة بالابراج المحيطة حين تصبح الأحيـاء المجاورة أرضا للعدو · وفى مثل هذه الأحوال يصبح التاجر محاربا كما كان كل مسافر بالبحر يصبح بحارا ·

وعلاوة على ذلك ، كانت السفن والامدادات المرسلة من ايطاليـا تضيف رعب الحصـار البحرى الى القتـال الدائر بين الاخـوة داخـل أسوار المدينـة · وغالبا ما كانت الأبراج والأسوار تنهار وتحرق البيوت وتدمر ، ويحمل عمود حجرى من الانقاض الى المدينة الأم فى ايطاليـا لكى يزين الميدان الرئيسى · وهكـذا كانت مدن الشرق فى الغالب تصبح صورة مصغرة للحياة فى ايطاليا نفسها ·

أما المستوى التعليمى بين الايطاليين ، فمن المؤكد انه كان أعلى منه بين الفرنجة فى المتوسط · وكان هذا هو الوضع أيضا فى أوربـا ولكن المقارنة تصبح حقيقة أكيدة فى أوساط التجار العالميين فالمراسلات والحسابات كانت جزءا من العمل التجارى اليومى ، كما كانت المعرفة بالجغرافيا والاقتصاد متقدمة بشكل يثير الدهشة اذا حكمنا بالكتيبات التى خلفها لنـا التجـار أو بالاختراع الجـديد البورتولانى Portolani وهو عبارة عن خرائط بحرية لتسهيل الملاحة ·وبينما كانت الحرب تتمخض عن قدر قليل من المعرفة بالعدو وأرضه ، فان التجارة كانت تخلق حلقات متصلة من اسكندنافيا حتى الصحراء ، ومن أسبانيا الى بـلاد مـا بين

النهرين · ومع منتصف القرن الثالث عشر من فارس الى الهند والصين · ولم يكن الايطاليون على معرفة نظرية بالبلاد والأراضى فحسب ، وانما كانت لهم ايضا معرفة عملية بالطرق عبر الجبال والوديان والصحارى وفوق مياه الأنهار والبحار · كما أنهم طوروا معرفة دقيقة بوسائـــل الانتاج والبضائع التى تشترى او تباع والضرائب والجمارك التى يجب دفعهـا فى الموانىء الأجنبيـة · فضـلا عن أنهم كانوا يتمتعون ايضـا بمعرفة العملات النقدية وقيمتها المعدنية وأسعار الاستبدال حول العالم ·

وغالبا ما كانت الأحياء الكوميونية تصبح مستودعا لمثل هـذه المعارف التى كانت تتداول شـفهيا ، ثم تدون وتجمع فى كتيبات لتصبح دليلا لتعليم الجيـــل الجديد بأســـاليب فن البيـــع والشراء والقروض والشؤون المالية · وقد يرسل الشاب الايطالى الى سوريا أو أرمينيا أو القسطنطينية لكى ينـــال تدريبه · وقد يستقر حينذاك فى أحـد هـــذه الأماكن ويتاجر لحسابه واذا لم تلح له فرصة الزواج أثناء اقامته فى شرق البحر المتوسط ، أو اذا لم تتوج محاولته بالنجاح ، فقد يعود الى وطنه الأصلى بحثا عن عروس ودوطة ، وهى كانت تدفع عادة فى صورة توابل لا تقبل التلف مثل الفلفل الأسـود أو فى صـورة أحجار كريمة · وفى بعض الأحيان ، كانت بعض العائلات الايطـــالية التى لا ترتبط بموطنها الأصـــلى برباط قـــوى تضرب بجذورها فى تربة الشرق وتصبح أسرة عريقة هناك · ومن الدكان الى السوق ، أو من البنك الى الدكان كانت حياة الايطاليين دائمـا تمضى بين أبنـاء جلدتهم ، بل أن الكنيسة فى الحى كانت ترتبط ارتباطا جزئيا بالنظام الكنسى المحلى ، ولكنها تعتمد على الكاتدرائية فى الوطن الأم ؛ اذ كان القسيس والشماسون يرســلون من البندقية أو جنـــوه أو بيزا ، وكان الايطاليون أو البروفنســـاليون يخاطبون القس بلغته الوطنية الدارجة ، كما كان قداس الأحد يتم باللغة التى يفهمها ·

وعلى الرغم من ان سـكان الكوميونات كانوا مواطنين فى المملكة الصـليبية من الوجهـة النظرية ، فالحقيقة انهم ظلوا مواطنين لمدنهم الأوربيـة الكبرى ، وعلى الرغم من أن الف رابطـة كانت تربط الفرنجة بفرنسا ، فان أحدا منهم لم يكن يعتبر نفسه فرنسيا · ومع ذلك لم يتخل اعضاء الكوميونات عن هويتهم الأصلية · فالاستقرار سويا ساعدهم على الاحتفاظ بهذه الهوية · وكانت هناك أسـباب مادية تدفع بالواحد منهم الى الارتماء فى احضان بنى وطنه · فبعد مائة سنة وحتى بعد مائتى سـنة من تأسيس المملكة ، كان الايطـاليون لا يزالون يتمتعون بنفس الامتيازات التى تمتع بها أولئك الذين شاركوا فى غزو البلاد · ومع أن المـرء يستطيع ان يبرر حقوقهم العقـارية (لأن كل الممتلكات الفرنجية ليست فى حقيقة الأمر سـوى نتيجـة للفتوحات التى تمت خـلال العقد الأول من عمر المملكة) ، فانه كان من الغريب الى حـد ما أن تظل تتمتع بالاعفـاء من الضرائب والرسوم الجمركيـة على مـدى ثمانية أو عشرة اجيال · وهذا الوضع المتميز للايطاليين جعل اية منافسة مع الفرنجـة المحليين ، الذين كانوا يدفعون رسـوما جمركية كاملة ، أمرا لا يمكن التفكير فيه ببساطة · ولا شك ان هذا الموقف ولد كثيرا من الاحقاد لأنه كان من الصعب تفسير سبب وجوب تمتع الايطاليين بوضع متميز دون اسداء اية خدمات ملموسة للمملكة ·

ومن آن لآخـر ، كان حكام المملكة يحاولون التخلص من هـذه الامتيازات الفـادحة والغائها · وكانت الكوميونات تكافح بدورها عن طـريق البابوية (للمحافظـة على امتيازاتها) التى كانت لها مصلحـة واضـحة فى ان تحتفظ برابطـة التحالف مع المـدن البحرية القوية · وهاجم البابوات حنث الملوك بعهودهم هجوما مريرا ، مهددين اياهـم بالحرمان ، وغالبا ما كان الحـكام الصليبيون يستسلمون للضغوط · وكان الجنوية ، بحذق اكثر منه كياسـة ، يدونون مضمون امتيازاتهم

بحروف ذهبية على نصب ويقيمونه فى كنيسة القيامة ! وكانت الطريقة الوحيدة لسحب امتيازات الكوميونات هى انتزاعها بواسطة القضاء العالى من الكوميونات ومنع بيع المنح أو الأراضى التى يحورها سكان المدن لهذه الكوميونات · بل انه حتى عند استخدام مثل هـذه الأسـاليب لم تكن المعارضة تحرز الا نجاحا جزئيا ، لأن الزيجات المختلطة كانت تعود على الايطاليين بالأراضى والممتلكات الاقطاعية والمدنية من خلال الوراثة ·

أما عن مدى درجة اختلاط المواطنين من الأصل الايطالى بالفرنجة المحليين فمن الصعب التأكد منها · فنحن نعرف بعض الايطاليين الذين كانوا يبحثون عن العـرائس فى اوربا ، الا ان الزيجـات مع الفرنجـة المحليين كانت شائعة اذ ربما كانت العائلية الفرنجية ترى انه من المفيد لها ان تزوج بناتها الى التجـار الايطاليين والبروفنساليين · ولم يكن مثل هـذا الاتحاد يعتبر زواجـا غير متكافىء بل كان يعنى خطوة أعلى على السلم الاجتماعى والاقتصـادى · وقصة التاجر الثرى البيزى الذى تزوج احدى بنات الارستقراطية الفرنجية فى طرابلس لابد انها ترددت فى الأسواق الشرقية ، فللحصول على اذن بالزواج من السيدة الشـابة دفع التاجر البيزى الى أهلها النبلاء ما يساوى وزنها ذهبـا ! وهكذا استطاعت مائة وعشرون رطلا من الذهب الخالص ان تسقط هذه الحواجز الطبقية ·

وكانت بعض العائلات الأخرى تدخل الحيـاة الفرنجية ليس عن طريق الزواج وانما عن طريق الأوضـاع الاقطاعية فان عائلة من جنوة مثل عائلـة اميرياتشى ، التى اجر الكوميون املاكهـا فى مدينة جبيل ، قطعت روابطها مع المدينة الأم وصارت جزءا من الارستقراطية الفرنجية · وعلى اية حال ، فانه كان من المتوقع ان يستمر افراد هذه العائلة فى التعاطف مع بنى جلدتهم ومحـاباتهم · وعلى مستوى اجتماعى أدنى ، كانت العائلات الايطالية تدخل فى دائرة الطبقة الفرنجية الوسـطى من

خـلال الزيجات علمنا عنهـا من الوثائق الخاصـة بالمجادلات القانونية حول ما اذا كان العقد يجب ان يكون وفق العادات المحلية أو الايطالية ٠ ومهما كانت درجـة التكافؤ فى الزواج ، فقد ظل الايطـاليون قـوة فى انفسهم ، يحافظون على عاداتهم ولغتهم ومؤسساتهم الأصلية فى الأرض المقدسة ٠

ـ ٧ ـ

قصص الفرسان والأنظمة العسكرية

الفروسية هى أكثر مظاهر روح العصور الوسطى روعة وسموا ، اذ لم تكن هناك فضـــائل قد مجـــدت أكثر ، ولا مآثر تكررت روايتها ، ولا صور أكثر تأثيرا من فضائل مآثر وصور أولئك الفرســان النبلاء ٠ فالكلمة تثير صورة عالم بأثره ، له أسلوب حياته ونظامه الخاص بالتربية ومجموعة من وجهــات النظر وقواعد الســلوك ، كمــا توحى بالماديات المحيطة من بيوت الضياع والحصون والقلاع ٠ وقد ســـادت أخلاقيات الفروسية لأكثر من ثلاثة قرون ، ولا تكاد توجد فكرة أخرى فى الثقافة الغربية ، فيما عدا السلام العالمى ، استطاعت ان تنافس حيوية الفروسية على مدى مثل هـــذه الفترة الطـــويلة من الزمان ٠ بل انه حتى عندما اختفت الفروسيــة كايديولوجيــة متميزة لطبقــة بعينهــا ، ظلت مثلهــا ومبادؤها باقية ٠ وعندما تحجرت بعض هـــذه المثل وجمدت وأصبحت طقوسا بلا روح انتهى بعضها الآخر الى مجرد روابط طنانة مفتعلة على حين تكومت مثل أخرى فى أهـــرام من الرموز لم تلبث ان انهارت تحت وطأة ثقلها ، ومع ذلك ظلت الفروسية تحيا فى وجدان الرجل الجنتلمان وفى مراســـم البلاط وقواعد السلوك التى تناسب المجتمع المتحضر ، وحين خلعت الفروسية ثيابها الخارجية الموشاة ، وفقدت مكانتها وخاصيتها الاستقطابية عند الطبقة الحاكمة ، ظلت الفروسية قوة حيـــة تغلغت فى المجتمع ككل ٠

والفروسية التى يمكن وصفها أحسن وصف بأنها نظام من الأفكار لدى الطبقة الوراثية المحاربة فى العصـــور الوسطى ، لم تكن من خلق

الصليبيين بقدر ما كانت الحروب الصليبية من نتاج الفروسية · ومع ذلك فان الذهاب فى حملة صليبية أصبح جزءا من مثل الفروسية السامية ·

وتعبير الفروسية الذى اكتسب صفة رسمية ، عبارة عن مجموعة من قواعد السلوك ، وجدت على مدى عدة قرون قبل تدوينها وتقنينها ، والحقيقة ، أنه حين بدأ التقنين عند منعطف القرن الرابع عشر ، كان كان نظام الفروسية يقترب من مرحلة نهايته · بيد أن التعبير الأدبى عن المثل الفروسية ، على شكل أساطير تدور حول البطل المسيحى النبيل كان معاصرا لفترة الحروب الصليبية الكلاسيكية أى الحروب التى تمت خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وعلاوة على هذا ، فان اكثر مظاهر مثل الفروسية ، وهو تطوير النظم العسكرية ، كان هو الآخر من اكثر ابداعات الحروب الصليبية والوجود اللاتينى فى الشرق أصالة ·

والقانون غير المكتوب الذى ينظم سلوك الطبقة العليا فى مجتمع العصور الوسطى (أى الطبقة المحاربة) يضرب بجذوره فى المصادر الجرمانية القديمة التى كانت معروفة وشائعة لدى كل الطبقات المحاربة فى المجتمع القبلى · وكان ذلك قانونا يمجد ويثنى على فضائل الشجاعة والولاء · وكانت الشجاعة والمهارة الكبيرة فى استخدام السلاح هى الفكرة الرئيسية فى الملاحم الجرمانية الباكرة ، سواء فى القارة أو لدى الانجلو سكسون · ولكن حتى فى تلك المرحلة الباكرة ، كانت القوة البدنية والجسارة والمهارة فى استخدام السلاح والخداع فى المعارك مصحوبة بضرورة الولاء والعصبية · فالولاء للرئيس ، سيد الحرب وقائد المعركة والعصبية مع رفاق السلاح كانت القواعد العادية التى تحكم المقاتل · ومن الممكن اقتفاء أصول بعض هذه الخصائص الى ثلاثمائة سنة تقريبا قبل الغزوات الجرمانية وذلك فى وصف تاكيتوس

Tacitus لقبـــائل جـرمانيا المشـاغبة ٠ وقـــد سـاعدت الغـزوات الجرمانية ، أو الهجرات الكبيرة التى غيرت خريطة العالم المتحضر فى فجر العصور الوسطى ، ساعدت على تقوية وتدعيم مبادىء المحـــارب الجرمانى الجسور ومثله ٠ فقد اختفت القيـــادة الفردية البطولية ابان الغزوات الا أن المثل ظلت باقيـــة ٠ وربما يكون الحرس الخاص للملك أو القـــائد قد أصبح مستودع هـــذه المثل التى لم تكن احتكارا لطبقة بعينها ، وذلك لأن الطبقة النبيلة التى برزت الى الوجود كانت طبقة نبلاء فى خدمة الملك أو السيد الكبير ٠

ولم يحدث الا فى القرن التاسع والقرن العاشر أن صارت الحرب وقفا على طبقة خاصة وبذلك انتزعت من جماهير العـامة ٠ ومنذ ذلك الوقت انحصرت مثل المحـــارب فى جمـاعة من الصفوة التى أصبحت وراثية تقريبـا عند مطلع القرن الحادى عشر ٠ وقد ســاعدت الوراثة على ظهور عناصر جديدة خـلال عصر تشكيل مثـل الفروسية ٠ فالفخر بمآثر الأجداد قد خلق مفهوم تقاليد العائلة وأسطورة الأسرة النبيلة ٠ وبينما كان أحد العامة يستطيع أن يدخـــل فى الطبقة النبيلة عن طريق اثبات جدارته من خلال عمل من أعمال الشجاعة الا أن هـذا كان مثالا استثنائيا وليس القاعدة فى التغير الاجتماعى ٠ أما طبقة النبلاء نفسها ، التى كانت مستقلة عن التطور المقابل للنظام الاقطاعى ، فقد كانت ذات بناء هيراركى على قمته أمير المقاطعة أو الملك ، أما النبلاء فى المستويات الأدنى ، وصولا الى قاعدة الهرم ، فكانوا يعبرون عن مثلهم من خـلال الولاء للأسرة الحكمة المحليـــة ، وهى فكرة أقـــوى بكثير من الولاء للملكيات الاقطاعية الصاعدة ٠ وقد وجد هـــذا البناء الجديد للمجتمع ومثل صفوته المحاربة التعبير عن نظامه فى التبعية الاقطاعية وفى علاقة السيد الاقطاعى بالفصل ٠ وقد أصبحت هذه العلاقة هى بمثابة الرابطة العاطفية التى ضمنت التماسك فى عالم مضطرب ٠

وعلى الرغم من أن الصيد والقتال كانا هما الشاغلين العاديين لتمضية وقت النبلاء فان فترات السلم كانت تتيح الفرصة للقاءات الاجتماعية غير لقاءات الجيش المحارب أو جماعة الصيد • ففى هذه اللقاءات ـ غالبا فى الأعياد أو لانجاز الأعمال ـ فى بلاط السيد أو فى القلعة يتم تبادل الأسلحة ببعض الحلل من الكتان أو احيانا من الحرير والتفتاه الثمينة المجلوبة من الشرق على أيدى التجار الايطاليين • وفى هذا المناخ الجديد ، بدأت تتطور قيم جديدة ، على حين ظلت القيم القديمة باقية • وأكثر التعبيرات دلالة على هذا التطور هو ظهور المرأة فى ردهات القلعة ليس كخادمات أو مشرفات ، ولكن غالبا كمركز للحياة الاجتماعية وبؤرة للحياة المنزلية لدى النبلاء •

لقد أصبحت العائلة النبيلة الكبيرة الاطار الرئيسى لحياة الفصل • وحتى اذا لم يكن الافصال أقارب من دم واحد ، فانهم كانوا يعتبرون جزءا من الأسرة النبيلة وقد أضيفت العلاقات الأبوية الى العلاقات القائمة أساسا على الولاء الاجتماعى • وكانت رابطة الولاء لمجموعة المحارب السابق تظل قائمة وطيدة غير منفصمة • ولكنها الآن تعنى ما هو اكثر من ذلك ، اذ أنها خلقت « معنى الانتماء » فالواحد يعطى من ذاته ومن عائلته ومن املاكه ، ومن قدراته وعواطفه • ومهما كانت هذه العلاقات أبوية فى مظهرها الا أنها لم تستدع التنازل لأن التعهدات فى كليتها كانت تعهدات متبادلة • فالسيد مدين لرجله أو تابعه بقدر ما يدين الرجل لسيده ـ فيما عدا التبجيل ـ وقد كان هذا التعبير المستخدم لتعريف نوعية هذه العلاقة • وقد كانت هذه العلاقة اكثر عمقا من تلك العلاقة التى عرفها العصر السابق • ذلك أنها كانت تعكس نمطا جديدا من العلاقات الانسانية ، تلك هى علاقات الأسرة الاقطاعية الكبيرة ، التى يتحمل المرء فى ظلها مسؤولية الحرب من اجل الآخرين وليس فقط فى لحظات الحرب المحرجة •

وعلى الرغم من أن هـــذا الشكل الجديد من العلاقات كان يضرب بجدوره بعيدا فى أعماق الماضى ، فانه سرعان ما خلق مجموعة من القيم وانماط السلوك الخاصة به · اذ أن التجمع فى البلاط ادى الى ظهور فن المجاملات وهو السلوك المناسب لوجود النساء اللاتى صرن سيدات آنذاك · واذا ما استعرنا مصطلحات النظام الاقطـــاعى فانهن اصبحن dominae أو فى تعبـــــير آخـــــر Les dames · اذ كـــن يـــزين الاستقبالات فى البلاط ويجلسن على رأس المآدب ويضفن الرونق والبهاء على الاحتفـــالات · وسرعان ما لعبن دورا رئيسيا فى أكثر مظــاهر الفروسية روعة وهو المبارزات أو المبـاريات · وهكذا ظهر الى الوجود عالم جديد من السلوك والأحاسيس والاذواق فى أورقة القلعة الاقطاعية فى أوربا العصور الوسطى · فالأروقة المظلمة الكئيبة التى كانت تنار باضواء المشــاعل التى تلقى بظلالهــا والتى تفـوح منهــا رائحـة الوشيك على الوجبات الهائلة التى ينكب عليها المحاربون فى نهم ــ هذه الأروقة صارت مليئة بالضـــوء والضحكات · والمطرب المتجول أو الشـاعر الذى كان ما يزال حتى ذلك الحين يغنى للبطولة ومهارة الأبطـال فى اسـتخدام السلاح ، وقتالهم الضارى وشهيتهم النهمة ، أخذ يقدم موضوعات جديدة فيما يقدمه · اذ أخذ يتغنى بالحياة والحب ، والطبيعة والشباب · وصار شاعر الملحمة البطولية هو المغنى المتجول أو التروبادور Troubadour . وتهذبت صورة البطل البربرى العملاق ، كما صـارت المشـاعر الجياشة كالتفانى فى الحب والاخلاص موزعة ما بين السيد الاقطاعى وسيد القلب أى من يملكه ·

(٢)

ومع غروب شمس القرن الحادى عشر ، خضعت صـــور الصرع والقتـال لتعـديلات جـوهرية فأعمـال نيبيلونج Nnbe lungs ، ومآثر بيـــوفـولف Beowulf ، ومعارك القادة والزعماء الحربيين للقبائل ، اتخذت منذ تلك الحين معنى جديدا كان بمثابة البشير بروح الحركة الصليبية ؛

فقد حدد مجرى القتال فى اتجاه بعينه ، فالحرب الفوضوية المستمرة بين الجيران ، الأعداء ، قد كبح جماحها بفعل ايديولوجية جديدة لا تسمح لأحد ان يحارب جارا مسيحيا أو يهاجم بغية الثار أو تحقيق المجد . وعلى اية حال ، فقد تمثل التحول الحقيقى فى أن الحرب منذ ذلك الحين فصاعدا ، لم تجد قبولا فحسب بل بوركت وشجعت اذا ما كان لها هدف أخلاقى . اذ ان الكنيسة أخذت تعارض أى نوع من اراقة الدماء التزاما منها بتعاليم الكتاب المقدس . وعلى الرغم انه منذ عصر أوغسطين وجدت الحرب مبررا لها فى مبدأ الدفاع عن النفس أو الحرب العادلة ، فان الكنيسة شجبت النشاطات العسكرية من حيث المبدأ . بيد أن مثلها كانت قليلة الجدوى أو لم تكن ذات جدوى حين غزا البرابرة الامبراطورية الرومانية وأخذت القبائل المتصارعة تقتل بعضها الأخرى . وحتى عندما استعادت أوربا قدرا من الاستقرار تحت حكم شارلمان ، لم تفعل الكنيسة شيئا سوى اعادة طرح موقفها السلبى من اراقة الدماء . وفى القرن التاسع ، دعا البابا المحاربين المسيحيين الى الدفاع عن روما ضد المسلمين الكفار الذين استولوا على البحر المتوسط وأقاموا رؤوس معابر على الأراضى الأوربية فى أسبانيا وفرنسا وصقلية . الا أن هذا كان موقفا استثنائيا ، ولم تغير موقفها العام . وفى القرن الحادى عشر بدأت حملة شعبية لادانة تجاوزات النبلاء . وحوالى الوقت نفسه ، على اية حال ، وقبل الحملة الصليبية الأولى بثلاثة اجيال تقريبا ، حدث تحول ملحوظ فى موقف الكنيسة ، أو على الأقل فى موقف بعض من يمثلونها . ولم تكن هذه هى المرة الأولى أو الأخيرة التى تعدل فيها الكنيسة من رأيها لتضفى صفة الشرعية على امر واقع . فقد كانت على استعداد لقبول واستيعاب النظام القائم فى المجتمع ، على الرغم من أنها املت شروطها الخاصة لاستسلامها الجزئى . اذ أن الكنيسة كانت على استعداد لمباركة الحرب والمحاربين اذا استطاعت ان تحدد دوافعهم وأهدافهم .

وحسب هذا المفهوم الجديد ، كان الرجل المحارب أو « رجل الدماء » منوطا بوظيفة اجتماعية : هى أن يدافع عن الفقراء والأرامل واليتامى · ومرة أخرى لجأت الكنيسة الى مبادىء الكتاب المقدس واشترطت ان تكون الحرب من أجل سبب عادل ، مثل حماية الضعيف من عدوان القوى · وهكذا فان الدافع البدائى الى القتال قد وجه ليصبح ذا فائدة اجتماعية · وحين طبق هذا على الظروف القائمة ، كانت هذه فكرة ثورية· ذلك لأنه فجأة ، أصبحت طاقات المحارب غير المحدودة وسلوكياته الجامحة وتعطشه لاراقة الدماء ، أمرا مستهجنا ، وتحول مفسدو الأمس ومشاغبوه الى حراس للمجتمع · وبينما كان النظام الكنسى يضمن الرعاية الربانية ويبشر بالأخلاقيات الأساسية فى مجتمع نصف بربرى ، باتت الطبقة المحاربة نظاما فى المجتمع وظيفته حماية غير القادرين والضعفاء · ولم يعد استخدام السلاح غاية فى حد ذاته ولم يعد مدعاة للفخر ، بل صار وسيله لغاية ، وأصبح الحق فيه مرتبطا باستخدامه فى قضية عادلة ·

ويبدو أن طبقة المحاربين كانت على استعداد لمواجهة التحدى حالما ترفعه الكنيسة · وتمثلت النتيجة فى التحول الجوهرى الذى طرأ على الرجل المقاتل · فالجندى الرومانى كان قد أصبح اسما مميزا خاصا بصفوة المقاتلين من الفرسان (لأن ذلك اللقب كان لا يشمل المشاة أى الجنود الذين يحاربون على أقدامهم) · ومن ثم فانه فى العصور الوسطى الباكرة كانت كلمة جندى تعنى الفارس Chevalier أو Ritter كما أسماه الانجلوساكسون والفرنسيون أو الألمان · وخلال القرن الحادى عشر صيغ تعبير جديد هو Miles Christians ومعناه الفارس المسيحى ، الذى كان يجمع ما بين اخلاقيات المسيحية والتقاليد الحربية الجرمانية · وسرعان ما شقت ايديولوجية الفروسية المسيحية الجديدة طريقها بسهولة من خلال تراث شعراء العصور الوسطى · فادانة الأفعال الشريرة ، وحماية الضعيف والدفاع عن شرف

السيدات وعفتهن ، أصبحت هـــذه هى الموضوعات التى تدور حولهـا اشعار القرن الثانى عشر · ووجدت أروع تعبيرتها الأدبية فى الروايات التى نسجت حول الفروسية · وأياما كانت أصول هذه الروايات ، فانها جميعاً كانت تحتفى بالمثل نفسها لأن الفروسية الأوربية لم تكن مرتبطة بوطن واحد ، أذ كانت نوعا من الأخوة العالمية ، وســمحت للفارس أن يشعر بأنه فى وطنه فى أى بلاط فى العالم المسيحى · ولم تكن الحروب ممنوعة ، الا ان القتال كان يسير وفق قواعد متفق عليهـا · وفضلا عن ذلك كله ، فان الفروسية كانت تعنى ضـمنا مجتمعا من الرجـال الذين يربضهم شعور بالانتماء الى طبقة مشتركة ، ويعيشون وفقا لأنماط سلوكية معينة ، ويشتركون فى العمل من أجل أهداف ومثل مشتركة ·

وسرعان ما يجد بطل الروايات الخيالية التى تدور حول الفروسية نفســه مضطرا الى ترك وطنه للوفاء بالالتزامات الملقــاة على أفراد طبقته · ولابـد له من محاربة عمالقــة متعطشين للدماء أو ليقاتل تنينا شريرا ، منقذا بذلك عفة السيدات وشرفهن ، وأرواح الضعفاء من كارثة أوشـــكت أن تحل بهم · ولكنه يجب ان يجوب طول البلاد وعرضها ، ويقوم بأعمال الشجاعة والجسارة بحثا عن الكأس المقدسة الأســطورية (الخرافية) ، التى أستقبلت دم المخلص المقدس وهو على الصليب · كمـا أن أســـماء بلانشـــفلير Blanchefleur ، وايزولدا Isolda ، وبرســــفال Perceval ، وتريســـــتان Tristan ، والملك آرثر King Arthur ، وجــــاوين Gamain ، ولانســــلوت Lancelot (*) وكثيرين غيرهم ســوف تشـغل عالم التجربة المكتشف حديث والذى يشمــل المغامرة والحب والأراضى المجهولة والسعى وراء

(*) أســماء ابطال الروايات الخيالية التى نسجت فى العصـــور الوسطى حول مواضيع المغامرة والحب والترحال فى بلاد غريبة لتحقيق طموحات وأهداف مستحيلة · (الترجمة)

اهداف لا يمكن تحقيقها ٠ وحلت محل أروقة القلاع المظلمة حقول الربيع والزهور والجداول المائية والمقابلات المرحة السارة ٠

لقد كانت للحروب الصليبية بصمات واضحة فى تطور الفروسية ٠ ذلك ان هذه الحروب قدمت الفرصة الأولى للفرسان فى جميع انحاء العالم المسيحى لكى يجتمعوا سويا من أجل هدف مشترك ٠ فالحروب الصليبية غذت الاحساس بوجود أخوة مسيحية عالمية فى السلاح ، وغيرت مفهوم أوربا من منطقة جغرافية الى تراث ثقافى مشترك ٠ وسرعان ما وجدت الأعمال البطولية طريقها الى المدونات التاريخية ، ثم تسربت الى المغنين المتجولين الذين أخذوا فى تمجيد نمط جديد من الأبطال ، هو الفارس المسيحى ، مبعوث الكنيسة فى الحرب الظافرة ضد الكفار من اجل الكنيسة وتحت رايتها ٠ ومالبث الذهاب فى حملة صليبية أن صار جزءا من قانون الفروسية ٠ وجعلت الضغوط الاجتماعية ، والانماط التربوية ، ومتطلبات الرأى العام من المشاركة فى الحرب الصليبية التزاما واجبا على كل نبيل يعتد بنفسه ٠

وكل مجتمع يهتم باستمرار مثله وأسلوب حياته ، وهو كلام يصدق أيضا على مجتمع النبلاء فى العصور الوسطى ٠ فمثال الحياة من ناحية ، والتعليم الرسمى من ناحية أخرى كانا يؤكدان على نقل المثل من جيل الى جيل وعلى استمرار أسلوب حياة النبلاء ٠ فالمدارس بالمعنى الحديث للكلمة لم تكن معروفة تقريبا فى المجتمع العلمانى ٠ وكان التعليم متأثرا بالبيئة لدرجة أكبر كثيرا مما هو الحال الآن ٠ ولكن البيئة كانت بيئة مختارة لأداء مهمتها ٠ ففى سن مبكرة للغاية ، حين يكون الطفل قادرا على البقاء بعيدا عن رعاية الأم يجب أرساله الى منزل آخر من منازل السادة الاقطاعيين ٠ وهناك يتعلم أصول العقيدة على يد قسيس ، ويتعرف على حياة الأسياد التى سيحياها مستقبلا ٠ وعلى الرغم من ان أى بيت من بيوت السادة الاقطاعيين كان يضم عددا كبيرا من الخدم ،

فان أولئك الأطفال الصغار كانوا يعينون لخدمة أحد الفرسان ، وغالبا ما يكون من عائلة السيد أو أحد أفراد حاشيته · وهكذا يعتاد على أشغال النبيل اليومية ، ابتداء بالعناية بالخيل وتلجيم الفرس حتى العناية بالسلاح والدروع · كما كان يركب للصيد ـ لقضـــاء وقت الفراغ وتدريب شبه عسكرى فى نفس الوقت ـ مع معلمه وأهل المنزل · وفى سن مبكرة يبدأ التدريب على ركوب الخيل والقتال بالسيف والرمح والدرع · وفى الوقت نفسه يقدم التابع الصغير الى مجتمع النساء ، كما يتعود على جوانب أكثر رقة من الحياة الاجتماعية ·

وعلى الرغم من أن التعليم الدينى لم يكن شـــاملا ، فانه كان بكل تأكيد التجربة الروحية الكبرى التى يمر بهـا الشـــاب الصغير · فان تعاليم العقيـــدة وقصص الكتاب المقـدس ، وترتيل المزامير ، وطقوس الأعياد الكبرى فىالتقويم المسيحى ، وتراث القديسين المحليين ، والأديرة والكنائس كانت هى أكثر المؤثرات قوة على مستقبل حياته من عدة وجوه· ولم تكن القراءة والكتابة شائعة حتى فى أوساط النبلاء ، وان كان بعض النبلاء قد أعدوا للحياة الكنسية مما يسر لهم فرصة التعليم منذ الصغر · وعلى أية حال ، فان عددا قليلا للغاية من النبلاء هم الذين كتبوا خطابات شخصية أو رسمية ، فغالبا ما كان يقوم بهذا العمل كاتب أجير · وقد كانت القراءة أكثر شيوعا ، وكانت القراءة تعنى معرفة اللغة اللاتينية ، التى حفظت لنا معظم تراث أوربا · فضلا عن أنه لما كانت اللاتينية هى لغة الكنيسة ، فان معرفة اللغـة ولو بشكل سطحى على الأقـل ، كانت ضرورة لابد منها ، على الرغم من أنه ليس من المشـــكوك فيه أن يكون النبيل عارفا حافظا لأكثر الصلوات والابتهالات شيوعا ·

وفى زمن الحملة الصليبية الأولى ، وربما قبل ذلك بجيل أو جيلين ، بدأ تدوين الأدب باللغات الوطنية ـ بالألمانية أولا ثم بالفرنسية فالأسبانية ثم الايطالية ـ التى لقيت منافسة قوية من اللغة اللاتينية · ولأن اللغات

الوطنية قد وجدت استجابة لنمط جديد من المجتمع ، فان الأدب الشعبى قد عكس ازدياد اعداد من يستمعون اليه · كمـــا عكس عادات جديدة واشكالا جديدة للحياة الاجتماعية · وهذا ، بدوره ، أوجد مطالب جديدة بتعليم ابنـاء البيوتات النبيلة · ولأن التجمعـــات التى كانت تحضرها السيدات كانت كثيرة ، فقد تعين على التابع الاقطاعى الشاب أن يكون ملما بعادات واخلاقيات البلاط · ولم يكن هذا يتضمن السلوك الخاص فحسب ، ولكنه كان يتضمن المهارات والمعرفة المطلوبة بالانماط الجديدة للسلوك الاجتماعى أيضا ·وكان يتوقع من التابع الاقطاعى انينظم الاشعار، او على الأقل ان ينظم قصائد المناسبات ، وان يغنى لصحبته · وهــذه المهارات الثقافية ، مع ضروريات اللطف المجاملات ، كانت القاسم المشترك لتعليمه المادى والذى كان اهم شىء على الاطلاق بالنسبة لمستقبله ·

ووفقا لمقولة شـــائعة ، فان ركوب الخيل كان يبدأ حالما يستطيع الطفل المشى · اذ كان الركوب ضرورة باعتباره رمزا للمكانة الاجتماعية· كما أن اداء الرجل فى القتال ومهارته كانا يعتمدان على مدى قدرته فى السيطرة على فرسه · وكان الركوب من اجل المتعة والصيد بمثابة تدريب للشبان الصغار على استخدام السلاح · فالسيطرة على القوس والسهم ، وهو اقل اهمية فى التدريبات العسكرية ، كانت هامة أثناء الصيد بالكلاب أو الصقور · ثم يتبع ذلك امساك الحربة أو الرمح وقذفهما مستخدما درعا وممسكا بقضيب أو سيف أو خنجر · وكانت عناصر الاستراتيجية والتكتيك يتم تحصيلها عن طريق المثل الحى حين يرافق التابع الاقطاعى الصغير أحد الفرسان فى واحدة من الغارات الاقطاعية التى لا تحصى والتى يتم فيها تدمير المحاصيل فى حقول احـد الســادة الاقطاعيين المجاورين · ويراقب معارك الحصون وفن الحصار ، على الرغم من أنه

نادراً ما كان يشـــهد فن نصب آلات الحصـــار ، مما كان ينمى معارفة العسكرية ٠

وهكذا كان الرجل الشاب يترعرع فى اطار مزدوج للحياة ، القتال وحياة البلاط ٠ وتقدم الروايات الخيالية التى تدور حول الفروسية وأغانى العصور الوسطى ، واشـــعار البلاط هذين الجانبين للتعليم ، والهدف المزدوج للحياة ، كما تقدم مستويين مختلفين للوجود ، وتوقفنا على قيم البطولة ومثل مجتمع البلاط المترف ٠ فالجانب الأول يعلن عن فضـــائل الاســـلاف من انصـــاف البرابرة على حين يكشف الجانب الثانى عن فضـــائل مجتمع يعاصر الصـحوة الأدبية وسرعان ما سيخلق اعاجيب الرومانسية والقوطية فى العمارة والنحت والرسم ٠

ونادرا ما كان الســـلوك فى البلاط يتأثر بالدين ٠ وقد اتخـذت أكثر من رؤية شاكة لبعض مثل البلاط كتلك المثل التى تفصل الحب عن الزواج ٠ فالحب الذى يدفع بالرجال الى الاتيان بالمعجزات ، كان من المفروض ان يوجد بين زوجة السيد الاقطاعى التى يصعب الوصول اليها وبين التابع الشـاب ٠ وســواء أكان هـذا الموقف ، الذى غالبا ما يرد وضعه فى اشعار ذلك العصر ، ابداعا أدبيا قصد به ان يضيف عنصر الدراما أو المأساة ، أو انه كان يعكس ممارسة عامة للبلوغ والمراهقة ، فان حقيقـة الأمـر لا تزال مجـالا للتخمين ٠ ومن المحتمـل ان الحنين والشوق بين السيدات النبيلات والشباب لم يكن يصل الى حد التنهيد والغراميات ، ولكنه كان يخلق اطارا مزدوجا من التناســق الوثيق : الزواج العرفى وانشـاء عائلة من أجـل استمرار السلالة الحقيقية ذات الدم الأزرق ، والحب (الحب الرومانسى) الذى يترعرع خارج اطـار الزواج ٠ ومن المؤكد ان الكنيسة لم تكن تتعاطف مع هذا الأسلوب فى الحياة ، بيد أنهـا لم تكن تستطيع التدخل بأكثر من الدعـوة الى العفة

والتهديد بالحرمان • ومع ذلك ، فعلى المـرء ان يضع دائما فى اعتباره حقيقة ان مثل هـذا النمط من العقلية والسلوك كان محصورا فى دائرة محدوده جدا فى المجتمع •

ومن ناحية أخرى ، كما ذكرنا من قبل ، كانت الكنيسة تتولى زمام تحويل الرجل المحارب الى فارس مسيحى وعندما أصبحت مهنة العمل فى السلاح مهنة معترفا بها ، أخذت الكنيسة تتدخل فى أعظم حدث فى حياة النبيل ، وهو تتويجه فارسا • فلم يكن هناك ما هو اقرب الى قلب الناس فى العصور الوسطى من المراسم والطقوس والرموز • فقد كانت هده العقلية جزءا من تراث الاعتقاد السابق فى سحر الطقوس والكلمة المنطوقة ، كمـــا كانت حصيلة الحياة فى عالم توجهه العناية الالهية ، ومع ذلك فما يزال الشيطان واتباعه يسكنونه ويؤثرون فيــه ، وهو عالم لا يمكن للغة أن تصفه الا بصعوبة ، على حين يمكن للرموز ان تعبر عنه فى سهولة ، وغالبا ما كانت هذه الرموز تؤخذ من الحقيقة ذاتها • وفى هذا الخصوص ، صار تنصيب الفارس اعلانا عن أن الشاب قد أصبح رجلا ، كما صار هذا التنصيب أيضا طقسا يؤدى بالرموز والاشارات الرمزية ، وهو نوع من التعليم الدينى المكثف وتلقين للفضائل التى ينبغى ان يتمسك بها الشاب الذى أصبح فارسا •

وعلى الرغـم من ان تنصيب الفارس كان يرتكز فى أساسه على العادات القبلية الخاصة بطقوس البلوغ ، فان عناصر الاحتفال الأصلية اختلطت آنذاك بالاضافات التى حولت الفعل الاجتماعى والعسكرى الى طقس تعميد مسيحى ـ تعميد ثان ، يتم من خلاله اقرار البالغ بالالتزامات التى يفرضها عليـــه تلقيه للسر المقــــدس • ومثل اى طقس دينى كان لتنصيب الفارس جوانبه التأملية والطقسية • ففى أكثر أشكاله تفصيلا كان التنصيب يبدأ بقضاء التابع ليلة فى الكنيسة وفى أثناء هـذا كان

المفروض عليه ان يتأمل حياته المستقبلة ويفكر فى الفضائل التى ينبغى عليه ان يتمسك بها والرذائل التى يجب ان يتحاشاها • وكان هذا العزل الليلى فى رحاب معبد الرب هو المقابل للندم فى طقس التوبة ، كما كان فى الوقت نفسه علامة تحول فى حياته • والحمام الذى يأخذه صباح يوم التنصيب يقابل طقس التعميد فى انه طقس طهارة من الناحية الرمزية والطقسية ، وهو يعتبر مدخلا للتابع الاقطاعى الى المجتمع الجديد ـ ليس جماعة المؤمنين فى هذه المرة ، وانما هو مجتمع الأخوة المسيحية للمحاربين الأرستقراطيين • وكان الاعتراف وصلاة القداس فاتحة الحدث الكبير • وتعلن الملابس الجديدة المتألقة فى بياضها ، والتى كانت تلبس فى هذه المناسبة ، عن طهارة القلب والقصد • وكانت جميع هذه الاستعدادات مأخوذة من الكنيسة • وعلاوة على ذلك ، كانت الكنيسة تتدخل فى جوهر الطقس ، فمنذ نهاية القرن الحادى عشر فصاعدا كان القسيس (ويمكن القول القسيس الذى يشرف على حفل التنصيب) يبارك الرموز المادية للفروسية كالسيف والحربة أو الرمح الطويل التى كانت تشمل تقريبا جميع حاجيات المحارب ، فيما عدا المهماز ، وكانت كلها تسلم اثناء حفل التنصيب •

وكان الجزء الفعلى عن الانعام الفروسية يتم على يد رجل مسن من الفرسان • وقد يكون والد الشاب او احد اقاربه • ولكن غالبا ما يكون احد من اشتهروا بمسلك الفرسان ، وفى بعض الحالات كان تنصيب الفارس يتم على يد احد رجال الكنيسة • وكان الرجل الذى يقوم بالاحتفال يساعد التابع الاقطاعى الشاب فى تقلد السيف ، ثم يعطيه حربته وخوذته ومهمازيه ، ويركع الشاب على ركبتيه ويتقبل منح درجة الفروسية او ضربة على كتفيه ، وهو عمل رمزى معناه ليس معروفا بشكل واضح • ووفقا لاحدى النظريات ، كان المقصود به تذكرة الشاب بالحادث الجليل فى حياته ، وحسب نظرية اخرى ، كان ذلك برهانا على

ان الرجل يستطيع ان يتحمـل الضربة • وأيا كان الأمر ، فقد كان من المفروض ان هذه هى المرة الوحيدة فى حياة الفارس التى يتحمل فيهـا الضربة دون هجوم ودون أن يردها •

ومن الطبيعى ان روعة احتفال تنصيب الفارس كانت تعتمد على مكانة العائلة • ففى بيوت الأمراء يصير احتفالا رئيسيا ، على حين انه كان احتفالا متواضعا فى المستويات الأدنى ، وعلى الرغم من الميل الى تقنين شكل الاحتفال ، فان ثمة تقليد آخر اقـدم ، وربما اكثر اصـالة ، لتنصيب الفارس وتدشينه فى ساحة القتال حين يثبت شـجاعته ، كان لايزال موجودا • وظل هذا طريقا ، وان كان ضيقا ، للانتقال وقد سمح حتى لأبناء العامة بالدخول فى زمرة النبلاء •

ومع طلوع فجـر القـرن الثانى عشر ، صـار الدفاع عن الدين وحمـايته من بين الواجبات الجديدة المنوطة بالفارس • اذ كان رجـل العصور الوسطى يتطلع الى الامبراطور هرقل والى شارلمان باعتبارهما مثالين لامعين للمدافعين عن الدين • وسرعان ما ظهر مثـال جديد فى الخيال الشعبى ، ذلك هو مثال المكابيين ، الأبطـال العظام فى التاريخ المقدس الذين دافعوا باجسادهم عن العقيدة ضـد الوثنيين الدنسين • وكان فى مقدور المرء ان يقاتل البروسيين الوثنيين على حدود المانيا او بولندا او يحارب المسـلمين فى اسبانيا ولكن لم يكن هناك شىء اكثر تمجيدا للمرء من الخروج الى الحرب فى الأرض المقدسة • فالحرب من اجل الدين ، ومن اجل تحرير قبر المسيح المقدس او الدفاع عنه قد صـار جزءا لا يتجزأ من قانون الفروسية • وقد كان ذلك التزاما دينيا بقـدر ما كان التزاما على الفـارس • فالرحيـل عن الحبيب فى زمن الحملـة الصليبيـة الثالثـة ، جعـل كانون دى بيتـون Canon de Béthune يعلن : « ••• وا أسفاه أيتهـا الحبيبة الجميلة ، يا له من فراق يمزق

القلب ٠٠ فراق بعيد عن أجمـــل وأروع من حظى بالحب والخدمة منذ الأزل ٠٠ يجب على أن اذهب الى ســوريا متنهـدا وعاشقا لأنه لا ينبغى لأحد أن يخذل خالقه ٠٠٠ وليكن معلوما للعظيم والحقير على السواء أنه هناك يقوم المرء بأعمال الفروسية ٠ فهناك يربح المرء الفردوس والشرف ، والمكافأة والثواب كما ينعم بحب الحبيب » ٠

الفردوس والشرف ، الثواب والحب ـ هى مكافآت الحياة الدنيا والبركة الأبدية ٠ فقد تداخلت التعاليم الدينية مع مبادىء الفروســـية وارتبط السماوى بالأرضى فى قانون منسجم متسق للحيــاة ٠ ومرة بعد الأخرى تظهر المثل المتداخلة فى الشعر المعاصر ، مؤكدة على أن شرف العالم المسيحى فى خطر ٠ فان سيطرة أعداء بيت المقدس الأبديين عليها يجعل من الحياة المسيحية حياة كلها الخزى والعار ٠ والفرسان الذين ينضمون الى الحمـلات الصليبية يفون بواجباتهم ليس تجـاه أنفسهم فحسب ، وانما تجاه العالم المسيحى بأسره ٠ ولنقتبس من كانون دى بيتون مرة أخرى حيث يقول : « ان القساوسة والشيوخ الذين سيقومون بأداء الأعمال الطيبة وفعل الخيرات سيكون لهم جميعا نصيب فى الحج ، وكذلك السيدات ، اذا ما عشن حياة العفة واحتفظن بالولاء لأولئك الذين فارقوهن هناك » ٠ ويضيف مستدركا وكأنه يضيف عـدة سطـور لا شك أنهـــا كانت ماثلة فى عقـــول كثير من الصليبيين ، اذ يقول : « ولكن اذا ما ارتكبت السيدات الخطيئة ـ فيا للأسف ـ لأنهن سوف يخطئن مع الجبنـــاء والاشرار ، لأن كل الطيبين من الرجـــال سيكونون فى رحلة الحج » ٠ وسيتردد هذا التفكير الانسانى مرة أخرى بعد ذلك على لسان شـــاعر التروبادور الفـــرنسى رتبييف Rutebeuf ، الذى تعرض بالاهانة لكل من عارض الحروب الصليبية ، بما فى ذلك أولئك الذين كان الرحيل عن شخص يحبونه يمثل عقبة كبرى فى سبيل مشاركتهم ٠

ومنذ لحظة حمل الصليب والقسم بالمشاركة فى الحرب الصليبية

حتى لحظة الرحيل كان الوقت يستغرق فى تمويل البعثة ، والعثور على الرفاق ، وربما أيضا فى اختيار قائد للرحلة · وقد كانت هـــذه المهـــام سهلة عندما كانت الحملات الصليبية الكبرى تعلن من قبل البابا ، ويقوم على رأسها الملوك أو الأمراء · ولكن فيما بين هذه الحملات الكبرى ، شقت أعداد لا تحصى من الفرســـان وعامة الناس طريقهم الى الأرض المقدســـة ، مستمتعين بمكانتهم الخاصـــة كصليبيين وهى المكانة التى انعمت بها الكنيسة عليهم · وكانت هـــذه الامتيازات تتضمن ليس فقط غفران الخطايا والذنوب وحماية أرواح المشاركين واملاكهم ، بل وتجميد الديون والمصـــالح حتى عودتهم ، والذهاب فى حملة صليبيـــة مثـــل كل شىء آخر فى قانون الفروسية تحول الى طقس يتم فى احتفال خاص · وكان هذا الاحتفال يبـــدأ بأن يقطع الفارس على نفســـه قسما بالالتزام بالرحيل الى الأرض المقدسة ، ويدير الاحتفال قسيس أمام جمع من الناس فى القلعة أو الضيعة · وكان على الصليبى أن يخيط صلبانا حمراء فى معطفه أو سترته ، غالبا ما تكون على كتفيه وظهره وصـــدره · وكانت هذه علامة على ان الصليبى عازم على الحرب لا لسبب سوى مجد الدين والصليب · ولكن غالبا ما كانت تمضى سنة أو أكثر قبل ان يتمكن الفارس من الاستعداد الحقيقى للسفر ·

وكان الاحتفال بالرحيل يتم فى كنيسة القلعة أو فى كنيسة أو دير قريب وبعد الاعتراف والتنـــاول يأخذ الصليبى أســـلحته ، والسيف والحربة ، والدرع والعلم التى باركها القس فى المذبح · ومن هنا يتوجه فى صحبة العائلة والجيران والفلاحين الى بوابة القلعة أو حدود ضيعته ، وكان الفراق صعبـــا فالناس فى العصور الوسطى ، على الرغم من أنهم كانوا دائمـــا على سفر ، نادرا ما كانوا يتغيبون عن بيوتهم مدة طويلة ، ما لم يكونوا تجارا محترفين (وحتى فى مثل هذه الحال كانت عدة شهور بعيـــدا عن المنزل تعتبر مخاطرة خارقة للعـــادة) · فالذهاب الى الأرض

المقدســة عادة ما كان يعنى غيــاب سنتين ، وغالبا ما كانت السنتان تمتدان لفترة أطول • وبطبيعة الحال ، كان هــذا يحدث اذا كان الرجل محظـوظا بحيث يقــدر له أن يعــود ؛ لأن آلافا وعشـرات الآلاف لم يعودوا أبدا • اذ مات البعض على الطريق من المرض أو الأرهاق ، على حين وقع البعض الآخــر فى عرض البحر أســير القراصنة المسلمين (والمسيحيين احيانا) ، ناهيك عن أولئك الذين قتلوا فى ساحات المعارك فى ارمينيا وسوريا ومصر والأرض المقدسة او وقعــوا فى يد المسلمين ينتظرون سنوات طويلة حتى تحين الفرصة لكى يعلم أقرب ملوكهم بأمرهم ويطلب افتداءهم بالمــال • ويصف جوانفيل Joinville ، كــاتب قصــة حياة القديس لويس الشهير ، رحيله للمشــاركة فى الحملة الصليبية بقوله :

« فى يوم جمعه قلت لهم : أصــدقائى ، اننى ســارحل قريبا عبر البحار ، ولا أعلم ان كنت سارجع على الاطلاق • ولهذا فهل لى ان أسأل اذا كان أى منكم له دعوى ضــدى فليتقدم • واذا كنت قد اخطأت فى حقكم فسأحول خطأى الى حسنة ، ولكى لا أؤثر على قرارهم انســحبت من المناقشة ، ثم وافقت بعد ذلك بدون تردد على ما أوصوا به • ولأننى لم اكن أرغب فى أن احمل معى نقودا لا استحقها ، فاننى رهنت الشطر الأكبر من أرضى • واستطيع ان أؤكد لكم انه فى يوم رحيلى عن بلدى للذهاب الى الأرض المقدسة لم يكن معى دخــل يزيد عن الف ليفر من ضياعى • وفى اليــوم الذى تركت فيه جوانفيل أرســلت الى رئيس دير كيمينون ، الذى قيــل عنه انه احكم رهبــان النظام السسترشيانى واكثرهم أمانة • وهذا الراهب نفسه هو الذى ناولنى عصا الحج ورقعة الشهادة • وتركت جوانفيل بعد ذلك مباشرة ــ فليس لى ان ادخل قلعتى ثانية حتى عودتى من الرحلة عبر البحار ــ على الاقدام وساقاى عاريتان وأنا أرتدى قميصى ، وقد ذهبت وأنا فى هــذا الــزى الى بليكورت Blécourt وســان اريــان Saint Urbain والى أمــاكن اخــرى

حيث توجد بعض الذخائر المقدسة · وعلى طـــول الطريق الى بليكورت وسان اريان لم ادع عينى تلتفتان الى جوانفيل مرة اخرى على الاطلاق ، خوفاً من أن يمتلىء قلبى بالشوق لقلعتى الحبيبة وطفلى اللذين تركتهما خلــفى » ·

هكذا كان الواحد منهم يترك وطنه بقلب مثقل بالهموم وهو يرحل عن اهل وبيته · وثمة قصيدة ســـاحرة مؤثرة صاغتها سيدة شـــاعرة مجهولة ربمـــا كان اسمها جان دى نيفيل Jehan (Jeanne) de Neuville وتتكون القصيدة من السطور التالية :

أورشليم ، لقد سببت لى الكثير من المعاناة
لقد اخذت من تملكنى حبه
لذا اعلمى اننى لن أحبك ابدا
لأنه ما من شىء مثله ادخل على البهجة
وغالبا ما اشعر بمدى كآبتى وغضبى
لأننى اقف فى وجه الرب
الذى إنتزع منى أعظم افراحى
ايها الحبيب الحلو كيف تسمح
بعذابى وانت هناك عبر البحر الملح ؟
لا شىء يستطيع وصف الألم الذى يعصف بقلبى
حين اتذكر وجهك الحلو الصافى
الذى اعتدت تقبيله ومعانقته
انها لمعجزة اننى لم افقد صوابى

مثل هذه المشاعر فى سياق الحملات الصليبية تشرح لنا قطعة فنية فريدة من النحت ترجع الى القرن الثانى عشر محفوظة فى متحف الكوردلبير فى نانسى ، ومن المحتمل انها تمثل شخصية تاريخية هو الكونت فندوم Vendôme الذى التحق بجيش مليكه لويس السابع فى الحملة الصليبية الثانية ، ولكنه لم يعد مع العائدين بعد ذلك بسنة (١١٤٨) وبعد أن اقيم الحداد عليه ، واعلن أنه مفقود ، ونسى الناس ذكره عاد الى موطنه بعد خمسة عشر عاما · والنحت يصور اعادة جمع شمل الكونت العائد ·· وهو ما يزال فى ثيابه المهلهلة ، مرتديا الصليب ومعه عصا الحج ـ وزوجته · وتبدو الأجساد المتعانقه فى اللوحة المنحوتة كما لو كانت اندمجت فى كتلة صخرية واحدة ـ صخر صامت ولكنه اكثر تعبيرا من اى فصل فى رواية من روايات الفروسية ·

ويمكن قياس مدى قوة الرابطة بين الفروسية والحروب الصليبية من خلال الحقيقة القائلة بأن هذه الرابطة ظلت على قوتها لمدة قرنين من الزمان · هذه الرابطة ظلت ـ بحساب العصور الوسطى ومصطلحها ـ هى القوة الدافعة لحركة مستمرة تجاه الشرق على مدى ما يقرب من عشرة أجيال متتابعه · بل انها ستبقى حيه على مدى قرنين آخرين حين اخذت شكل حملات صليبية عسكرية ضد المماليك ، والمغول والأتراك ، على الرغم من ان نهايتها كانت تلوح فى الأفق ·

وهناك شىء يأخذ بالألباب حول أولئك النبلاء الذين جذبتهم مغامرة الفروسية فى العصور الوسطى · فلا شك انهم كانوا يتحركون بدافع من عقيدة مسيطرة على الرغم من أن المرء قد يشك فى مدى عمق تدينهم · اذ كانت العقيدة جزءا من نظام تربيتهم وحياتهم اليومية ، وهى حقيقة لا يرقى اليها الشك كانت تفرض نفسها على الأعياد والمواسم وعلى كل الأحداث الجسام فى حياة الناس من المهد الى اللحد · لقد ولدت الحركة الصليبية من رحم الدين كما أن الدين استعاده توقده بفضل الحروب

الصليبية ، ذلك ان محاربة الكفار وتحرير الضريح المقدس أو الدفاع عنه لم يكن مجرد شعار ، أو مجرد تبرير للحرب والقتـال ، وانما كان جانبا من جوانب الحيـاة الداخلية وشـعورا بالالتزام داخـل كل انسان ٠

وأيا ما كان الأمر ، فان أولئك المحـاربين العظماء الذين تربوا على الكتاب المقدس وقصص الفروسية الخيـالية ، كانوا هم أيضـا جمهور رؤية التروبادور الطائشـة للحيـاة ، وهى نظرة كانت تبشر صراحة بالاباحية والزنا ٠ ولم تكن ثمة علاقة موضوعية رابطة بين الاثنين سوى واقع الحياة التى يمكن للمرء ان يمارس فيها الاثنين دون أن يضطر الى الموائمة بينهما ٠ ومهما كانت الاحتمالات ، فان كثيرين كانوا ينتهجون السبيل الذى أوضحته بعض الكتابات ذات الصبغـة الأخلاقيـة فى ذلك العصر ـ وهو سبيل الندم عما حدث فى سن الطيش وتجاوزات الشباب ومع ذلك فالممارسة المزدوجة للفروسية ومطارحة الغـرام لم تكن هى الشكل الوحيد للسلوك ٠ واذا كانت مطارحة الغرام أضافت سحر الحب ومتعة الجنس الى الواجبات القاسية للمحارب المسيحى عند الغالبيـة العظمى ، فان البعض كانوا يرون ذلك أمرا دنيئا ٠ وكان رجال الكنيسة والعلمانيون المتزمتون يرون فى هذا المستوى المزدوج للأخـلاق أمرا ممقوتا ٠

واذا كانت بروفانس ، بما اشتهرت به من اعلاء لشأن الحب ، قد أسرت الشمال ، فالأرض المقدسة تفاعلت مع الغرب بأسره ووضعته رهن محبسها حين خلقت ايديولوجية جـديدة من الفارس المسيحى الكامل ٠ فان أحلام هذا الفارس لم تكن حافلة بصورة الحب الفانى ، وانما برؤى الحب المقدس ، حب الله الخالد الذى لا يفنى ٠ وكانت التعاليم الأخلاقية والفضائل المسيحية التى يلقنها المرء فى طفولته تقوى ويشتد أزرها من خلال الارتباط بالأرض المقدسة ، التى صـارت مهد النظم العسكرية ٠

واكثر ابتكارات الصليبيين والحملات الصليبية اصالة هى النظم العسكرية التى كانت مجالا لتحقيق الايديولوجيتين الكبيرتين فى أوربا العصور الوسطى فى أدق صورة ـ وهما حياة الرهبنة الديرية وحياة الفروسية ـ واصبحت نظم الرهبنة العسكرية واحدة من أكثر التعبيرات شمولا عن طباع العصور الوسطى ٠

والفكرة الكامنة وراء نظم الرهبنة العسكرية لم تنشأ بين القساوسة أو الرهبان ٠ فقد كان المبادرون بانشائها من العلمانيين ٠ وكانت هذه النظم أحد المجهودات الباكرة الخلاقة لطبقة النبلاء فى مجال الاخلاقيات والايديولوجيا ٠ فبعد ان استولى الصليبيون على بيت المقدس مباشرة ، جمع فارس بروفنسالى يدعى جيرالد Gerald مجموعة من الفرسان لرعاية المرضى والجرحى ٠ فقد كانت الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى الملقاة فى الشوارع ماتزال تملأ المدينة حين بدأت مجموعة من الفرسان الصغيرة عملها الخيرى فى مستشفى فوقت ٠ ولم يكن مفهوم العلاج والمستشفى مفهوما جديدا ٠ ففى سنة ١٠٧٠ م تقريبا قامت مجموعة من تجار امالفى Amalfi الذين كانوا يترددون على شرق البحر المتوسط باستمرار ، بتأسيس مستشفى للحجاج الغربيين فى بيت المقدس ٠ وتوقفت أعمال العلاج والمستشفى أثناء فترة الحصار ، وتم اجلاء الرهبان والراهبات الذين كانوا يعنون بالمرضى الى خارج المدينة ٠ والحقيقة ان اعادة احياء هذه المؤسسة الجديدة انما تم على يد العلمانيين ـ وليس الرهبان والراهبات ـ الذين أخذوا على عاتقهم مهمة رعاية المرضى والفقراء والمعوزين ٠ فالاحسان ، كما كانت نظرة النبلاء اليه ، كان يعنى اعطاء الصدقات للمحتاج ، وعادة ما كان هذا مرتبطا بالعطف والاكرام ٠ وقد تلى التصوير الكلاسيكى المتأخر للصراع بين الفضائل والرذائل مناظر تصور الملك والنبيل فى زيارة مريض ٠ ومن المؤكد أن الرعاية لم تكن تنصب على المرضى شخصيا ٠ وهكذا

حققت المجموعة الصغيرة التى التفت حول جيرالد فى بيت المقدس مساهمة فريدة من نوعها فى مجال الوعى الاجتماعى ·

وتمركز الفرسان من المدخل الجنوبى حتى منطقة الضريح المقدس · واستولوا على كنيسة بيزنطية عجيبة من دورين تميزها كنيسة صغيرة ثلاثية الاضلاع · وكان القديس الحامى للكنيسة هو القديس حنا مانح الصدقات John Almsgiver السكندرى · ولكن الصليبيين استبدلوه بيوحنا المعمدان الذى كان أكثر شعبية ــ بطبيعة الحال ــ من سلفه · ثم ادمج مبنى الاستشفاء الذى كان يتبع تجار أمالفى من قبل باسم سانت مارى فى مجموعة من مبانى المستشفى سرعان ما امتدت لتشغل حيا كاملاً من أحياء المدينة · وفى دولة فى حالة حرب يزورها آلاف الناس كل عام ، كانت العناية بالمرضى والجرحى ضرورة ملحة · وما لبثت ان وصلت الهبات والعطايا من الحجاج والبيوت الملكية والنبيلة فيما وراء البحار لتدعم المركز المالى للجماعة ·

وهذا الرابطة المتطوعة من المثاليين اتخذت لنفسها القواعد التى تحكم أية رابطة ديرية · وقطع أعضاؤها على انفسهم قسما ثلاثيا بالفقر والعفة والطاعة · وعلى مدى ما يقرب من جيل بدا وكان مستقبل هذا التنظيم سيكون مؤسسة ديرية له أهداف علاجية · وقبل ذلك ، وفى داخل أية مؤسسة ديرية لا يختلف النبيل ــ على الأقل من الناحية النظرية ــ عن أى راهب آخر ، على الرغم من أن مولده وتعليمه قد يكونا من عوامل ترقيه ووصوله الى مكان مرموق ، مثل رئيس الرهبان أو مقدم الدير · ولكن فى بلد يتسم بهذا القدر الكبير من المهاجرين مثل المملكة اللاتينية فى فلسطين ، وكان من الصعب الحفاظ على القواعد التى تفرق بين النبلاء وغير النبلاء · والخلاصة أنه اذا لم يكن تنظيم القديس يوحنا قد انتهج هذا المنهج فى التطور وظل يحافظ على التفرقة بين الاثنين ، فقد كان

ذلك لأن رابطة جديدة من النبلاء أخذت فى الظهور فى الوقت نفســـه ، وهى جماعة الداوية .

وتنـــظيم الـــداوية (المعبـــديين Templars) ـ وقد سموا بهذا الاسم لأن مقرهم الاول كان فى هيكل ســـليمان فى القدس (فى المسجد الأقصى) قام على أسس مختلفة فى افتراضاتها ولكنها كانت أكثر ملائمة للطبقة الاجتماعية التى أنضم أبناوها الى هـــذا التنظيم . وقـــد أسسه هـــــوف البـــاينزى Hugh de Payns ، الذى جمع مجموعة صغيرة من الفرسان فى رابطة متطوعة لتقـــدم خدماتها فى شـــكل قوافل مسلحة تخدم الحجاج فى طريقهم من القدس الى مدينة أريحا ومنها الى الأماكن التى شهدت تعميد المسيح فى الأردن . ولم تكن حالة عدم الأمن العامة التى سادت خلال العقدين الأولين من عمر المملكة ترجع فقط الى الحدود التى تفتقر الى وسائل الدفاع والتحصينات . فقد كان هذا الشعور بعدم الأمن مسيطرا تماما داخل حدود المملكة ، لأن جماهير سكان الريف ظلوا من المسلمين ، ولم تكن الدولة الصليبية قادرة على فرض سيادتها على السكان الا بقدر ما لديهـــا من قـــــوة . وظل المســـلمون على عدائهم للصـــليبيين ، بل أن بعضهم غادروا مواطنهم وهاجروا الى ســـوريا ومصر ، بينما البعض الآخر ، كمـــا نعلم من احدى المدونات الصليبية ، تركوا فلاحة أراضيهم مفضلين العيش على حافة الموت جوعا . وبذلك يحرمون الغزاة المكروهين من يصادر الدخل . وكان السفر يمثل مخاطرة جسيمة فى الأراضى الجبلية والتلية فى منطقة الجليل ، وهـــو ما كان يحرمون الغزاة المكروهين من مصادر الدخل . وكان السفر يمثل مخاطرة محفوفة بالأخطار . ولم يكن الموقف أفضـــل على الطريق الرئيسى من ميناء يافا الى بيت المقدس عبر ســـهل الرملة . ولحماية الحجاج ، نظم الداوية قوافل مسلحة أصبحت جزءا من الوجود الصليبى .

هذه الرابطة العسكرية الباكرة سرعان ما تطورت الى جماعة من المتطوعين ، وربما تكون بعض القواعد الاولية قد وضعت بالفعل على يد مؤسسها عام ١١١٨ م · وادمجت رسميا فى قواعد التنظيم عند حصوله على موافقة الكنيسة · ولقيت الرابطة الجديدة مساندة معنوية من سان برنار الكليرفوى St. Bernard de Clairvaux الذى كان يمثل أعلى سلطة روحية فى ذلك العصر · وفى كتيب صغير يسمى « فى مديح الفروسية الجديدة » ، ترك لنا برنار وصفا للنمط النموذجى للفارس من نظام الداوية ، الذى يختلف عن الفارس العلمانى · فقد كتب يصف الفارس الدنيوى الذى ينكب على الحياة الناعمة ويبحث عن المجد الشخصى ، يقول :

« انكم تكسون خيولكم بالحرير ، وتغطون دروعكم بكسوة براقة · كما أن حرابكم ملونة ، وكذلك دروعكم وسروجكم · كما انكم تطعمون مهاميز خيولكم والجمتها بالذهب والفضة والأحجار الكريمة · ومع كل هذه الفخامة تتحركون فى غضب مخز وغباء قح الى ميدان المعركة · هل هذه هى المظاهر التى تناسب الفارس ، أم هى زينة تناسب النساء أكثر ؟ هل تظنون حقا ان سيف العدو سوف يحترم الذهب ، ويبقى على الأحجار الكريمة ، ولا يخترق الثياب الحريرية ؟ لقد علمتنى التجربة ان المحارب يحتاج الى اشياء ثلاثة : يجب ان يكون فارسا شجاعا ، يقظا حريصا حتى يحمى نفسه ، كما يجب أن يكون سريعا خاطفا مستعدا على الدوام لتوجيه ضرباته الى الخصم · ولكنكم على النقيض تماما ، فقد ارسلتم شعوركم لتطول كشعور النساء لدرجة انها تحجب نظركم ، كما انكم تقيدون حركتكم بسبب السترات الطويلة الفضفاضة وتدفنون اياديكم الناعمة الرقيقة فى اكمام طويلة ترفرف حولكم » ·

اما « فارس الرب » من الداوية فيصفه ويزكيه زعيم أوربا الروحى بقوله : « اولا ، نظام وطاعة لا مثيل لهما ، فكل واحد منهم يغدو ويروح

وفقا لمشيئة قائده · وكل منهم يرتدى الملابس المعطاة له ، ولا يبحث أحد عن طعام أو ملابس ارضاء لنزواته · ففى مسائل الطعام والملابس يقنع الواحد منهم بما هو ضرورى متجنبا كل ما هو زيادة عن الضرورى · وهم يعيشون فى جماعة ، ينعمون بالسرور فى رزانة دون زوجة أو ولد · ولكى يصلوا الى الكمال الانجيلى ، فهم يعيشون فى البيت نفسه وبالطريقة نفسها دون أن يدعوا ملكية شىء ، حريصين على الحفاظ على وحدة الروح فى ظل روابط السلام ·

أما الكلمات البذيئة ، والمشاغل التى لا معنى لها ، والضحك الخارج ، والضحكات البلهاء الهامسة أو حتى المكتومة ، فهى غير معروفة · ويكرهون الشطرنج والنرد ، ولا يحبون الصيد ولا يستمتعون بتطيير الصقور · وهم يحتقرون الممثلين الصامتين والحواة ، والقصاصين ، والأغانى الماجنة والعاب المهرجين ـ فكل هذه أمور يعتبرونها عبث ولهو باطل ، وطيش سخيف · وهم يقصرون شعورهم لانهم يعلمون أنه من المخزى للرجل أن يرسل شعره · وهم لا يزيدون أبدا فى ملابسهم وهم نادرا ما يستحمون وهم لذلك قذرون مشعرون وقد لوحت جلودهم الشمس وطول السفر · »

وقد أحرز التنظيم الجديد نجاحا هائلا · فقد جنده الملك والنبلاء المحليون لأنه كان يسد احدى حاجات المملكة الملحة · وقد ظل قسم الفقر الذى قطعه الفرسان المؤسسون على انفسهم باقيا كقوة دافقة للفرد · ولكنه لم يكن كذلك على المستوى الجماعى · فالأعلام البيضاء والصلبان الجديدة للفرسان الداوية سرعان ما أصبحت رمزاً للقوة والثروة · وربما كان نجاح التنظيم متوقعا ، لانه ادمج الايديولوجيتين الكبيرتين فى ذلك العصر ـ الرهبنة والفروسية · وكان عضو الداوية قادرا على ممارسة معظم ميوله الطبيعية ـ التى كانت نتيجة لبيئته

الاجتماعية ولتعليمه ـ تحت رعاية الكنيسة مع معرفته التامة بأن وظيفته العسكرية مكرسة لمجد الرب العظيم · وهنا كان ثمة ادماج للفروسية والأخلاقيات بالنسبة لأولئك الذين تبنوا رأيا أكثر جدية لمعنى الحياة المسيحية وواجبات النبيل المسيحى · وكان النبيل والفارس يقبلون فى شغف على الالتحاق بالتنظيم الجديد فى أوربا · على أمل ان يأتى يوم ينتقلون فيه الى هيئة أركانه ومجال نشاطه الأساسى فى المستعمرات المسيحية فى الشرق · أما أولئك الذين لم تكن مشاعرهم قوية بالقدر الذى يدفعهم الى الالتحاق بالتنظيم لمدى الحياة سرعان ما كانوا يجدون الوسيلة التى تمكنهم من الالتحاق به بشكل مؤقت حيث يخدمون لعدة سنوات · وكان الشعار المرسوم على لواء الداوية ، البوسان Beauseant · يحمل آية من المزامير تقول : « ليس لنا ، أيها الرب ، ليس لنا ولكن لاسمك امنح المجد » ·

وسرعان ما خرجت اسطورة تحكى عن العراقة الاعجازية للتنظيم ولم يعد Hugh de Payns هو مؤسسه وانما ارجعت أصول هذا التنظيم عبر الزمان الى الف ومائتى سنة الى أيام المكابيين الذين أعادوا تأسيس الهيكل وتولوا الدفاع عنه · فأولئك الأبطال الوطنيون اليهود الذين حرروا بلادهم من الحكام الهيللنستيين فى سوريا فى القرن الثانى قبل الميلاد ، والذين طهروا بيت المقدس واعادوا بناء الهيكل قد صاروا أسلافا للفرسان الداوية ·

وكان لظهور الداوية ونجاحهم المدوى انعكاساته السريعة داخل تنظيم القديس حنا · فهذا التنظيم الذى كان قد تأسس منذ جيل مضى كان عليه ان يواجه منافسة قوية بسبب حرارة القبول الذى لقيه التنظيم الجديد تنظيم الداوية · وقد واجه الاسبتارية هذا التحدى بأن أضافوا أعباء عسكرية الى التزاماتهم ، وسرعان ما أخذت الرايات السوداء

والصلبان ذات النقط الخمس مكانها كعلامة مميزة لفرق الاسبتارية وسوف تشكل ، ليس فقط جزءا من جيش المملكة ، وانما اصبحت - وهى وفرق المنظمات الأخرى - تشكل جيش المملكة الضارب • وحين تكون هناك ضرورة لتعبئة الجيش الاقطاعى لمواجهة اية طوارىء ، تكون نظم الرهبنة العسكرية جيشا من الفرسان المتأهبين دائما والمستعدين دائما للعمل •

ومنذ منتصف ثلاثينيات القرن الثانى عشر لم يقم التنظيمان فقط بامداد المملكة بالفرق العسكرية ، ولكنهما أيضا كانا منوطين بالدفاع عن المواقع العسكرية الرئيسية • فالنقط القوية والابراج والحصون سلمت جميعها للتنظيمين • وما لبثت شبكة الطرق والمواصلات كلها أن خضعت لدورياتهم التى تولت اعمال الحراسة • فضلا عن انه منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، ومع تفاقم التهديد الاسلامى ، تمركزت فرسان الداوية والاسبتارية فى القلاع والحصون الضخمة التى كانت تحمى حدود المملكة والمستوطنات الصليبية الشمالية • ففى امارة انطاكية ومقاطعة طرابلس ، كانت مناطق الحدود كلها تقريبا مواجهة بالدول الاسلامية وتولت حراستها فرق الفرسان من نظم الرهبنة العسكرية • وفى ظروف المستوطنات الشمالية خلقت نظم الرهبنة العسكرية دويلات مستقلة لها سياستها الخارجية المستقلة • وكان على الأمراء الصليبيين أن يعترفوا بأن معاهداتهم مع المسلمين المجاورين لن تكون سارية المفعول بدون موافقة نظم الرهبنة العسكرية •

وازاء الأهمية المتزايدة لنظم الرهبنة العسكرية وقوتها وثروتها المتنامية يعجب المرء لما حدث للمثل الراقية فى نكران الذات والفقر وهى المثل التى كانت تتأكد بقوة بالقاب مثل « فرسان المسيح الفقراء » أو « خدام الفقراء والمسيح » •و من خلال الامتيازات والهبات اصبحت النظم العسكرية ثرية ، فقد كان الاسبتارية يملكون ثمانى عشرة ضيعة فى

أوربا · أما الداوية الذين كانوا لا يكادون يقلون عنهم ثراءا فمن سخرية الأقـــدار انهم أصبحوا صيارفة أوربا الكبار فى القـــرن الثانى عشر ويتنافســـــون مع البيوت الماليـــة فى ايطاليا بل ومـــع اللمباروبين Lombards و Cahorsins أشـــهر مــرابيى العصـــور الوســطى · فمن ناحية ، كانت ســـلامة حصونهم وابراجهم ذات الحراســـة القوية والمسماة بالمعابد على سبيل الاختصـــار ، تضمن أمن الودائع ، كمـا ان مكانتهم كأعضاء فى الكنيسة حولت أملاك النظم الى ملاذ وملجأ ضـــد التدخل العلمانى · ومن ناحية أخرى ، ســهلت فروع التنظيمات العديدة عملية نقل الالتزامات والديون من مكان لمكان دون نقل المال نفســه عبر الطرق والبحار المحفوفة بالأخطار · فالودائع والمنقولات كانت تدر ربحا ، على حين استخدم رأس المال السائل المتراكم فى اقراض الملوك والأمراء · والا غرو ، اذن ، فى أن أوربا كانت تكيل المديح وتصب اللوم على هـــذه التنظيمات فى آن واحد · فقد كان المديح يوجه الى شـجاعة أعضائها ، ومهاراتهم العسكرية واخلاصهم للعالم المسيحى · ولكن هذا الثناء كان يقابله انتقادات مريرة لثراء هـــذه التنظيمات وأطماعها وادانة للصراع الذى كان يضعف من استقرار المملكة الصليبية ويؤثر على استمرارها فى الوجود ·

ولـــم يؤسس الاســـبتارية أو الداوية دويلات مستقلـــة فى أماكن المستوطنات الصليبية الأصلية ، ولكن الداوية أصبحوا تقريبا هم حكام قبرص فى القرن الثالث عشر ، على حين كان الاسبتارية يحكمون رودس ومالطة حتى فتحها نابليون · ولكن ثمة تنظيممشابه كان ينمو فى بطء مكونا تنظيما جديدا مع نهاية القرن الثانى عشر ، الا أن مصيره كان مختلفا · فقد واجهت سوريا ولبنان والأرض المقدسة ـ التى كانت أرض الهجرات والاستعمار الصليبى ـ مشكلة اندماج القادمين الجدد · فقد كانت سيادة العنصر الفرنسى الاجتماعية والثقافية شاملة تقريبا · وعلى الرغم من

أن اللغة اللاتينية كانت تستخدم فى المراسلات ، فقد كانت اللغة الفرنسية منذ البداية هى اللغة التى يتحدث بها السكان . وكان الايطاليون يتكلمون بلهجاتهم فيما بينهم ولكنهم كانوا يستخدمون الفرنسية فى اتصـــالاتهم الخارجية . وبينما كانت اللغة الفرنسية المستخدمة فى وسط وجنوب فرنسا هى اللغة المستخدمة فى المملكة اللاتينية ، كانت انطاكية تستخدم الفرنسية النورماندية ، على حين استخـدمت طرابلس الاوكسيتانيـة Occitan أو البروفنسالية . وظهرت مواقف لم يكن استخدام اللغة الفرنسية فيها كافيا ؛ فقد كان المرضى والحجاج ، لا سيما العامة منهم ، يبحثون عن أحد يتحدث بلغتهم الوطنية . وفى مثل هذه الظروف نشأت فى القرن الثانى عشر مستشفى ومجموعة علاجية مكرسة لسان مارى ، التى هى جزء من تنظيم القديس حنا ، وهو ما أصبح نقطة تجمع للحجاج المتحدثين باللغة الألمـانيـة .

وكان المستشفى الألـــانى ، على الرغم من كونه جزءا من تنظيم القديس حنا ، يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى . فقد كان له رئيسه الخاص . وقد توقفت أنشطته بسقوط القدس فى يد صلاح الدين عام ١١٨٧م . وقد أثار سقوط العاصمة أوربا أوربا فأخذت تنظم حملة عسكرية جديدة هى الحملة الصليبية الثالثة .وفى أثناء الحصار الذى استمر حول عكا لمدة ثلاثة أعـــوام وبين آلاف الجرحى الذين أصيبوا فى المعارك أو المرضى الذين سقطوا بسبب المنـــاخ أو الجـــوع ، ظهرت الحاجة الى مستشفى خاص للعناية بالصليبيين المتحدثين بالألمـانية فقام التجار والبحارة الوافدون من البحر البلطى ،وبريمين وهامبورج ، بتأسيس مستشفى ميدان أولى ، وهو عبارة عن مبنى خشبى تم بناؤه من اخشـــاب السفن المحطمة وتحميه أقمشة الأشرعة من الشمس والمطر . وعندئذ ، كما حدث منذ مائة سنة قبل ذلك فى تنظيم القديس حنا ، كرست مجموعة من الفرسان والقساوسة

الألمـان أنفسهم لعمـل الخير ، وبعد ذلك بسنوات قليلة صارت المؤسسة الأولية نظاما عسكريا جديدا هو نظام الفرسان التيوتون ، فرسان سان مارى التيوتون الذى مزج الأغراض العسكرية بالخدمات الخيرية ·

وهكـذا أصبحت التنظيمات الثلاثة تتحكم فى العالم الصليبى فى القرن الثالث عشر ، وبينمـا كانت الاسبتـارية والداوية يحافظون على هويتهم العالمية صار التنظيم التيوتونى الأداة الفولاذية للتوسع الألمـانى · وشارك الفرسان التيوتون ، كما هو الحال بالنسبـة لفرسان التنظيمين الآخرين ، فى جميع الحروب والحملات العسكرية فى الأرض المقدسة ، فقد استحوذوا على الأرض والقلاع مثـل قلعـه مونتفورت Montfort فى الجليل ، بيد ان قلوبهم كانت فى مكان آخر ، فان روابطهم المباشرة مع المانيا قد وجهتهم تجاه المانيا الشرقية بدلا من المسيحية الشرقية · وقد حاولوا دون جدوى ان يقيموا لأنفسـهم رأس جسر فى هنغاريا ، ولكن عنـدما دعاهم كونت ماسـوفيا Masovia البولندى (١٢٣١) تمركزوا بنجاح فى حزام بروسيا البلطيقى واضعين بذلك أساس مملكة بروسيا فى المستقبل وحجر الزاوية فى المـانيا الامبراطورية ·

وسرعان ما وجـد مفهوم المقاتل ـ الراهب سلسلة من المقلدين · فثمة نظام عسكرى على وجه الخصوص ، على الرغم من أنه لم يصل أبدا الى مكانة التنظيمات الكبرى ، له من الغرابة ومن نمطيـة بيئة الصليبى ما يجعله جديرا بالاهتمام · هـذا التنظيم هو تنظيم سـان لازاروس St. Lazarus الـذى قام فى بيت المقـدس فى منتصف القـرن الثانى عشر · ويشير اسمه الى سماته وخاصيته المتميزة ، لأنه كان تنظيم الفرسان المجذومين فقد كان مرض الجذام الرهيب مرضـا بلا عـلاج ، ويبدو أنه كان منتشرا فى الشرق الأدنى ، ولأنه كان يعتبر مرضا معديا فقد كان ضحاياه يعزلون عن العالم خارج أسوار المدينة وبوابات القلعة · وقد توصل الصليبيون الى حل آخر · هو مستشفى مغلق خارج القدس

ولكن ملاصق لأسوارها واصبح مستعمرة للمجذوبين • ولكن فرسـانه وعامته نظموا انفسهم فى تنظيم عسكرى • ويمكن للمرء ان يتصـورهم وهم يهاجمون المسلمين ، ويبثون الرعب بسبب بسالتهم العسـكرية من ناحية ، والتهديد بالعدوى من ناحية أخرى •

ويجب ان نمر سريعا على التنظيمات الأصغر التى قامت فى المملكة الصليبية ـ مثل التنظيمات العسكرية للفرسـان الايطاليين او التنظيم الانجليزى لفرسان سان توماس الكانتبورى ـ على الرغم من أن أيا من هذه التنظيمات لم يلعب ابـدا دورا رئيسيا فى المملكة • والأهم من ذلك تلك الحقيقة القائلة بأن الفكرة التى نبعت اصلا فى الأرض المقدسـة ، تمسكت بها أوربا ، وبالاضـافة الى التنظيمات الدولية الكبرى ، ظهرت نظم رهبة عسكرية محلية ، لا سيما فى الأراضى التى واجهت عدوا مسلما أو وثنيا • وهكذا ، فان اسبانيا والبرتغال ، ثم ليتوانيا وبولندا فيما بعد ، كانت لها تنظيماتها المماثلة التى قامت على غرار المثـال الفلسطينى • وقد لعبت بعضها دورا فى تاريخ شـبه الجزيرة الايبيرية ، بينما لعب البعض الآخر دورا فى تاريخ شرق البلطيق • فقد كانت هذه التنظيمات العسكرية قوة محورية للملكية التى استعانت بها فى بناء الدولة والمجتمع فى جميع الاحوال تقريبا • واختفاؤها عند غروب شـمس العصـور الوسطى أو بداية حركة الاصلاح الدينى لم يثر اى احتجاج لدى الرأى العام • فمنذ ذلك الحين لم تعد الرهبنة والفروسية ذات اهميـة • وفى القـرن السـادس عشـر نزل سرفانتس Cervantes بالفارس العظيم الى مجـرد دون كيشوف ، الفوضوى المضلل الذى قام بمغامراته فى عصر يصف الفارس الدنيوى ، الذى ينكب على الحيـاة الناعمة ويبحث عن النهضة •

- ٨ -

القلاع والشؤون الحربية

ان الأقليــة التى تسعى الى حكم أغلبيــة معادية ليس أمامهــا من ســبيل لضمان وجودها سوى أن تتمركز فى اعداد صغيره نسبيا وفى أماكن حصينة ، ســـواء كانت مدنا او قلاعا • وعلى الرغم من ذلك فان هــذه الوسيلة لم تكن كافيــة لاحكام السيطرة على المناطق الريفية ، ولضمان الاتصالات وجعل الوجود الفرنجى فى الأرض المقدســة حقيقة ملموســة • ولهذا ، فبالاضــافة الى المدينة المحصنة والقلعة الضخمة ، فان الصليبيين رصــعوا شبكة الطــرق الرئيسية والثانوية فى البلاد بالحصون ونقاط المراقبــة التى هى اقرب الى مراكز الشرطة منهــا الى القواعد العسكرية • فقد كان من السهل ان تتصل الحصــون والحاميات من الجبل الى السهل عن طريق الاشارات بالنيران او الحمام الزاجل ، وهو أسلوب تعلمه الفرنجة من المسلمين فى الشرق • وبهذه الوســـائل كانت الاخبار تنتقل بسرعة من الأردن ، عن طــريق بيت المقدس الى يافا وعكا • وكانت المواقع الصــليبية الحصينة بمثابة مؤسسات عسكرية ثابتة ، على حين كان الجيش هو العنصر المتحرك فيها •

فالحصن أو القلعة أو المدينـــة فى المملكة اللاتينية لم تكن جديدة تماما • فقد كانت المــدن على وجه الخصــوص مدنا استولى عليهــا الصليبيون من حكامها المسلمين ، وهو ما يعنى ان الصليبيين لم يقوموا ببناء هذه المدن ، وانحصرت مســاهمتهم عادة فى تطوير نظــام الدفاع الموجود بها • وغالبا ما كان الصليبيون يبنون الحصون والقلاع ، ولكن حتى هــذه الأبنية كانت تقام فى أماكن كانت بهــا تحصينات ســابقة

ثم هجرها اهلها خـــلال فترة الثلاثة آلاف سنة التى يمتد تاريخ البلاد بطولها · وفى مثل هذه الاحوال ، فالراجح ان الصليبيين قد ساروا على التخطيط الذى قامت عليـه التحصينات السـابقة · كمـا انه من المؤكد أيضـــا انهم قد استفادوا من المبـانى التى اقيمت فى الموقع من قبل · فقد كان منطق الصليبى المحلى يقول : « ان قلعة مدمرة هى قلعة نصف مبنية بالفعل » · وقد تفاوتت التحصينات الصليبية بين الأبراج الصغيرة القائمة على الطرق ، والقلاع العملاقة مثـل صفد فى الجليل حيث كانت حامية فرسان الداوية والجهـاز الادارى العامل فى خدمتهم يصلون الى حوالى الفى نسمة · ومثل هـذا العدد من الســـكان كان من الممكن أن يشغل احدى مدن أوربا آنذاك · وكان حجم الحصن يتوقف على موقعه ، وعلى الأموال والقـوى البشرية المتاحة ، وعلى الوظيفة المنوطة بهـــذا الحصن · فمركز الشرطة الذى يتولى حراســة احـد الطرق ، أو المركز الادارى للأملاك الشاسعة لأحد التنظيمات العسكرية ، أو القلعة القائمة فى الأحراش فى مواجهة تهديد اسلامى مستمر عبر الصحارى الممتدة ، كلها يجب أن تبنى بشكل يختلف تبعا لمهامها المختلفة ·

والأساس ان كل التحصينات كانت لها ثلاث وحدات دفاع رئيسية : الدفاعات الخارجية وهى عبارة عن الأسوار المحيطة والأبراج والحصن المركزى · وعادة ما كانت الدفاعات الخارجية تتألف من خنـدق بجـرف وجرف مقابل ، واحيانا برج خارجى او نقطة مراقبة · وكان يلى هـــذه ستائر من الحوائط بهـــا فتحات ونوافذ بارزة ، وعادة ما تكون الأبراج مستديرة · واكثر نظم الدفـاع تعقيـدا هو الذى كان يتركز بالقـرب من بوابة القلعـــة الرئيسية · ولم تكن الخنادق الصليبية تملأ بالمياه ، لأن « أرض اللبن والعسل » لا تسقط بها الأمطـار التى تكفى لملئها · وكانت مهمة هـذه الخنادق الرئيسية هى منع المنجنيقات أو أبراج الحصار من الاقتراب من الأسوار · وكانت الخنادق تبنى بدقة شـديدة وباتســـاع

حـوالى ٤٥ قدما وعمق يتراوح بين ٢٤ و ٣٦ قـدما · ومن قاع الخندق تبرز الحوائط الخارجية للحصن وكانت قاعدة هذه الحوائط عبارة عن لوح مائل مصقول ثقيل بالقدر الذى يمنع اية محاولات لحفر نفق فيه · وعادة ما كانت القاعدة تمثل جرف الخندق وعلى هذه القاعدة القـوية الهرمية الشكل ترتفع الأسوار المنتظمة الى ارتفاع حوالى خمسين قدما (أو ثمانين قدما من قاع الخندق) وتبرز منها شرفات للدفاع · وترتفع الأبراج من ستـائر الحوائط ويراعى ان تكون المسافات بينها بالقـــدر الذى يسمح للسهام أو غيرهـا من المقذوفات بتغطية كل المنطقة المحيطة بالقلعة · واذا ما وجــد حائط ثان ، فغالبا ما كان يبلغ ارتفاعه ضعف ارتفاع الحائط الخارجي ، ويجهز بابراج عالية تمـلأ الفراغات الموجودة بين ابراج الحائط الأول ·

وثمة وحدة منفصلة فى منتصف القلعة ، او فى اكثر نقاطها ضعفا ، وربما يكون أحـد ابراج الحائط الثانى مقرا للحاكم أو القائد · وكان هذا هـــو الحصن المركزى donjon · والحصن المركزى البـاقى فى بلفوار Belvoir بالجليـل عبـارة عن مبنى مستطيل الشـكل من دورين يضم فناء داخليا فسيحا · ولأنه مبنى من الحجارة الضـــخمة الممتازة ، فانه كان بمثابة الخلية الأساسية فى الحصن · وكانت حجرة الاجتماعات هذه تؤدى الى القاعة الداخليـــة التى تحيط بها اماكن اقامة الفرســـان ، والمطبخ والبئر وغيرها من لوازم الحياة اليومية · وفى الطابق الثانى ، الذى يتوصل اليه من سلم خارجي ، توجد الكنيســة والمكاتب ، وحجرة القادة ، واماكن الاقامة الاضافية · وكانت اركان الحصن المركزى مدعمة بالأبراج العالية التى يتم الصعود اليها بالسلالم الداخلية ·

وكانت دفاعات البوابات توجد فى العادة بين الأبراج ، وهى تعلو الستائر الحائطية · وكان يوجـد فى قيصرية ثلاثة طوابق عاليـه وبهـا شرفه فسيحة للمدافعين واســلحتهم الثقيلة · وكانت الحوائط والأبراج

منقوبة بالمنافذ وقد أحصى فى حصن قسطل ثمانين من رماة السهام الذين يستطيعون القذف بسهامهم فى وقت واحد من المنافذ العديدة · وكانت البوابة فى حد ذاتها وسيلة دفاع معقدة · فثمة قنطرة تمتد على الخندق أمام القلعة وتؤدى الى البوابة · وكان الجسر كله أو جزء منه يشيد من الخشب تدعمه أقواس أو عامود قائم فى منتصف الخندق · وكان هذا يساعد المدافعين على حرق الجسر فى حالة تعرضهم للهجوم وبذلك يعزلون المدينة عن المنطقة المحيطة بها · وللبوابة ذاتها جناحان خشبيان يدخلان فى فراغ بالحوائط · وخلف البوابة الخشبية المقواة بالمعادن كان هناك حاجز حديدى يتم تشغيله من الطابق العلوى بواسطة رافعة يدوية · وكثيرا ما كانت البوابة على شكل حرف "L" لكى تحول دون الاقتحام المباشر فى حالة نجاح الهجوم الذى تتعرض له القلعة ، وتحميها من الداخل شرفة عليا يستطيع المدافعون أن يصبوا منها وابلا من سهامهم على الاعداء المهاجمين ·

ان الصدام بين الشرق والغرب فى الأرض المقدسة ، والذى حدث على كل المستويات ، قد وضع الصليبيين فى مواجهة تحديات اكبر من طاقة خبراتهم العسكرية الأصلية · فعلى الرغم من ان فن الحصار كان معروفا فى العصور الوسطى الباكرة ، فان الشرق واجه الصليبيين بمشكلات نادرا ما واجهتهم من قبل فى أوربا · فان حجم القلاع ، وحجم المدن التى تمتد حوائطها فى نطاق يبلغ عدة أميال ، جعل حصارها والالتفاف حولها حتى يموت السكان جوعا (وهو الاجراء المعتاد فى الغرب) امرا غير مناسب فى حوض البحر المتوسط · بل ان المشكلة التى خلقتها المدن البحرية كانت اكثر حدة ، لان الصليبيين باعتبارهم سكان منطقة برية ، كانوا يفتقرون الى الأساطيل والى الخبرة البحرية · وفى هذه الظروف ، تطور فن الحصار حول الاقتحام ، اكثر منه حول عمليات الحصار العادية واحكام سد المنافذ على المدينة المحاصرة ·

حقيقة ان المـــرء كان يستطيع ان يرشــق رؤوس الأسرى على الحراب ويستعرضهم تحت استحكامات المدينة ، كما جرت العادة بذلك فى كل من الشرق والغرب ، بيد أنه على الرغم من أن ذلك كان يخفض من الروح المعنوية للمحاصرين الا أنه لم يكن ينتهى بدمار أسوار القلعة ٠ وبما ان مؤن المـدن والقلاع كانت تكفيها ، لا لعـدة شهـور ، بل لعدة سنوات ، وبما ان الفرصة لتجويعهم عن طريق الحصـــار كانت ضئيلة ، فقد كان يتعين الاستيلاء عليها عن طريق الاقتحام ٠

وفى نظام التسليح الهائل المستخدم فى حصار المدن ، يحتل البرج المتحرك مكان الصدارة ، وغالبا ما كان يسمى « برج الناقوس » بسبب شـكله وارتفاعه ٠ وهـذا البرج يتكون من عـدة طوابق وكان أعلى من الاستحكامات المحاصرة ويتكون من سلسلة من المنصـــات يقف عليهـــا المهاجمون ، حيث يجهز الطابق العلوى بمنجنيقات صغيرة وجسر يمكن خفضه الى مستوى الشرفات التى يقف بها المدافعون ، وكانت صـعوبة استخدام مثل هـــذه الأبراج ، الى جانب ما تتطلبه من نفقات باهظـة ، متعددة الجوانب ، فلم يكن هناك نجار من نجارى الضياع الاقطاعية كان يمكنه ان يبنى برجا يتراوح ارتفاعه بين ٤٥ و ٦٠ قدما ، يمكنه حمـــل عشرات من المحـــاربين ، ومن ثم كان لابد من الاستعانة بالمهندســين الخبراء ، ومن المحتمل تماما انه فى المرحلة الباكرة من الغـــزو أستفاد الصليبيون من المسيحيين المحليين (يرد ذكر الأرمن فى هذا الخصوص) الذين يعرفون كيف يشيدون الات الحصار ٠ وثمة صعوبة أخرى تمثلت فى احضار برج الحصـــــار ، الذى كان ينقل على عجـــلات أو جذوع الأشجار ، وتقريبه من الســور بقـدر الامكان ٠ وكان هـذا يتطلب ملء الخنـــادق التى كان عرضها يتراوح بين ٤٥ و ٦٠ قـدما ، ويبلغ عمقه ستة وثلاثين قدما وتكويم الأحجار والأنقاض والاخشاب لملء اجـزاء من الخندق ٠ وقد كان هذا عملا شاقا مرهقا ٠ وكانت القوانين الصليبية فى

المملكة تنص على ان الفارس ليس مضطرا للنزول عن فرسه حتى فى وقت الحصار · ثم كان هناك الخطر الدائم وهو الزمن وقد شهد على ذلك كتاب المدونات التاريخية ، وكان من الممكن للمعاصرين ان ينجحوا فى حرق البرج فى هجمة مفاجئة على قوات الحصار أو باستخدام « النار الأغريقية » التى كانت مزيجا كيميائيا من الكبريت والراتنج وغيرهما من المواد القابلة للأشتعال من اختراع البيزنطيين · وكان هذا التركيب الكيميائى يوضع فى آنية فخارية ثم يشعل ويقذف أو يصلق بالبرج ويكون تأثيره قاتلا ، وغالبا ما كان يستخدم فى المعارك البحرية حيث كان يحرق كلا من الشراع والسفينة ، كما انه اثبت فعالية تامة فى معارك الحصار الأرضية · وفى بعض الاحيان لم تكن الآنية بسيطة بالقدر الذى يجعل المرء يسميها قنابل يدوية ، بل كانت براميل متفجرة كانت تقذف بواسطة المنجنيقات · ويجب أن نقرأ ما كتبه جوانفيل عن تجربته فى مصر لكى يقدر الانطباع الذى كان هذا النوع من النابالم الذى عرفه عالم العصور الوسطى يتركه على الغربيين ، فهو يقول :

« كانت النار الأغريقية تبدو مثل برميل كبير من العصير ، وذيله المشتعل فى طول السيف الطويل واثناء طيرانها يصدر عنها صوت كالرعد ، وتبدو كتنين طائر فى الهواء ويصدر عنها ضوء قوى بدرجة تجعلك ترى معسكرنا كما لو كان فى وضح النار » ·

وكانت وسيلة حماية البرج الوحيدة ضد هذه النار هى الجلود الرطبة المأخوذة من الحيوانات المذبوحة حديثا او اللباد المبلل بالخل ، وأن كان ذلك لا يجدى كثيرا اذا ما طال الحصار ·

وحين تعجز ابراج الحصار عن السيطرة على الحصون ، كان المسلمون والصليبيون يستخدمون اجهزة أخرى لاحداث نقب فى الأسوار · واقدم هذه الأجهزة ، ولا يزال يستخدم بتأثير فعال ، هو

الكبش استخـدم لدك الأسوار ، وهو عبـارة عن آلة ذات رأس حديدية مدببة وقطعة خشبية تشبه الصارى معلقة بسلاسل وموجهة الى الأسوار ويدفعها عدة رجال · ولا يستطيع المحارب الواقع تحت الحصـار حماية نفسه بدرعه لأن ذلك لا يجدى نفعا ، كما انه كان يعوق نشـاطه · وفى مرحلة تاليـة تمت تغطيـة الكبش بنوع من البنـاء أو الغطـاء الذى كان يراعى ان يكون قويا بحيث يقاوم الحجارة والسـهام والقذائف الناريه التى يرميها الواقعون تحت الحصـار · وكانت هـذه الآلة الفعالة فى الحصار تشارك البرج أو « الناقوس » احدى مساوئه الرئيسية ، اذ كان لا يمكن المناورة به عبر الخنادق الكبيرة المحيطة بالحصون ما لم يتم ردم الخندق جزئيا أو كليا ·

وكانت هناك طريقة اخرى للحصـار ، ماخوذة عن القدماء ، وهى استخدام قطع من القاذفات لقلقلة الأحجار فى الأسوار وفتح ثغرة ينفذ منها الجيش المهاجم · وكان من المعتقد ان هذا الأسلوب يرجع فى أصله الى الفـرس أو الأتراك ، على الرغم من أنه كان معروفا لدى الجيوش الرومانية والبيزنطية ، وربما يكون دور الشرقيين قد اقتصر على تحسينه وتطويره · وكان هذا الأسلوب يلعب دورا حاسما فى الحصار ، وكانت المدفعيـة من نوعين أساسا ، كان احدهما عبارة عن قوس عمـلاق يتم تشغيله بحبال متينة لطلق المقذوفات والتى غالبا ما كانت قطع ملتهبة من المعـادن ؛ وكان الآخـر هو المنجنيق الذى يطلق الأحجار أو غيرهـا من المقذوفات من تركيبة تشبه الملعقة · وأخيرا كان هناك فن حفر الانفاق ، اى استخدام الانفار فى سلاح المهندسين لحفر الانفاق تحت أسوار المدينة واذا ما تم الوصول الى نقطة أسفل الأسـوار تحرق الدعامات الخشبية وينهار النفق فتنهار معه أجزاء من الأسوار ·

وعلى الرغم من أن حصار القلاع والمدن والاستيلاء عليها كان يحدد فى النهاية مصير المملكة لان فقدانها كان أشبه بسحب الأرض من تحت

أقدام الصليبيين ، فان المعارك التى كانت تدور على الأرض المفتوحة كانت هى أكثر الاحداث أهمية فى الحوليات العســكرية للمملكة اللاتينية ٠ وكانت المشاكل التى تواجهها الجيوش الصليبية مشــاكل معقدة للغاية فلم يكن على هذه الجيوش ان تتعامل مع خصم يتفوق عليها من ناحيــة العدد فحسب ، وانما كانت تواجه الجيوش الاسلامية التى كانت تنتهج أســلوبا قتاليا مجهولا تماما فى الغرب المسيحى على الرغم من معرفة جيرانهم البيزنطيين له ٠

وكانت القوة الأساسية فى الجيش الصليبى تتشــكل من الخيالة الثقيلة التسليح ٠ وكانت هــذه الحقيقة نتيجة لتطور حـدث فى الغرب انبثق عن النظرية العسـكرية الســائدة وعن الوسط الاجتماعى الذى تطورت النظرية فى رحابه فى آن واحد ٠ وكان هــذا التطور قائما على أساس التفرقة بين الصفـوة العسكرية وبين صفوف العامة والاقنان ٠ فالخيال الثقيل التسليح ، وهو من الفرسان عادة ، كان دائما من ابناء الطبقة الارستقراطية الحاكمة ٠ وسواء كان سيدا أو تابعـا اقطاعيا ، فان حياته بأسرها كانت تتركز حول الحرب والقتال ٠ وكان فرسه الذى كان قد تم عزله منذ زمن طويل عن حيوانات الزراعة ، يلقى تدريبا خاصا على حمولته الثقيله المكونه من الفارس ومعداته العسكرية ٠ وربما كانت تستخدم خيول اضــافية لنقل الفارس الى ميدان المعركة ، بيد أنه كان ملزما على الدوام بأن يمتطى صهوة جواد حــرب فى المعركة ٠ وكانت الخيول القوية السريعة تستخدم فى المواجهة المباشرة بين الخيالة ٠

هذه السمات الأســاسية لم تكن راســخة تماما على أية حال ٠ فالفرســان والجيوش الصليبية ، التى كانت على اتصــال دائم بكل من الجيوش الأوربية والجيوش الاسلامية ، قد خضعت لعملية من التعديل والتغيير اتضحت فى التكتيك وفى التغييرات الخاصة بمجال التسليح ٠ فعلى مدى ما يقرب من مائتى عام ، ظل الغرب يرسل زهرة فرســانه

الى المملكة اللاتينية وكانت هذه الامدادات ذات تاثير فعال فى مواكبة التسليح الصليبى للتطورات الأوربية · وكان قرار الاسبتارية يفرض على الفرسان القادمين من أوربا احضـار خيولهم وأسلحتم التى كانت تكلف هذا التنظيم مبالغ طائلة · وكان هذا القرار مفيدا فى تلك الفترة · ومن ناحية اخرى استعار الصليبيون من المسلمين بعض أساليبهم ، على الرغم من انه من المحتمل ان يكون هذا أقل مما يتوقعه المرء ·

فالتغيرات فى مجال التسليح لدى المسلمين ، اذا كانت قد حدثت أية تطورات على الاطلاق ، كانت على ما نعلم محدودة بالأجزاء الناعمة من لباس الحرب ، مثل الملابس الداخلية وطريقة تفصيل الثياب الخارجية (وعلى الاقل هذا ما حدث فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر تحت حكم المماليك) · وكانت معداتهم العسكرية تعتمد على التقاليد المحلية . ففتح مصر على يـد صلاح الدين واستقـدام قواته الكردية ، الى جانب القوات التركية من سـوريا ، ربما يكون قد سـاعد على قدر أكبر من الاتساق فى المؤسسة العسكرية الاسلامية · ومع بروز قوة المماليك ابان حملة لويس التاسع على مصر صار التسليح المغولى هو السائد · وبعد ذلك بحوالى جيل ، حين استولى السلطان بيبرس المملوكى على سـوريا وأعالى بلاد ما بين النهرين ، ودفع بالمغول الى داخـل المملكة الايرانيـة توحد الزى والتسليح العسكرى فى مملكـة المماليك بل لقـد تحدد شكلها وأصبح ثابتا بحكم القانون ·

وكانت الخوذة ، والدرع الكامل حول الجسد ودرع الذراع هى أهم القطع الدفاعية لدى كل من المسلمين والمسيحيين ، وفى المعسكر الصليبى، تعرضت هذه القطع الثلاث لتغيرات منذ زمن الحملة الصليبية الأولى · فالدرع الجسدى الذى كان فى الأصل جامدا وغير مريح ، أصبح أكثر خفة ومرونة وأمانا فى نفس الوقت · أما الدرع المسمى Broigne ، (وهو عبارة عن سترة علقت بهـا حراشف معدنية) فقد كان يلبس فوق

سترة من الجلد أو القماش ويصل الى أسـفل ركبتى الفارس ، وغالبا ما كان يصل الى كعبيه · وكان مفتوحا فى الجـزء السفلى حتى يسمح بالركوب وكان يغطى جزءا من الساقين ، على الرغم من أن الفارس كان يرتدى أحيانا جوارب طويلة من نفس التركيبة لتغطية ساقية · وهـذا الشكل من درع الجسد استبدل بما يسمى الهوبيرك Hauberk وهـو عبـارة عن سترة من الزرد الذى كان أغلى كثيرا من سابقة اذ استبدلت الحراشف المعدنية بحلقات أو سلاسل متداخلة من الزرد وأصبحت مستقلة عن الملابس الداخلية · وغالبا ما كانت للهوبيرك ياقة واكمام طويلة تنتهى بقفازات ·

أما درع الجسد لدى المسلمين فقد كان اكثر خفـة ومرونة · ففى زمن الحملة الصليبية الأولى كان المسلمون يرتدون سترة تسمى بالزردية كانت تكمله جوارب وأغطية للساقين ، وعلى الرغـم من أن الزردية مثل الدرع الأوربى آنذاك ، غالبا ما كانت تصل الى كعبى المحارب · وسترة الزرد ، التى طرأت عليهـا التحسينات بفضـل فن البرشـمة أو التثبيت بمسمار ، ظلت تستخدم حتى مطلع العصر الحديث · ولأنها كانت باهظة التكاليف ، كانت العلائات تتوارثها جيلا بعد جيل دون أى تغيير يذكر · وكان الدرع الخشبى ودرع الرقائق لدى المسلمين يختلف الى حد ما عنه لدى الأوربيين ، ويبدو انه موروث عن المغول والتتار الآسيويين ، فقد كانت كل قطعة فى هذا الدرع تثبت فى الثياب التى تحتها ، وغالبا ما كانت القطع متطابقة · اما الدرع المكون من عدة طبقات ، والذى غالبا ما كانت تزينه الصور أو الكلمات المقدسـة ، فكان يصلح للاحتفالات اكثر من الأستخدام العملى · وكان الدرع الخشبى يحمى الجسـد تماما ، ولكن لابـد أنه كان يعوق الحـركة مثـل البروين broigne لا سيما بالنسبة للفارس · أما الرداء الأكثر راحة فكان عبارة عن سترة قصيرة من الزرد تعرف باسـم بريجـاندين Brigandine فى أوربا والقزاغند Kazaghand

(القرقل فيما بعد) فى الشرق · وكانت هذه السترة تصنع اما من سلاسل الصلب أو المسامير المعدنية الصغيرة المثبته فى بطانة من اللباد أو غيره ، واحيانا من الثياب الملونة الغالية ·

أما الخوذة لدى الصليبيين فقد طرأت عليها تغييرات كثيرة · اذ كان نمطها الشـائع ابان الحملة الصـليبية الأولى عبارة عن خوذة حديدية مخروطية الشكل بزوائد جلدية لكى تغطى الرقبة ، وغالبا ما كانت لها قطعة أمامية لحماية الوجه · وبينما أصبح درع الجسد أكثر قوة ولكن أكثر لينا ، تطورت الخـوذة فى اتجاهين مختلفين : فمن ناحية اتخذت شـكل غطـاء رأس صـغير من الحديد بحافة سـميت باسـم Chapeau de fer ؛ ومن ناحيـة أخـرى أصبحت خـوذة ضخمـة لهـا قمة كبيرة مسطحة أو دائرية وثقيلة للغاية وتغطى الاذنين والرقبة وتستقر على الكتفين · واستبدلت قطعة الانف بقناع به فتحات للتنفس · وكان غطاء الرأس الحديدى ، مثل الخوذة ، يلبس فوق قلنسوة من الزرد تتصل بالهوبيرك ·

أما الخوذة الاسلامية فلم تتغير كثيرا خلال فترة الحروب الصليبية· وكان شكلها الأساسى يشبه البيضة المستطيلة ومن ثم اطلق عليها اسـم « البيضة » · وكانت هذه الخوذة علامة على المكانة العالية عند المسلمين وغالبا ما كانت تزين وترصع بكتابات من القرآن · وكان لبعض هـذه الخوذات قطع للانف واغطية للرقبة على هيئة الجمل ، ولكنهم لم يبتكروا قناعا للوجه مثل القناع الأوربى · وفى بعض الاحوال كانت سلاسل الزرد تستخدم لتغطية الوجه ولكن هذا كان يمثل استثناء الى حد ما ويبدو أن الريش أو الاعراف كانت اضافة متأخرة ·

وقد خضع الدرع اليدوى الصليبى لأكثر التغييرات عمقا وجذرية ·

فخـلال الحملة الأولى ، كان عبارة عن قطعـة كبيرة صـلبة من الخشب المغطى بالجلد أو الخشب بالروابط الحديدية التى تنبثق كالأشعة من نقطة مركزية • وكان على شكل الحدأة ، مستدير عند أعلاه ويغطى المحـــارب من رقبته حتى قدميه • ولا شك ان الدرع كان أكثر عملية فى القتـــال على الأقدام منه على ظهور الخيـــل ، حيث كان يعلق فى الاكتاف بحزام جلدى وقد كان ذلك مربكا للمحارب ولكنه مفيد طالما ان الدرع الجســدى كان غير كاف • وفى حالة احكام الدرع الجسدى ، أصبح الدرع الطويل لا جدوى منه واستبدل بدرع دائرى أو مثلث صغير الحجم يغطى صــدر وبطن الفارس • أما الدرع الاسلامى فكان يختلف منذ البداية • فحينما كان مقاتلو الحملة الصليبية الأولى ما يزالون يحملون دروعهم الكبيرة ، كانت الخيالية الاســلامية تستخدم درعا خفيفا مستدير الشــكل يســمى الترس • وكان من المعتــاد ان يشبك بحزام أفقى من الداخــل وكان من السهل استخدامه • وكانت هذه الدروع تختلف تمام الاختلاف عن دروع الصليبيين بحيث صارت من ملامح التصــور الغربى التقليدى للمقاتلين المسلمين •

والأدوات الثلاث الرئيسية للدفاع عن الجسد ــ الخــوذة والدرع والترس ــ أضيف اليها مع الوقت سترة خارجية وهى عبارة عن قميص أبيض بلا أكمام يلبس فوق الدرع الجسدى • وفى وقت ما قرب نهــاية القرن الثانى عشر ، صارت السترة والدرع وغطـــاء الرأس ، فى أغلب الاحوال ، تحمل العلامات المميزة للفارس • وكان هذا ميلادا لفن الدروع وعلاماتها لدى كل من المسلمين والصليبيين • وهو الفن الذى استمر فى الوجود بشكل أو بآخر حتى وقتنا هذا • فالرسوم الهندسية ، والزهور ، والوحوش وما شــابه ذلك توضـــع على السترة ، والدرع والبيارق • ومصطلحات « شـــعار النبالة » و « درع النبالة » مستمدة من السترة الخارجية والدرع اللذين كانت ترسم عليهما العلامات المميزة للسلاح •

ويبدو أن شـعار النبالة كان يستخدم فى الأصـــل لتسهيل التعرف على الفارس المدرع ولكنه تطور الى شعار عسكرى للعائلة النبيلة • وقد أصبح فن الدروع العسكرية فنا تعليميا وكانت الشعارات العسكرية اعلان عن الأصل وتذكرة دخول فى طبقة النبلاء • ولم يقتصر هذا الفن على أوربا على أية حال ، فقد ظهر بين المسلمين فى القرن الثانى عشر وصار شائعا تماما بين أفراد الارستقراطية المملوكية الحاكمة • وغالبا ما كان يرتبط بالوظائف التى يقومون بأدائها فى القرن الثالث عشر • وفى ذلك الوقت ، أضاف فن رسم الشعارات النبيلة الألوان والتصميمات الى جيوش الغرب والشرق ، وأصبح المظهر العسكرى نموذجا مألوفا يتضـــح فى البيارق التى كانت ترفرف على الحـــراب ، والسترة الخارجية وعلى كســـوة الحصان •

وكانت الأســـلحة الهجومية لدى كل من المســـلمين والصليبيين متماثلة • باستثناء القوس الذى كان يستخدمه الفرســـان المسلمون • وكان الرمح أكثر شيوعا لدى المحاربين المسلمين ، وكان يستخدم كسلاح للطعن وان كان يستخدم فى القذف كذلك • وقد استخدم المسلمون ، وربما الصليبيون كذلك ، رمحا طويلا مركبا فى بعض الاحيـان • أما السيف ذو الحدين والمقبض المستدير أو المفرطح ، فكان يوضع فى جراب جلدى يعلق فى الرقبة والكتف • ولكنه صار يعلق فى الوسط فى مرحلة لاحقه • وكان السيف التقليدى مستقيما ، ولكن بعض أسلحة المسلمين كانت مقوسة • أما السيف الاحدب ذو الحد الواحد ، والذى صار فيما بعد سلاحا شرقيا نمطيا فلم يظهر الا بعد الحروب الصليبية • وكان الجراب الخشبى الذى يستخدمه المســـلمون يغطى بالجلد أو القماش الفاخر ، على حين كان السيف ذاته يزين ويحلى بالمجوهرات • ومن الغريب تماما ، على الرغم من شـــهرة السيوف الدمشقية ، أن السيوف الاســـلامية الممتازة كانت مجلوبة أصـــلا من الهند أو الصين • وكان تعبير « دمشقى » ينطبق فى

الواقـــع على الزخرفة وتزيين السيف بالجواهر ، وهو ما كان يتم فى سوريا وليس النصل المعدنى نفسه (الحديد والصلب أو السيف الحديدى المحفوف بالصلب) ٠

أما الدبوس ، فكان يصنع من الحـديد أو الصــلب ، ويستخدمه المقاتل المسلم والمقاتل الصليبى على حد ســواء ٠ وهو عبارة عن قطعة سلاح كروية الشــكل بها نتوءات وتجاويف ، وكانت تستخدم لسـحق الخوذات أو كسر العظام ٠ أما البلطة المسماة بالبلطة الدنماركية ، وهى بلطة ذات حدين فقد كان يستخدمها الصليبيون ، ولم يعرفها المسـلمون الذين كانوا يفضلون استخدام « الطبر » وهو عبارة عن بلطة ذات حـد واحد وعلى شكل نصف دائرة ٠ وكان للقوس والقوس المنجنيقى مـكانة فى ترسانة الأسلحة الاسلامية واشتهرت دمشق بصناعة الأقواس الجيدة وقد ذهب اليها حنا الأرمنى الذى كان مدير المراسم للملك لويس التاسع لكى يشترى الغراء والقرون من أجل صناعة الأقواس المنجنيقية ٠

ولم يكن التغيير الذى طرأ على التكتيك العسكرى لدى الصليبيين أو حتى التعديلات اللازمة لمواجهة الجيوش الشرقية ، نتيجة للصـــدام مع القوة العسكرية المصرية ـ التى كانت أقوى خصم فى الشرق ـ وانما كان نتيجة للصدام مع الجيوش السورية وجيوش ما بين النهرين ٠ اذ لم يكن المصريون أبدا أمة عسكرية ٠ ومنذ القرن الثانى عشر حتى الغزو التركى العثمانى لمصر ، كان كل أوربى يزور مصر يخرج بانطباع عن طبيعتهــا المسالمة ٠ وقبل الفاطميين بوقت طويل ، كان حكام مصر يجندون قواتهم المحاربة الرئيسية من بين القبائل البدوية فى المقاطعات الشرقية وشـبه جزيرة سيناء ٠ وكانت بعض القبائل مثل بنى كنانة لهم شهرة ذائعـة لمهاراتهم القتالية وشجاعتهم ، واستخدمهم الحكام المصريون للدفاع عن حدود مصر الشرقية ٠ ومن الغريب أن الصليبيين الذين اعتادوا على قتال البدو ؛ بل ونجحوا فى تحويل بعضهم الى حلفاء (حول عسقلان وغزة

على حدود صحراء سيناء وفيما وراء نهر الأردن عند مدخل شبه جزيرة العرب) ، كانت فكرتهم قليلة عن صفاتهم العسكرية والأخلاقية • فقد كان البدو يعتبرون أدلاء ممتازين وقوات مساعدة ، ولكن حين يشتغل القتال فانهم لم يكونوا يصمدون أمام الأسلحة الغربية • وكان الصليبيون يعتقدون انهم جبناء لا يعتمد عليهم ينضمون الى الجانب الرابح فى اللحظات الأخيرة لكى يساهموا فى القتل وينالوا نصيبهم فى نصر لا يستحقونه • وبالاضافة الى قواتهم المحلية ، كان حكام مصر يعتمدون على القوات المرتزقة الى حد كبير ، أو على الجماعات العسكرية من العبيد الصغار الذين اعتنقوا الاسلام وتدربوا منذ الشباب على المهارات العسكرية ، وكان أولئك هم اسلاف المماليك ، الذين استولوا فى النهاية على المملكة المصرية من ايدى خلفاء صلاح الدين الضعاف (١٢٥٠ م) ، كما انهم ايضا كانوا اسلاف جيوش الانكشارية القوية • وكانت مثل هذه الفرق تجلب من داخل افريقيا ويجلب الرقيق الأبيض من مناطق البحر الأسود • وكان الأفريقيون يعرفون باسم العبيد ، وغالبيتهم من أصل سودانى (السودان اسم مشتق من الكلمة العربية سواد) ، على حين كان يطلق على العبيد البيض اسم المماليك •

وقد واجه الصليبيون القوات المصرية برماة السهام الرجالة والفرسان من حملة السلاح الخفيف • ولم يكن أى من هذين النمطين من الجنود جديدا على الصليبيين ، على الرغم من أنه عند نهاية القرن الحادى عشر كان رماة السهام الرجالة قد فقدوا أهميتهم فى فن القتال الغربى • وكانت الخيالة الخفيفة عند المصريين أكثر حركة منها لدى الصليبيين ولكن عند القتال المتلاحم قلما كسب المصريون معركة ، ما لم يكن عددهم ساحقا فى كثرته ، أو يقوموا بهجمة ناجحة أو يحتلون موقعا يجعل لهم ميزة واضحة • وعادة ما كانت القوة المركزية فى جيش الخليفة أو وزيره (نادرا ما كان الخلفاء الفاطميون يتركون قصورهم وحريمهم)

تتكون من قوات ذات أصول مملوكية • وكانت هـذه القوات تتفوق فى مهاراتها القتالية وعادة ما كانت تدين بالولاء لقائدها • وغالبا ما كانت المعركة تحسم بهذه القوات المختارة ، اذ ان فرارها أو نجاحها كان يؤثر بشكل مباشر على بقية فيالق الجيش المصرى •

وكان الموقف مختلفا تماما وعلى النقيض من ذلك بالنسبة لجيوش ما بين النهرين وسوريا وفارس ، التى كانت تشترك أحيانا فى القتال ضد الصليبيين • فبالاضافة الى القبائل العربية التى كانت تقطن ربوع بلاد ما بين النهرين وسوريا وحاميات المدن المحلية ، كان العسكر ، وهـم القوة الأساسية لهذه الجيوش ، من الأتراك السلاجقة • وعلى الرغم ان اكثر من مائة سنة كانت قد مضت على تركهم لوطنهم فى وسط آسيا بحثا عن حياة افضل فى الشرق الأدنى فان هؤلاء البدو لم ينسوا ابدا اساليبهم التقليدية فى القتال ، وكان العنصر الرئيسى فى هـذا الأسلوب القتالى à la turque هـو رامى السهام الراكب ، وهو نمط من القتـال قـديم ، بل وورد وصفه فى الكتاب المقدس : « هكذا قال الرب • هو ذا شعب قادم من أرض الشمال وأمة عظيمة تقوم من اقاصى الأرض • تمسك القوس والرمح • هى قاسية لا ترحم • صوتها كالبحر يعج • وعلى خيل تركب مصطفة لمحاربتك » (ارميا ٦ : ٢٢ ـ ٢٣) • وكان الأتراك بتجهيزاتهم الخفيفة وخيولهم السريعة القوية يمثلون التحدى الحقيقى امام الجيوش الصليبية ، فلم يكونوا اكثر حركة من خيالة الغرب الثقيلة فحسب ، ولكن مفهومهم عن الحرب والقتال كان مختلفا •

وكانت قـوة الجيوش الصليبية تـكمن فى خيالتهم الثقيلة ، التى كانت مهمتها القضاء على أى شىء فى طريقها • وكانت صـدمة قوتها والتأثير الذى يتركه الفرسـان المدرعون بالحديد لا يمكن مقاومتهما • وغالبا ما كانت نتيجة المعركة تتحدد خلال المواجهة الأولى ، ما لم يستطع الخصم ان يدفع بتعزيزات جديدة أو تقوم اجنحة جيشـه بالاطباق على

الجيش المهاجم ومهاجمته · ولكن الخصم التركى كان يفتقر الى التعاون ونادرا ما اتفق على معركة خاطفـــة وكون جبهـــة مغلقة لكى يدمرها الصليبيون · ولم يكن الأتراك خفيفى الحركة فحسب ، ولكنهم احضروا معهم من بدارى منغوليا القوس القاتل · ولم يكن الأتراك يلتحمون فى قتال مباشر ولكنهم يطلقون وابلا من السهام من مسافة تقرب من ثمانين مترا حيث لا تستطيع أسلحة الصليبيين الوصول اليهم · ولم تكن السهام لتخطىء تلك الجمهرة الكبيرة من الفرســان المتجمعين ســويا · وكان الصيبيون فى وضع ثابت كالبط الراقد ، وكانت محاولة الهجوم على جيش اسلامى اشبه ما تكون بمطاردة الريح ، ذلك ان هذا الجيش كان يختفى ببساطة وراء خط الأفق · ولم يكن الموقف افضــل اذا ما تحرك الجيش الصليبى · فبين الآونة والأخرى ، كان الخيالة المسلمون يظهرون وكانما انشقت عنهم الأرض ويدورون حول الجيش الصـــليبى المتحرك ويطلقون عليه سهامهم ثم يختفون ليظهروا مرة أخرى بعد وقت قصير وقد امتلأت جعابهم بالسهام من جديد ·

وفى هذه الظروف كانت سلامة الفارس الصليبى تعتمد على درعه وخوذته وترســه · فلم تكن السهام لتخترق خوذته أو ترســه بسهولة · كما لم تكن تنفذ خلال درعه المكون من السلاسل ببساطة ما لم تضرب فى نقطة ضعيفة مثل الرقبة أو الوجه · بيد أن التغييرات التى ادخلت على الدرع الجسدى وعلى الخوذة سرعان ما جعلت هذه الأهداف صعبة الى حد ما · الا ان هذا لم يمنع المسلمين من قذف الخيول من أسفل الفرسان· فالفارس المترجل لا يكون فارسا على الاطلاق · اذ لا يكون كبرياؤه قد جرح فحسب ، ولكن فعاليته القتالية أيضا تتضاءل الى لا شىء ·

وسرعان ما استجاب الصليبيون للتحدى الاسلامى بانتهاج أسلوب الأتراك فى القتال بشكل جزئى · ولم يكن هذا بالأمر السهل ، فالصليبيون

الذين لم يتميزوا بالمرونة فى أساليبهم عولوا على الموهبة المحلية وكونوا فرقا من السكان المحليين اطلقوا عليهم اسم التركوبلى Turcoples (أى أبناء الأتراك) الذين كانوا يقلدون الأتراك السلاجقة فى تسليحهم وأسلوب القتال عندهم • فالخيول السريعة والأسلحة الخفيفة وجعبة السهام والقوس كانت أهم ما يميزهم • وربما كان المقاتلون الأصليون فعلا من الأتراك أو المولدين من الأتراك والبيزنطيين ، ولكنهم فى نهاية الأمر صاروا يجندون من المحليين كالأرمن والبدو ، وربما جندوا فيما بعد من السكان الصليبيين أى البولان •ولم تكن هذه القوات تحارب فى المعارك الصليبية الحقيقية ، ولكنها كانت تلقى تقديرا أكثر كوحدات اضافية احتياطية مساعدة ، على الرغم من أن مهمتها الرئيسية كانت دفع الهجمات المفاجئة التى يشنها الأتراك السلاجقة ومنعهم من الافادة بميزة القوس والسهم • كذلك كانت لفرق الرهبنة العسكرية فيالقها الخاصة من التركوبلى وكان هناك ضابط خاص مسؤول عن تجنيدهم وقيادتهم •

والى جانب النجاح الذى يمكن ان يكون قد حققه استخدام فيالق التركوبلى فان الصليبيين استجابوا للتحدى التركى عن طريق ابتكار طريقة جديدة للقتال تقوم على رد الاعتبار لرامى السهام العادى • وقبل مائتى سنة من حسم أقواس الويلزيين الطويلة المعارك لصالحهم فى مواجهة الفرسان الفرنسيين ، كان الصليبيون قد جعلوا من رماة السهام الراجلين جزءا أساسيا فى جيوشهم • وبينما كان القوس والسهم فى أوربا القرن الثانى عشر يرتبطان بالصيد أو يتركان لاستخدام العامة كطريقة قتال مستهجنة الى حد ما ، أنشأ الصليبيون فيالق من رماة السهام لجيوشهم • وقد صار الرماة هم طليعة الجيوش فى المواجهة بتجهيزاتهم الخفيفة التى تشتمل على غطاء الرأس الخشبى أو الجلدى ، وصديرى ، ودرع خشبى والقوس ، والسهام • وكان المشاة الذين يحيطون بفيالق الفرسان من الامام والجانبين والخلف مسؤولين عن ابقاء العدو

على مســـافة معقولة ومنع الرماة الراكبين الســـــلاجقة من استخدام اسلحتهم على نحو فعال • وفى المعارك الكبيرة كانوا يقومون بدور الحائط الواقعى الذى يتجمع الفرسان داخله حتى يحين الوقت المنـاسب ويصبح الوضع مناسبا للقتال • واذا ما اطلقوا سهامهم ، افسحوا الطريق أمام الفرسان الثقيلة التسليح من الصليبيين لكى يتحركوا ضد العدو • وكان الرماة يجندون من بين سكان المدن والمؤسسات الكنسية أى من الفرنجة دون مستوى النبلاء • وعادة ما كانت المدن والمؤسسات الكنسية تضطلع بواجب تجهيز فيالق الرماة للجيوش وكان أولئك هم الجنود المشاة الذين كان بعضهم يقوم بالقتال ايضا ضمن الخيالة الخفيفة •

وكان استخدام الرماة المشاة ، ســواء اثناء الســير أو فى خضـم المعركة ، يعتمد على وجود نظام محكم بين مختلف التشكيلات•وكانت هذه مشكلة صعبة تجابه كل الجيوش فى العصور الوسطى والتى كانت تتألف من النبلاء الذين يصعب قيادتهم • فالشباب الذين تستحوذ عليهم الرغبة فى أثبات وجودهم والصعود الى المجد امام اقرانهم لم يكن من الســـهل ابـدا السيطرة عليهم • بل ان المشـكلة كانت اكثر صـــعوبة فى الجيوش الصليبية ، لأن معدل السير ولحظة الهجوم كانت مرهونة الى حد كبير بالرماة وحاملى الحراب بخطواتهم الوئيـــدة • وكان هذا يعوق حركة الفرسان ، وفى مواجهة العدو لم يكن من السهل كبح جماح حماســــة المقاتلين العسكرية ، لا سيما اولئك الذين تجشموا عناء الطريق الطويل من أوربا لمحاربة الكفار • ومع ذلك فقد كان هناك نظام يحتم عدم اختراق صفوف النبالة وعليه كانت تتوقف سلامة الجيش بأسره •

وسرعان ما اكتشف العدو نقطة الضعف فى التشكيلات الصليبية ، وبقدر الامكان ، كان المسلمون يتحاشـــون أية مواجهـــة مباشرة مع الصليبيين ، لأن ذلك كان يعنى ان تكتسحهم الخيــالة المدرعة الثقيلة • وكان هذا يعنى تجنب المعارك فى السهول المفتوحة ، والتى كانت تسمح

باستخدام الخيالة المدرعة بشكل فعال ، وكان المسلمون يفضلون الأرض التلية والجبلية أو الاغوار لما توفره لهم من ميزات • ومن ناحية اخرى كانوا يناورون لضرب الأجنحة وفصل النبالة المشاة من فرسان الصليبيين• واذا ما تم الفصل بينهما كان الفارس الصليبى يتجـرد من حماية الرماة وبذلك يصبح هدفا لسهام الخيالة الأتراك • وقد وعى المسلمون هــذا الدرس تماما وكانت هذه المناورة هى السبب الرئيسى فى هزيمة الجيوش الصليبية فى معركة حطين الفاصلة •

مغامرة التجارة والعـالم المتنامى

« اذا كان هناك من يقصد الرسو فى مدينة عكا الســالفة الذكر ، دعه يبحر على مسافة ثلاثة أميال من كنيسة سان أندرو بسبب الصخور القريبة من سطح الماء والتى عند مرتفع تلك الكنيســـة • ثم ليبحر بعد ذلـك مباشرة حتى يرى ما وراء « برج الذباب » الذى كان يوما مقـــرا لرئيس الشرطة • ثم يستطيع بعد ذلك ان يلف الى الميناء • وحين يدخل الميناء المذكور فليبحر من هناك بطريقة تجعـــل قلعة حيفا أو بورفوريا Porphyria تبقى فى منتصف مؤخر السفينـة وتجعـل « برج الذباب » فى منتصف مقدم السفينة طوال الوقت واذا ما حافظ على هذه الاتجاهات يمكنه أن يبحر فى سلام داخل الميناء » •

كانت هذه هى التعليمات التى تضمنها دليل ملاحى يرجع الى القرن الثالث عشر لارشـاد السفن التى تقترب من شـــاطىء البحر المتوسط الشرقى • وفى اللحظة التى تظهر فيها احدى السفن على خط الأفق فى نهاية رحلتها ، التى كانت تستغرق ثلاثة أســابيع من ايطاليا حتى هــذا المكان ، يرسل حراس البرج أو حراس القلعة اشارات الى رؤســائهم ، وتبدأ أجراس الكنائس فى الدق ، ويشق ممثلو مواطنى السفينة وجمــع غفير من سكان المدينة طريقهم الى منطقة الميناء • وكانت الألوان الحيـة التى كان قباطنة السفن فى العصور الوسطى يفضلون طلاء سفنهم بها ، تتوج بصاريات تخفق عليها أعلام القديس مرقص ، أو القدس بطرس أو القديس لورانس ؛ وهم القديسون الرعاة الروحيون للبحرية الايطالية ، وذلك الى جانب البيارق التى تحمل الصليب الأحمر الذى كان يعلن عن

عقيدة الصليبيين وعن الامتيازات التجارية فى نفس الوقت · وكان يوم وصول السفينة أو الأسطول البحرى ، وهو ما كان يحدث عادة ، يوم عيد بالنسبة لأصحاب الحانات والفنادق والتجـــار وكل من عداهم فى المدينة · فالحجاج والأقارب ، ورجال الأعمال الذين يحملون الانباء من الوطن سرعان ما كانوا يتركون الســفينة الى مينـاء المدينــة الداخلى · ولا تلبث الصفقات التجارية ان تعقد وتتحدد مواعيد المقابلات ، وتتداول الأيدى صكوك التبادل ، وصكوك القروض – جميع لوازم التجـــارة – وتسرى الحركة فى الشرايين التجارية فى المدينة · وغالبا ما كان فى وسع المرء ان يرى عددا قد يصل الى مائة سفينة فى موانىء صور وعكا وفى ميناء يافا الصخرى الخطر · وكانت السفن الأكبر حجما تستطيع ان تحمـــل الفا من التجار والحجاج ، فضلا عن حوالى خمسمائة طن من البضائع ·

وكانت البضائع التجارية تفرغ على الســـلالم الخشبية او الواح الخشب المحمولة على ظهـور الحمالين ، الذين كانوا فى الغـــالب من الأوربى – آســـيويين الذين كانوا يعرفون باســـم بولان الميـنـــاء Poulain of the Port، لــكى توضـــع على الأرصـفة المزدحمـة فى منطقة الميناء الضيقة جدا · وكانت هذه المنطقة تتميز برائحة كريهة نفاذة تفوح فى ارجائها ، لان الساحل كان المكان الطبيعى لتصريف فضـــلات وبقايا المدينة والمذابح والدباغين والصباغين الذين كانوا يسكنون المنطقة· واذا ما تم تفريغ بضائعهم ، كان التجار يؤدون عليها الرسوم المعتادة فى شرق البحر المتوسط بعد مساومات مع سلطات الجمارك · ولم يكن هناك شىء يتفوق فى التعقيد والفوضى عن الرسوم الجمركية فى العصور الوسطى ، لا سيما فى الموانىء الصليبية · فلم تكن الرسوم تختلف فقط حسب نوع البضاعة ، وانما كانت هناك رسوم مختلفة وفقا لاماكن جلب البضائع وجنسية سفينة التاجر · فقد كان على نفس البضائع المنقوله على السفينة نفسها ان تخضع لرسوم جمركية تتراوح ما بين ٢٪ الى ١٥٪ حسب جنسية السفينة وجنسية مالـكها ·

وحيثما توجد الرسـوم الجمركيـة ، توجد محاولات التهريب ، والشهادات الزائفة بقيمة البضاعة ، فضلا عن الشهادات المزيفة الخاصة بالهوية والجنسية التى يتبعها التاجر ، وغالبا ما كان تمييز هذه الأمور متروكا للتخمين الذكى : وغالبا ما كانت رشوة موظفى الميناء تدفع من أجل الحصول على اعفاء من الضرائب ٠ فقد كان أهم التزامات المسؤولين عن الكوميونات ان يضـمنوا أن مواطنيهم المحترمين ـ البنادقة والجنوية وأهل بيزا وغيرهم ـ سيتمتعون بامتيازات الاعفـاء ٠ ومع ذلك ، فان التجار الوافدين من تسكانيا غالبا ما كانوا يعلنون انهم من بيزا أو كتلان أو من مواطنى برشـلونة لكى يستفيدوا من اعفاءات الكوميون الذى يدعون الانتماء اليه ٠ وعلى الرغم من صرامة الاجراءات ، الا انها كانت صعبة التنفيذ ٠

واذا ما انتهت المساومة على الرسـوم الجمركية ، يشق التاجر ببضاعته طريقة الى الفنادق ، التى كانت تقابل الخانات ، لدى الصليبيين والوكالات الشرقية ، فى المدينة ٠ وكانت هذه الفنادق تبنى بالقرب من الميناء على قدر الامكان ٠ وكما يحدث فى أى مكان آخر ، كانت منطقة الميناء هى « الحى الأحمر » فى المدينـة ، على الرغـم من أن محترفات الدعارة كن يتواجدن حتى فى الفنادق ذات الحراسة الجيدة للكوميونات، بل وحتى فى المنازل التى كان يؤجرها رجال الدين (بسبب الايجار الباهظ) على الرغم من التأنيب والتوبيخ الذى كان يوجهه اليهم بابا روما ٠ وكان السوق المربع أو الشارع الطويل الضيق ، الذى تقوم على جانبيه البيوت المتعددة الطوابق ، وبه المحـلات والحوانيت فى الطـابق الأرضى ، والمسـاكن فى الأدوار العليا ، بمثابة قلب مؤسسة الكوميون ٠ وكانت الكوميونات بمثابة مدن داخل المدن ٠ فقد كان لها كنائسها الخاصـة ، ومخابزها وحماماتها ٠ كما وجدت الاصطبلات للخيول والبغال والجمال وأماكن السقاية (الاسبلة ، جمع سبيل) لشرب الانسـان والحيوان ٠

وكان أكبر مبنى ، يتألف من ثلاثة أدورا أو أربعـة ، هو القصر Palazzo ومحل اقامة الفسكونت أو قنصل الكوميون • وكان هذا المبنى أيضـا مقر المجلس الاستشارى حيث تقام العـدالة وفقا لقوانين البندقية أو جنوة ، أو بيزا أو أمالفى أو مارسيليا أو برشلونة • وكان علم الكوميون يرفع فوق القصر ليعلن استقلاله السياسى والقضائى•وكانت بعض القصور مجهـزة بدهاليز مظلمة يحبس فيها المسـاجين أو يعدمون فى بعض الأحيان •

وعلى الرغم من أن بعض الاحياء التجارية كانت لها أسواق الطعام الخاصة بها ، فان المركز التجارى الكبير ، أو مكان السوق كان يخضع لسيد المدينة • ففى مدينة كبيرة كمدينة بيت المقدس ، كانت هناك أسـواق متخصصة فى بضائع بعينها • وكانت الرسوم الجمركية تدفع على الطعام الوارد الى المدينة عند بواباتها ، فى برج داودد ، ولكن ثمة رسـوم اضافية كان يدفعها البائع والمشترى وهما يتفاوضان بشـأن صفقتهما • فالمقاييس والأوزان والمكاييل السـائلة والجافة كانت تتقـرر مقابل رسم معين من قبل موظفى السوق الذين كانوا يخضعون لاشراف المحتسب • أما سوق الغلال التى كان الانسان ودوابه وربما ماشيته يتعيشون منها ، فكانت مكانا فسيحا حيث القمح والشعير والشـوفان وغيرها مما يقدمه الفلاحون المسلمون والمسيحيون الشرقيون • وفى بيت المقدس كان سـوق ألغلال بالقرب من بوابة يافا بجوار سوق لحم الخنزير ، على حين كانت الماشية واللحوم تباع بالقرب من منطقة الهيـكل • ومن المؤكد تماما ان الجزارين والدباغين قد استقروا فى هذا المكانلكى يكونوا بالقرب منمصادر والدباغين قد استقروا فى هذا المكان لكى يكونوا بالقرب من مصـادر امدادهم ، وليكونوا فى نفس الوقت قرب المصرف الطبيعى للمدينة وهو وادى يوشافاط ، حيث كانوا يصبون فيه الميـاه القذرة ، والسـوائل المستخدمة فى تجارتهم •

وقد كانت كل مدينة تفخر بأسواقها • وكانت أسواق القدس وعكا

وصور عبارة عن ابنية عالية ذات قباب حيث كانت تقسم بمختلف البضائع على منطقة الحوانيت · وكان التاجر والصانع يعرض بضاعته فى الأبواب المفتوحة على الشارع حيث حشود المشترين رائحة غادية · وكانت الأسقف ذات القباب ، أو المظلات القماشية فوق الشارع تحمى رواد السوق من الشمس والمطر ولكنها تضفى على السوق جوا معتما · وحوار المساومة والنقاش فى كل لغة تحت الشمس وروائح التوابل المتضوعة كانت تختلط بالروائح الكريهة النفاذة التى تفوح من المطاعم المفتوحة·وكانت هذه من سمات المدن الصليبية·وكانت هذه المطاعم المقامة فى الشوارع ، على الرغم من أصلها الشرقى ، قد برهنت على كونها ذات فائدة عملية للغاية فى أماكن يفد اليها الحجاج باستمرار ، اى أنها كانت تفى بحاجات بلد كانت نسبة كبيرة من سكانه (فى البداية على الأقل) تتألف من العزاب غير المتزوجين ·

وكان فى جميع المدن الكبرى تقريبا يوجد شارع أو منطقة مخصصة للصرافين بالقرب من الأسواق · وكانت الصيدفة مهنة ترتبط بالمدن ·
للصرافين بالقرب من الأسواق · وكانت الصيرفة مهنة ترتبط بالمدن ·
الا انها فى الأرض المقدسة كانت ضرورة يومية بسبب سيل الصليبيين والحجاج والتجار الوافدين من شتى انحاء أوربا · وفى المصرف بطاولاته التى اتخذت شكل الصف كان يتم تبادل العملات الأوربية بالعملة المحلية والتعامل بمختلف النقود وأصنافها التى لا تحصى والتى سكت فى مئات دور سك النقود الأوربية ، وكان يتم تقدير قيمتها الأساسية كمعدن ، ثم تحويلها الى عملة محلية · وكان على المرء أن يتذكر ان العملة الأوربية ــ الفرنسية على سبيل المثال ــ كانت تخضع دائما للتخفيض من قبل الحكومة (هذا هو المرادف الوسيط لعملية تخفيض سعر العملة) أو التزييف من قبل التجار المحليين · وغنى عن القول ان كثيرا من الحجاج كانوا يشعرون بانهم قد خدعوا فى عملية الاستبدال ·

وبالاضافة الى ذلك ، فان الصيارفة كان عليهم أن يتعاملوا بالعملات الموجـودة فى الشرق الأدنى الى جانب عمـــلات أوربا · وكانت العملة الرئيسية فى البلاد قبل الغزو الصليبى هى العملة المصرية أى الدينـــار الذهبى والدرهم الفضى الفاطميين · وكانت هـــذه العمـــلات تختلط ، لا سيما فى المدن البحرية ، بعملات سوريا ، وبلاد ما بين النهرين ، بل وعملات فارس · وكانت كميات من مثل هذه العملات ، ان لم تكن مدخرة ، ترد الى دور السك الخاصة بالنقود الفرنجية من خلال الضرائب ، بيد انها ظلت متداوله بعد الغزو · وقد حاولت دور سك النقود الفرنجية أن تقلد ، بطريقة ساذجة وفجة ، العملة الاسلامية أيضا · وبالتالى ، فان تبادل العملات الاسلامية والفرنجية كان يحدث يوميا حتى فى الأعمال العادية · ومن ناحية أخرى ، لم تكن العلاقات التجارية مع البلاد الاسلامية المجاورة مقطوعة انقـطاعا كلـيا ، حتى فى أوقات الحـرب والحصـار · وكانت هذه العلاقات تنتعش وتزدهر ابان أوقات السلم · هـــذا الموقف ، مثل التجارة البحرية مع شمال افريقيا ، جعل العملات الاســـلامية محـــلا للتداول · وقد نضيف اليهـا العملة المجلوبة مع الحجاج من المسيحيين الشرقيين ومع المسلمين واليهود · وهـكذا فان الصيرفى الصـليبى كان بمثابة الوسيط بين العمـــلات الأوربيـة وغير الأوربيـة · ولكى يعالج الصيارفة مشاكلهم على نحو فعال ، فانهم كانوا يميلون الى التخصص · ففى بيت المقدس مثلا ، كان الصيارفة الفرنجة يحتلون شارعا ، على حين كان نظراؤهم فى الجانب الآخر هم الصيارفة السوريون وهم من المسيحيين الشرقيين الذين يحتمل انهم تخصصوا فى العملات الشرقية ·

ومع مرور الوقت ، ضرب الصليبيون عملاتهم الذهبيـــة والفضية والنحاسية · وكانت العملة الذهبية الصليبية تسمى denarius وهو ما يذكرنا بأن أول العملات الذهبية التى عرفها الأوربيون كانت بيزنطية ، حيث ان العمـــلات الذهبيـــة التى كانت متـــداولة فى مســـتعمراتهم

كانت عملات الدول الاسلامية المجاورة . وسرعان ما أخــذ الصليبيون بعدها يقلدون الدينار والدرهم الاسلاميين . وبمرور الزمن تحسن التقليد السائج الذى عرفته العملات الباكرة ، بيد أن خاصية العملات الصليبية ظلت دون مستوى العملات البيزنطية والاسلامية من حيث الوزن والسبيكة خصوصا . وليس من المؤكد ما اذا كان طـراز العمـلة الصليبية يخـفى عن أى تاجـر محترف قيمتها الحقيقية ، ولـكنها مع ذلك كانت تقبل فى التجارة العالمية فى حوض البحر المتوســط . وعلاوة على ذلك ، فان العملات الصليبية فى سوريا صارت هى العملة المعول عليها فى معاملات سـكان البـلاد . وفى الوقت نفسـه ، كان الصليبيون يسـكون عملاتهم الخاصة من الفضة والنحاس على نمط العملة الفرنسية المعاصرة لها . فالى جانب اسم الملك الحاكم الذى كان يكتب على الاطـــار ، والصليب المنقوش فى الوسط ، كانت مثل هــذه العملات تحمل على الوجه الآخـر صـــورة برج داوود أو صـــورة الملك الحاكم . وكانت أغرب العملات الصليبية طرافـــة هى تلك التى ســكت بعد منتصف القرن الثالث عشر وعليها كتابة عربية بمجد الثالوث المقدس ! لقد كان ذلك حلاً عمليا يسمح لدار سك النقود المسيحية ان تعلن عن عقيدتها دون حنث أو عبث بالمقدسات ، وأن تستفيد فى الوقت ذاته من السوق العالمى .

واذا كانت الأسواق المحلية تموج بالحركة فانها كانت تخدم أساسا حاجات السكان المحليين . وكان هذا الموقف فى فلسطين وســوريا قبل قدوم الصليبيين . ولكن غزوهم للمنطقة أضاف بعدا جديدا الى الحياة الاقتصادية للبلاد ، وأهميتها التاريخية تتعدى حدودها غير الثابتة .

ولن نقع فى شباك المبالغة اذا ما قررنا ان فترة الحروب الصليبية توافقت مع الكشوف الكبرى للمناطق المأهولة من العالم . ولم يكن الدافع الى اكتشاف المجهول نتيجة مباشرة للحروب الصليبية ، ولكن هذه الحروب

كانت أداة لخلق الظروف المادية والنفسية التى أدت الى هذه الانطلاقة الأولى نحو الاستشكاف ، قبل حوالى ثلاثمائة سنة من عصر الاستكشاف العظيم · وقد تحول أبطال حركة الكشوف صوب الغرب والجنوب يجوبون المحيط الاطلنطى · ولكن لن ينسى انهم كانوا يريدون الوصول الى نفس الأهداف التى وصل اليها التجـار والمسـتكشفون والمبشرون فى ترحالهم قبل قرون ثلاثة فى عصر الصليبيين ·

وفى بداية القرن الثانى عشر ، كانت التجارة قائمة ومستمرة مع حوض البحر المتوسط الشرقى ، وشواطىء أفريقيا الشـمالية والشرقية ، بل ومع أواسط آسـيا والشرق الأقصى (على الرغم من قلة حجم هـذه التجارة) · فقد حافظ التجار والبحارة فى جنوب أوربا على حلقـات الاتصال مع أسـواق الشرق المتوسط الكبرى · وكانت القسطنطينية هى أكبر هذه الأسواق التى كانت الى جانب منتجاتها التى تخلب الالباب ، نهاية رئيسية للطرق التجارية العظمى على محور الشمال ــ الجنوب ، من اسكندنافيا الى شرق المتوسط (وأفريقيا أحيانا) وعلى محور الشرق ــ الغـرب من الشرق الأقصى الى البحر المتوسط · وكانت الاسـكندرية تنافس القسطنطينية فى أهميتها ، وبينها عـدد كبير من الموانىء الأصغر حجما مثل دمياط وانطاكية ·

وفى العصور الوسطى الباكرة ، كانت أمالفى والبندقية هما المدينتين الأوربيتين الرئيسيتين اللتين تتوسـطان الطريق الى أوربا الكاثوليكية ، وبيزنطة الأرثوذكسية ، والعالم الاسلامى · وكان أحـد الملامح الرئيسية لهذا النشـاط التجارى الباكر متمثلا فى حقيقة ان التجـار الأوربيين لم يكونوا قادرين على التوغل خلف نطاق التجارة · فالابوثيكاى البيزنطية والفنادق الاسـلامية فى المدن البحرية وعند نهايات الطرق التجـارية ، كانت هى أبعد ما يمكن للتاجر ان يصل اليه · وكان اى مكان خلف هـذه

النزل بمثابة منطقة محرمة على الأجانب · وكان هـذا الاجـراء يسمح للسلطات المحليـة بالتحكم فى سيطرتها على الصـادرات والواردات والأسعار والضرائب والرسوم الجمركية ، فضـلا عن الاحتفاظ باحتكار طرق التجارة العالمية الكبرى للمواطنين وللتجار أصحاب الامتيازات ·

وقد انهار هـذا الحائط الخفى ، والقوى فى الوقت نفسـه ، الذى كان يفصل أوربا عن مناطق الامداد خلال عصر الحروب الصليبية · ومع حلول القرن الثانى عشر لم يعد التاجر الأوربى ينتظر فى القسطنطينية أو انطاكية أو عكا أو حتى فى الاسـكندرية ودمياط حتى تصـل قوافل الجمال أو السفن المحملة بالبضائع · فقد شقوا طريقهم فعلا الى الأراضى الداخلية القريبة ـ مثل دمشـق وبغداد وأرمينيا ـ ومع بداية القـرن الثالث عشر وبعد قيام امبراطورية المغول الآسيو ـ أوربية ، وصلوا الى مناطق الحدود بين أوربا وآسيا ، وابحروا فى المحيط الهندى بل ووصلوا الى أرض التوابل العجيبة فى الهنـد الصينية · وهكذا خـرج العـالم المسكون ، الذى عرفه الأغريق بفضـل غزوات الاسـكندر الأكبر والذى وصل الى مشارف الهند ، خرج عن حدوده الضيقة وفتح قارة بأسرها · وما أدى الى الزحف الهائل تجاه الشرق كان سـحر الربح الخلاب · وكانت هناك بعض المحاولات الغامضـة فى مجال الدبلوماسية العالمية والجهود التبشيرية لنشر المسيحية ، الا أنه من المناسب ان نقدم لقصـة عالم العصور الوسطى المتسع بوصف صحيفة فى كراسة حساب ايطالية عنوانها « باسم الله وباسم الربح » !

ففى بداية الأمر كانت الأسواق الكبرى فى حوض البحر المتوسـط هى الهدف المنشود · ويمكن فهم مدى تأثير هذه الأسواق على المعاصرين من خلال فقرة نقتبسها من وليم الصورى مؤرخ الحروب الصليبية الكبير اذ يقول :

« للاسكندرية شهرتها حيث انها تستقبل عددا من البضائع من كل شكل أكثر مما يرد الى أية مدينة أخرى · فكل ما يفتقر اليه عالمنا من التوابل ، والجواهر والكنوز الشرقية والبضائع الأجنبية كان يرد الى الاسكندرية من الهندين وسابا وبلاد العرب بل ومن اثيوبيا ومن فارس وغيرها من البقاع القريبة · وهكذا فان جماهير الناس من الشرق والغرب تتجمع هناك · ويجعلون من الاسكندرية سوقا عامة للشرق والغرب · »

ومؤرخ آخر معاصر لوليم الصورى ، هو بنيامين التطيلى الذى كان اكثر اعتيادا على المدن الكبيرة المزدهرة فى موطنه بالاندلس ، ولكنه لا يجد الكلمات التى تسعفه فى وصف مدينة القسطنطينية :

« التجار من كل شكل يأتون الى هنا من أرض بابل ، وجميع انحاء شنعار وفارس ، وميديا ومملكة مصر ، وهم يفدون أيضا من أرض كنعان (ربما يعنى أرض السلاف) ومملكة روسيا (كييف) ، ومن المجر ومن أرض البتشنج Petchenegs ، ومن أرض الخزر ومن لمبارديا واسبانيا · انها مدينة تموج بالحركة والنشاط ، ويفد اليها التجار من شتى الانحاء عن طريق البر والبحر · وليست هناك مدينة تشبهها سوى بغداد ، مدينة اسماعيل الكبرى » ·

وثمة أوصاف مشابهة لأسواق أخرى كبيرة فى شرق البحر المتوسط يمكن ان نجمعها فى سهولة ويسر من المصادر المعاصرة الا ان قليلين من الأوربيين هم الذين توغلوا خلف الحدود المصطنعة لهذه المراكز التجارية · اذ كان كل امرىء يعلم ان الثروات الكبرى والتنوع المذهل فى السلع لم يكن انتاجا محليا ، وانما قد اتى من الجنوب والشرق · وفى بعض الاحيان كانت الأماكن التى جلبت منها بعض المواد معروفة ، وفيما عدا ذلك كانت المعلومات شحيحة للغاية · اما المعرفة الأوسع ، فكانت بين العمليين من الناس المشتغلين بالنقل والتجارة ، اكثر مما توجد

بين العلماء ٠ فبالنسبة لهولاء ، شانهم فى ذلك شـان رسـامى الخرائط فى العصور الوسطى الباكرة ، كان الفردوس موجودا فى مكان ما صوب الشرق ٠ وادم وحـــواء ، اللذان كانا يستران عورتهما فقط ، يحتلان الركن العلوى من خرائط العصـور الوسطى (الجـزء العلوى يشير الى الشرق وفقا لاستخدام أهل العصـــور الوسطى) ٠ وغالبا ما كان اثنان من الانهار الأربعة المذكورة فى سفر التكوين ٢ ، ١٠ ينبعان من هـــذا المكان ، ويختفيان فى التربة ، ثم يظهران بشكل اعجازى مرة أخرى فى هيئة دجلة والفرات ٠ ولأن هناك بعض التخبط بشأن النهرين الآخرين ، فليس هناك شك فى ان نهر النيل واحد منهما ، على حين كان نهر الجانج هو النهر الثانى احيانا ، وكان الأكثر استثارة برسم شعلة وطفلا ملائكيا « شروبيم » قرب هذا الفردوس (تكوين ٣ ، ٢٤) أو يعزلها عن الأرض المسكونة بواسطة الجبال واللهب والصحراء ٠ والاســكندر الأكبر فقط (حسب احـــدى الروايات الخيالية التى نسجت حوله فى العصــور الوسطى) هو الذى وصل ، بعد فتحه للهند ، الى مدينة حيث أخبره أحد اليهود انها الجنة الأرضية !

وعلى أية حـال فان عصر الحروب الصليبية ، قد شـــهد اختفاء الحانات البيزنطية عند نهاية الطرق التجارية والخانات التى كان التاجر الأجنبى يلقى فيها نوعا من التسامح والتى كان يخضع فيها للرقابة ابان اقامته المحدودة فقد ضمنت الفنادق التى انتشرت آنذاك من القسطنطينية عبر أرمينيا المسيحية ، والمستوطنات الصليبية ، بل وحتى فى الاسكندرية الإسلامية ٠٠ ضمنت هذه الأماكن السكن والعلاقات الخارجية والمحلية الضرورية للتجار ٠ وبعد ذلك بفترة ، كان التجار يدخلون حلب ودمشق وبغداد عند نهايات الطرق البرية والبحرية الآسيوية وبعدها وصلوا الى طرابيزون ، وكافا وتانا على البحر الأســود ٠ وفى ذلك الحين كانت طرق تجارة التوابل قد أصبحت معروفة ، وقدر للأوربيين الأوائل الوصول

الى الهند والصين ، وجـزر اندونيسيا · وعلى مـدى قـرن كامل كانت آســيا ترتبط بأوربا بحجاب من الغموض ، كان يحيط بهـا منذ اجتاح البرابرة أوربا فى القرن السادس ، وقد آن لهذا الحجاب ان يزول ولكن هذا لم يعمر طويلا ، وبعد ذلك بمائة سنة · دخلت آسـيا فى الظـلام من جديد ، انتظـــارا لاعادة استكشافها على يد الايطاليين والأســبان والبرتغاليين فى القرن السادس عشر ·

وليس هنـاك ما يمـكن ان يعبر عن الآفاق الآخـــذة فى الاتســاع بطريقة أفضل مما جاء فى الصحيفة الأولى لأحسن مذكرات رحالة فى العصور الوسطى ، وربما فى أى عصر آخر ، والتى أملاها سجين فى أحد ســـجون جنوة على رفيق له فى السجن ١٢٩٨ م وهو روستشيللو التيزى Rusticllo of Pisa اذ يقـــول : « منـــذ خـــلق آدم الى يومنا الحالى لم ير انسان ، سواء أكان وثنيا أو مسلما أو مسيحيا أو غير ذلك من أى جنس أو عصر ، مثل هذه الأشياء الكثيرة جدا والعظيمة جدا » · وهكذا يدعو ماركو بولو ســـامعيه ليقرأوا عن « تنوع ممالك واقاليم الشرق ·· وأكثر الخصائص والميزات ايثارا للدهشــة والعجب لا ســـيما فى أرمينيا وفارس والهند وتارتاى » ولكن ماركو بولو لم يكن أول من توغل فى آفاق آسيا اللامحدودة · وبحلول سنة ١٢٤٥ م كانت هناك سفارة مسيحية قد سافرت بالفعل الى الشرق على أمل عقد تحالف مع المغول ضد المسلمين ، فقد قام جيوفانى Giovanni of Piano Carpini (١٢٤٥) وانـــدريه اللونجـــــــوموى André of Longumeau (١٢٤٩) ولـــيم الـــربروكسى Willam of Rubruquis (١٢٥١) برحلاتهم قبل ماركو بولو · ولكن رحلته هى التى حظيت بالشهرة عبر التاريخ لأنها اطلعت أوربا على أسرار الشرق العجيب ·

... والذى كان يجذب الأوربيين تجاه الشرق يمكن تلخيصه فى كلمة

بكثير من معناها الحديث • فلم تكن تحتوى فقط على التوابل والعطور ، ومواد الصباغة والمواد الطبية من الشرق ، ولكن أيضـا على كل انواع الواردات من آسـيا وافريقيا • وثمة كاتب من القرن الثالث عشر هو هـيون دى مـيرى Huon de Méry يصف تاجرا بأنه « بائع التوابل والأطعمـة الأجنبية » وربما يكون هـذا الكاتب هو أدق من اقترب من تحـديد مصطلح « توابـل » الذى شـاع فى العصـور الوسـطى • ولـكن فى عصر الحروب الصـليبية حين لم تكن « التوابل » من مواد الرفاهيـة ولم تـكن شـائعة فى أوربا ، كان الطلب عليها كافيـا لادارة عجلة الحياة الاقتصادية الأوربية لعدة قرون •

وكانت مواد الصباغة مطلوبة فى مراكز النسيج الكبرى فى شمال ايطاليا وفى انوال اقليم الفلاندرز ، ومراكز النسيج الصغرى فى فرنسا والمانيا وانجلترا • وكانت الاصباغ ذات أهمية أساسية لان جـزءا منها فقط كان ينتج محليـا ، وكانت الاصباغ المحلية اقل عادة فى جودتها • و « التوابل » الأخرى كانت تتضمن العطور وكافة أنواع البخور • وفى هذا النمط من البضائع الشرقية خلقت ذكريات الماضى القديم مع ارتباطها بالكتاب المقدس صـورا قدر لها ان تستمر فى الوجود حتى العصـور الحديثة • ولم يكن كل زبائن العطور من النسـاء • بل على العكس من الاعتقاد الشائع ، كان الرجال فى العصور الوسطى ، بما فى ذلك رجال الكنيسـة ، يستخدمون العطور • والدليل على ذلك ان رجـال الكنيسـة الفلسطينيين أثناء زيارتهم لبلاط الملك هنرى الثـانى ملك انجلترا وبخوا فى قسوة بسبب سحابة العطر التى كانت تحيط بهم فيما يبدو •

وفى المعنى الأدق للكلمة ، كانت التوابل تتضـمن الأعشـاب ، والأعشـاب العطـرية ، ومستخرجات النباتات والفواكه او عصيرها المسـتخدم كبهارات او كمـادة لتركيب الصلصة ومن أهم استخدامات

التوابل على اية حال كان حفظ الطعام لأطول فترة ممكنة • وكانت بعض التوابل ، وربما كان الفلفل اهمها ، تستخدم كبهارات وكحافظ للطعام • ومن هنا لم تكن هناك الا خطوة بسيطة تجاه صيدلة الأدوية وهى خليط من المعرفة القديمة والتراث الكلاسيكى والوسيط فضــلا عن الملاحظات التطبيقية • بل ان التوابل المجلوبة من اقصى بقاع الأرض كانت موجودة باستمرار فى مخزن بائع العقاقير ، الذى كان يضم الذهب والفضة بين محتوياته • واذا ما اعتبرنا اسعار التوابل المرتفعة ادركنا مدى تكاليف العلاج •

وكانت المنسوجات ، ولا سيما أكثرها فخامة ، تحتل مكانة تقترب من مكانة التوابل فى التجارة مع المشرق • ومن الطبيعى ان الفلاندرز ، وانجلترا فى وقت لاحق ، وشــمال ايطاليا ، كانت من أكبر مراكز انتاج النسيج ، ولكن الشرق كان هو الذى يغرق الغرب بالمنتجات الفاخرة منه • وعلى الرغم من الحقيقة القائلة بأن المنسوجات القطنية والكتانية كانت تنتج فى أوربا ، فان الجودة التى تميزت بها المنتجات الشرقية كانت تجد لها سوقا فى الغرب فى سهولة ويسر • وكانت أقمشــة الشرق الفاخرة ، مع دائرة المستهلكين المحدودة نسبيا ، هى السبب فى اضفاء جــو خاص على التجارة الشرقية ، فالحرير من أجــود الاصناف ، بل والأقمشـــة الحريرية المطـــرزة ، والقصب بخيوط الذهب والفضـــة والبالدكينو baldechino (الذى يشــير الى صــناعتها فى بغــداد) والدمشـــقى (من دمشق) والساميت من اليونان أو بيزنطــة ، والتفتاه من فارس ، والستان من زيتون ، وهى مدينة تسوين ــ تشاو ــ فو فى مقاطعة فو ــ كين الصينية ، والمنســـوجات الأرخص مثل البكرم من بخارى والكاميلوت (من وبر الجمل) ، وما اشبهها ، كانت غريبــة على العين والملمس على حد سواء • ولم يكن تفوق المواد الأولية الخــام وحــده ، ولكن الصناعة العجيبة والرسوم والتصميمات هى التى ساعدت المنســوجات الشرقية ،

فضلا عن أن الألوان الزاهية ـ الأزرق والأحمر ، والأرجوانى ، والأخضر بدرجاتها المختلفة ـ ميزت الثيـاب الكنسية والملـكية وثياب الأمـراء : وكانت المجوهرات والأحجار الـكريمة تأتى مع الأقمشـة من الشرق على الرغم من أنه فى هذا المجال كان الغرب يبيع المرجان للشرق .

وكانت المنتجات الأجنبية ، سواء طبيعية أو صناعية ، تحمل الأسماء الغـربية الرنين للبقـاع البعيدة . وقـد كتب مؤرخ معـاصر أن ثمـة أوديسا للتجار كانت تسير فى خطى موازية لإلياذة الفرسان الصليبيين : فمن الشرق الأقصى ، ومن جزيرة زيبانجو (اليابان) التى تحدث عنها ماركـو بولـو ، ومن اليـافاس Javas (بوزينو وسومطرة) وكاتاى ، وتارتارى والهند الصينية ، كان من المعتاد ان تسافر البضائع التجارية عبر الطريق البحرى الأطول والأرخص والأكثر امنـا فى الوقت نفسـه ، وتتغير السفن ، واطقمها والبحارة عـدة مرات حتى تصل الى سـواحل البحر المتوسط . وكان البحارة والتجـار الصينيون الذين يستخدمون سفنا كبيرة تمخر عباب البحار ، وهى التى حازت اعجـاب ماركو بولو ، يحضرون البضائع من سيلان او مالابار على الساحل الجنوبى الغربى للهند ، ومن هناك يواصـل الرحلة البحارة والتجـار الهنود اذ كانوا يبحرون باتجاه الغرب عبر المحيط الهندى ، الذى كثيرا ما كان يشـار اليه فى ذلك الزمان باسم البحر العربى . وكان المجرى البحرى لهم الى الغرب يتجه اما الى اتجاه هرمز والخليج الفارسى أو يستمر نحو الغرب حتى عدن فى شبه جزيرة العرب . وكان الطريق الرئيسى ، اذا لم يتعرض لعبث قراصنة الخليج الفارسى ، يستمر شمالا حتى دلتا نهر الفرات عند راس الخليج . الا ان البحارة غالبا ما كانوا يهجرون هذا الطريق القصير بسبب القراصنة الذين كانوا يمارسون نشـاطهم من قواعد على الجزر الصغيرة المحيطة بمدخل الخليج الفارسى . ومن ثم كانت السفن الهندية تفرغ حمولاتها عند مدخل الخليج وتواصل الرحلة بها سفن أصغر حجما

يقودها بحارة من الفرس أو العرب • والطريق البحرى كان ينتهى فى البصرة ، الميناء الرئيسى فى جنوب العراق ، وهنا كانت البضائع تفرغ ثانية وتنقل الى القوارب النهرية التى تسير بهـــا فى نهر الفرات حتى بغداد • وكانت بغداد أو دمشق هى عادة المحطة النهائية بالنسبة للطرق الشرقية • وكان على التجار الأوربيين ان يقوموا بالتعاقدات على أعمالهم هناك وينقلون مشترواتهم على ظهور الجمال الى انطاكية أو صـــور ، أو عكا أو اياس (فى ارمينيا السفلى) • وفى بعض الأحيـــان ، كان التجار المسلمون أو المسيحيون الشرقيون مثل « الموصليين » يفــدون الى الموانى المسيحية فى المستوطنات الصليبية ، بل وربما كانت هناك فروع لشركاتهم هناك • وحينئذ تقوم بضائع الشرق النفيسة بالشطر الأخيرة من رحلتها صوب أوربا • وكانت السفن الأوربية تحمل الحمولة الغالية من محطات العبور (الترانزيت) فى المستوطنات الصليبية ، وبفضـــل ارادة الله والريح تصـــل الى البندقية أو بيزا أو جنوة بعد فترة تتراوح ما بين ثلاثة وخمسة أسابيع •

وكان الطريق البحرى الثانى يتفرع من المحيط الهندى ، وبدلا من الأبحـــار فى الخليج الفارسى يسير بحـــذاء ســـاحل مسقط وعمان وحضرموت ، لتفرغ السفن حمولاتها فى عدن ، وربما تبحر خلال مضيق باب المندب بين شبه الجزيرة العربية واثيوبيا وتفرغ حمولاتها فى زبيد • وكان ميناء زبيـد هو محطـة الوصـول الأخيرة لسفن المحيط الهندى • وهنا تنقل الحملة الى سفن اخـرى أخف وزنا تصلح للملاحة فى البحر الأحمر قبل أن تواصل رحلتها صوب الشمال • وكانت الجزر والشعب المرجانية والمياة الضحلة فى البحر الأحمـر تتطلب سفنا صغيرة الحجم كما تتطلب وجود بحارة معتادين على اخطار هذه المياه • وهناك كانت سفن التجار تقابل سفن الحجاج وهى تشق طريقها الى ينبع وجـــدة ، ميناثى المدينـــة ومكة • وكانت السفن المحملة بالبضائع تبحر صـــوب

الشـــمال الى الموانىء المصرية فى عيذاب والقصير ومنها تنقل بقوافل الجمال عبر الصحراء الى الجنادل عند أسوان أو عند قفط · ومن هنـا تحمل القوارب النيلية الحمولة حتى دمياط أو رشيد أو الاسـكندرية · ومن هذه الموانىء كانت السفن الأوربية تحمل البضائع الى موانىء جنوب اوربا ·

وعلى الرغم من ان هـــذا الطريق كان اكثر الطرق التجارية أمنا واكثرها استخداما ، فقد كان هناك محـور شرقى ـ غربى تجارى ثالث ينقل البضائع الشرقية من الشرق الأقصى الى الغرب على ظهور الجمال · وكانت محطـــاته النهائية فى الغرب هى مـــدن كافا فى كريميا ، وتانا وطرابيزون على شـــاطىء البحر الأســـود والقسطنطينية واياس فى ارمينيا السفلى · ومن هــذه المحطات النهائية كان التجـــار الايطاليون يبداون رحلتهم الطويلة صوب شــواطىء بحر الصين · وعلى حين كان الطريق البحرى يستغرق حــوالى عامين ، كانت الطريق البرى اقصر او تستغرق الرحلة عليه حوالى تسعة اشهر · وعلى الرغم من ان الطريق البرى ـ الذى غالبا ما كان يطلق عليه اسم طريق الحرير لتاكيد جاذبيته الرئيسية ـ كان معروفا منذ العصور القديمة فان استخدام الأوربيين له لم يصبح واقعـــا الا بعد تأسيس وتدعيم امبراطورية المغـــول الكبرى (حوالى ١٢٥٠) · وعندها ، كما لوحظ فى احد كتب الارشاد التجارية الايطالية ، صـــار فى امكان المرء ان يمر فى تلك البقاع الشاسعة وهو آمن تماما ، سواء أكان مروره ليلا أو اثناء النهار ·

وكانت هناك بعض المنتجات الأوربية القليلة التى تصدر الى الشرق الأقصى مباشرة فى مقابل الحرير النفيس · وكان الاجراء العـادى هو تبادل المنتجات الأوربية بالمنتجات المحلية على طول الطريق · وكان هناك طريقان بصفة اساسية يؤديان الى الشرق ، احدهما شـــمالى والثانى

جنوبى ثم يتفرع الأخير ايضا باتجـاه البحر العربى أو الهند · وغالبا ما كان التجار يختمون رحلتهم الشرقية فى مدينة سراى Sarai على نهر الفولجا أو استراخان على بحر قزوين أو مدينـة أورجنج على بحر آرال ؛ على حين لم يكن الآخرون يغامرون بالدخول الى ما وراء تبريز فى فارس · أما الأكثر مغامرة اى أصـحاب الشركات التجـارية الكبيرة فكانوا يعبرون حتى اماليغ ومنها الى بكين · وكان الاتجاه الجنوبى من اياس وتبريز يسير بحذاء شاطىء بحر قزوين ثم يعبر ميرثى ، وبخارى ، وسمرقند وكشـــجر ويستمر حتى يركند وخوتان وبكين ، ما لم يختر التاجر ان يعرج على كابول ويصـــل الى الدولة الاســـلامية فى الهند وعاصمتها دلهى ·

وكانت الحروب الصليبية ، وجرأة الايطاليين ومهارتهم بالاضافة الي الغزو المغولي ثلاثة عوامل مختلفة ، تفاعلت ســويا لتخلق مجموعة المراكز التجـارية التي أرست أسس الاتصـــالات الأوربية الآسيوية · وبالنسبة لانسان العصور الوسطى ، الذي كان يشعر شعورا عميقا بأن الأعاجيب ، والعالم الجديد الذى يســمع عنه مغلقا بوصف ضبابى ، فضلا عن السلع والبضائع الشرقية التى تؤكد وجود هــذا العالم ، كان هذا بالنسبة له معجزة أخري من معجزات الرب · حقيقة لقد كان هناك من يشكون فى هذا ولكنهم كانوا شـــكاك لأسباب خاطئة وحينما ضغط على ماركو بولو وهو على فراش الموت لكى يعترف بأن حكايته عن رحلته حافلة بالأساطير والخرافات ، لم يستطع ان يقول سوى انه لم يرو كل ما عاشه ورآه حقا ·

- ١٠ -

خـــــــاتمة

« قبل نهاية العـالم ستتحقق كل النبوءات وتنتشر الأناجيـل فى كل العالم وتعود أورشليم المقدسة الى الكنيسة المسيحية » . هـذه الكلمات لم يكتبها متصوف أو نبى من العصـــور الوسطى . لقد كتبها كرستوفر كولومبوس ، المـلاح الايطالى الذى كان يعـمل فى خــدمة اصـحاب الجلالة أكبر ملوك أسبانيا كاثوليكية بعد اكتشاف العالم الجديد . وقد حملت سفنه الشراعية أشرعية بيضاء بصلبان حمراء وهو الرمز التقليدى للصليبيين . وكان على ظهر احدى ســفنه يهودى تحول الى المسيحية ويدعى لويس دى توريز وكان يعمل مترجما للعربية .

لقد مضى قرنان من الزمان بين سقوط عكا واكتشاف العالم الجديد ومع ذلك فالفكرة الصليبية ، وان ضعفت ، لم تمت . اذ ان العداوة بين الشرق والغرب لم تختف ، كما ان فكرة الحرب المقدسة لم تهجر تماما . الا ان الظروف غيرت فكرة الحرب المقدســة من حرب هجومية ضـد الاسلام الى حرب للدفاع عن الدين الصحيح ضد قوى الاسلام المعادية . ومن ناحية أخرى لم يعد الاسلام تمثله فقط البلاد العربية . بل تمثله الآن الامبراطورية العثمانية العظيمة وقد كان صـاحب القســطنطينية التى سميت استنبول منذ ١٤٥٣ م أكثر خطورة من سابقيه .

ولم يمح ســقوط عكا ، وهو الحـــدث الذى ختم مصير المملكة اللاتينية ، كل المكاسب الاقليمية للصــليبيين . فقد كانت هناك مملكة قبرص القوية التى حكمها ورثة ملوك بيت المقدس الصليبيين . كما كانت

هنـــاك كذلك مملكة أرمينيا المسيحية فى آســـيا الصغرى ، والتى تدين بوجودها وحضارة بلاطها للولايات الصليبية فى الشرق على الرغم من ان الصليبيين لم يؤسسوها أو يستقروا فيها · كما كانت هناك أيضـــا جـزر بحر ايجه وبعضها جـــزء من مملكة البندقية البحرية ، وبعضها الآخر حكمته الأسر الصليبية الحاكمة مع ظهور الحملة الصليبية الرابعة ، واخيرا كانت هناك جزيرة رودس التى حكمها فرسان القديس حنا منذ بداية القرن الرابع عشر · وعندما طرد الصليبيون من الأرض اليابســة التصقوا باطرافها على ممر بحرى فرق بين آسيا وأوربا ·

وخلال القرن الرابع عشر ، ظل الاحساس باقيا بأن حملة صليبية جديدة ستتحرك من أوربا لتوجيه ضربة قاضية ضد الاســـلام مستفيدة بحكمة من التجارب السابقة المؤلمة بأخطائها · وبهذا المنظور بدت جزر شرقى البحر المتوسط كجسور ومعابر لغزو الأرض المقدســـة · وزادت الثقة التى دعمهـــا الانتاج الأدبى عن « استرداد الأرض المقدســـة » فمنذ المجمــــع الكنسى الثانى فى ليون عام ١٢٧٤ ، عندما قـدم البابا جريجورى العاشر اقتراحات بشأن كيفية انقاذ المملكة الصليبية والخطط الكثيرة توضع فى المجالس الملكية فى أوربا ، وكانت بعض هذه الخطط مجرد خيالات وهميـــة خالصـــة تجمع بين الكتاب المقدس واللاهوت ، والتفكير المعبر عن رغبـــة آملة لا اكثر · وبعض الخطط الأخرى كانت اكثر جـــدية استمدت نتائجهـــا من التاريخ بما فيه التاريخ الصليبى الحديث ، بالاضافة الى معرفة ممتازة بالتجـــارة واثرها واحتياجاتها وطرقها وتقييمات للقوة العســكرية للأعداد المسلمين · ولم تكن هـــذه مجرد حجج فى يد المدافعين والقائمين بأمور الدعاية ، فقد اثرت تأثيرا مباشرا على تفكير رجال الدولة والقادة · وفى ظل العلاقات التجـــارية والسياسية ، كان استرداد الأرض المقدسة امرا ضروريا ، وغالبا ما كانت الرغبة فى فعل هـــذا ليست أكثر من نوع من الاعتقاد الثقافى · ولكن

كثيرا ما كانت تصاحب هـــذه الرغبة الاعتقاد المخلص بأن الوســـائل العسكرية والاقتصادية ستحقق فى النهاية هدفها ·

وفى النهاية أدت المشروعات النظرية المتعددة والاعداد العملى الى ظهـــور حملتين جديدتين يمكن اعتبارهما من الحمـــلات الصليبية · الأول يقودهـــا بطرس الأول ملك قبرص ١٣٦٥ م · وكانت الثانية حملة نيكوبوليس الصليبية عام ١٣٩٦ م · وكلاهما مميز للقرن الرابع عشر ؛ فبطرس الأول الذى حاول بمساعدة البابوية تعبئة الغرب لحملة صليبية جديدة زار البندقية وستراسبورج وباريس ولندن وبراغ وكراسكو · وقد استقبل البابا والامبراطور وملوك فرنسا وانجلترا وبولندا والمجـر الملك الشـهم الذى زادت شـهرته بعـــد قتـاله المشرف للترك على ســاحل آسيا الصغرى · ولم تكن النتائج كلها مخيبـــة للآمال · وكانت القوى المجتمعة غاية فى التأثير ولكن كانت روح الفروسية هى المحركة للحملة بدلا من التفكير السياسى ·

وانطلق الأسطول الصليبى المتمركز فى قبرص الى الاسكندرية فى ٩ اكتوبر ١٣٦٥ م ، وفوجئت المدينـــة وليومين كاملين تعرضت المدينـــة للسلب الذى لم تنج منه الاحياء المسيحية · وبعد أسبوع ، ومع اقتراب الجيوش الاسلامية من القاهرة ، ترك الملك والفارس وجندى المشاة المدينة المحترقة من اجل سلامة سفنهم · وكانت هـــذه نهاية الحملة التى كانت منفسا للمطامع الفروسية لفرسان أوربا · ولكنها كانت عملا فى القرصنة أكثر منها حملة صليبية ·

وفى الوقت الذى كان فيه بطرس الأول ملك قبرص يحـرق بوابات الاسكندرية ، كان الأتراك العثمانيون يهددون أوربا فى خطورة لم يسبق لها مثيل · فمن قواعدهم بالقرب من ضولوريوم Dolorium وهى موقــع انتصار الحملة الصليبية الأولى ، وصـل الأتراك بسرعة الى شـواطىء

البوسفور وايجه والبحر الأسود · وعند موت عثمان فى ١٣٢٦ م كان الأتراك مسيطرين فى نيقية ، المدينة التى بوركت بالمجلس المسكون الأول فى تاريخ الكنيسة · وسرعان ما أصبحت الاناضول فى الداخل وأيدين Aydin على ساحل البحر الأبيض المتوسط تركية · وفى النصف الثانى من القرن غزا الأتراك تراقية Thrace واستولوا عليها ، كما استولوا أيضا على رومليا Rumelia وبلغاريا وأجزاء من مقدونيا · وكان الاسلام هو المسيطر الآن متغلغلا فى أوربا من خلال البلقان · ووقعت تحت التهديد المباشر كل من قبرص ورودس وجزر بحر ايجه وأرض السلافيين وحاول البابا ، بدون جدوى ، خلق تحالف مسيحى باسم حملة صليبية · وكما أن للتاريخ نكساته وسخرياته اصبحت الحرب الصليبية حربا دفاعية ضد الكافر المعتدى · وكانت النتيجة الوحيدة الملموسة لالتماسات البابا الحملة المشئومة التى دعا اليها البابا بونيفيس التاسع Boniface IX وقادها يوحنا دوق بورجوندى · واشترك فى الحملة الفرنسيون والألمان والانجليز والتشيكيون · وقد نزلت الحملة الى الدانوب من بودا لمقاومة الجيش التركى بقيادة بايزيد فى معركة حامية فى نيكوبوليس فى سبتمبر ١٣٩٦ م · وانتهت المعركة بالدمار والفناء للجيش المسيحى · وفى النهاية لم تكن حربا صليبية أو جيشا مسيحيا الذى أوقف الغزوات التركية ؛ ولكن ظهور تيمورلنك المرعب مؤسس الامبراطورية المغولية الثانية والذى شل حركة الأتراك لمدة جيل بأكمله ، وأجل استيلاءهم على القسطنطينية حتى ١٤٥٣ م ·

كانت موقعة نيكوبولس آخر الحملات الكبيرة ضد الاسلام · وقد اصمت أوربا آذانها فى وجه هؤلاء الذين حاولوا تحريك حملة صليبية جديدة · وكان مناخ الرأى العام بالتأكيد مضادا للمحاولة · وكانت هناك أسباب عديدة لتدهور الحماس للحروب الصليبية · فأولا وقبل كل شىء كانت هناك خيبة الأمل واليأس حول فشل الحركة · فقد كلفت الحروب

الصليبية بمجالها الواســـع مئات الالاف من البشر والثروات دون أن تحقق نتائج مستديمه · وبالاضافة الى هذا ، أصبحت الحروب الصليبية نشازا مع تطور الحياة الاوربية فى النصف الاخير من القرن الثالث عشر وفى القرن الرابع عشر · وكانت الحركة الصليبية قد خلقت كتعبير عن ايديولوجية مسيحية موائمة للقرن الحادى عشر · وبعد مائة سنة ، ومع موت انوسنت الثالث ، كانت أوربا أكثر مسيحية من قبل · ولكن الممالك الاقطاعية الخاصة فرضت نفسها فوق هـــذه القاعدة العـامة من الدين والثقافة · وقد كانت الســـليل المباشر للممالك القومية · وفى منتصف القـــرن الثالث عشر ، دخلت القوتان ، اللتان تجســـمت فيهميا فكرة « مناصرة المسيحية » ، وهما قوة البابوية وقــوة الامبراطورية أو القوة الروحيــة والقـــوة الدنيــوية لأوربا المســيحية ، فى صـراع جعـلهما عاجزتين تماما · فقـــد نظرت الممالك الاقطـــاعية التى استقطبت ولاء الشعوب نظرة جادة الى مستقبلها المباشر · ووجدت ان هـــذا المستقبل لا يكمن فى عظمة ومجــد المسيحية ، ولكن فى تقــوية وتدعيم ممالكهـا القومية · وكان الوجود اللاتينى فى الشرق أمـــرا يدعو للفخر ، ولكن القليل قــد بذل للحفاظ على استمراره حيث أن الممالك الصليبية لم تخلق قومية خاصة بها · وفى القرن الثالث عشر أصيبت هذه الممالك بالفوضى المدمرة كالحركة التى أتت بها الى الوجود ·

ولم تكن العوامل السياسية والاقتصادية الأســباب الوحيدة التى وضعت نهاية الحروب الصليبية · اذ لم يكن يقل عن هذه العوامل أهمية ، على الأقل بين الدوائر التى نصفها اليوم بالدوائر المثقفة ، ذلك العـامل الذى تمثل فى النقد والمعارضة النامية ضـد الصليبية كايديولوجية · فقد بدأت أصوات المعارضــــة فى الظهور منذ الحرب الصليبية الثانية · وقد أتت كل حملة تاليــــة بموجة جديدة من النقد · وقد امتدت قاعــدة

المعارضة للحملات الصليبية من التروبادور ، خفيفى الروح ، سليطى اللسان ، الى المفكرين السياسيين الذين أسفوا لاستغلال الحركة من أجل تحقيق المصالح البابوية (مثلا الحملة ضد فردريك الثانى) وكذلك انتقدها النساك والمتصوفة من المسيحيين ، وأهل الورع والتقوى ، الذين شكوا فى الالهام الالهى الذى ادعته الحركة ، وذلك لأن سفك الدماء يعارض التعاليم الانجيلية • وقد ظهرت فى هذه الدوائر فكرة جديدة ، وهى تعليم الاناجيل للكفار وهدايتهم • وقد ألهبت هذه الايديولوجية الجديدة بالتبشير السلمى الخيال وسرعان مانافست فكرة الحرب الصليبية •

ومنذ منتصف القرن الثانى عشر ، كان القرآن قد ترجم الى اللاتينية بواسطة رئيس دير رهبان كلونى العظيم « بطرس المبجل » وبهذا جعل القرآن معروفا للغرب فى سبيل فهم الاسلام وكقاعدة أساسية للمجادلات المضادة للاسلام • وقد داعبت البعض فكرة أنه طالما أن الاسلام لم يرفض الانبياء ولم يرفض عيسى المسيح ، فانه يكفى الاشارة الى أخطاء محمد حتى يتم ادخال المسلمين فى حظيرة المسيحية • وكانت الارساليات المبعوثة الى المغول فى منتصف القرن الثالث عشر ارساليات دينية أساسا هدفها تحويل هذه القوة الجديدة الى المسيحية • وكان ريموند لول عند بداية القرن الثالث عشر أكثر رسل فكرة التبشير بلاغة ، وتحت تاثيره قرر مجمع فيينا عام ١٣١١ م تاسيس ست مدارس للغات الشرقية لتدريب ناشرى الدعوة والمبشرين ووصل الدومنيكان والفرنسيسكان الى مناطق من العالم لا توجد على الخريطة يعظون ويناقشون ويعمدون ويؤسسون جماعات محلية صغيرة • وعلى الرغم من ان بعض ماثرهم يمكن تصنيفها على انها أخاذة ، الا ان ارسالياتهم لم تصبح ابدا حركة جماهيرية • ومع ذلك فقد قوض وجودهم فكرة

الصليبية ، التى أوجدت القاعدة النظرية للمعارضة أو الرفض ٠

وعلى الرغم من العراقيل فقد استمرت ايديولوجية الحروب الصليبية ، ولكنها مع الزمن حددت لها أهدفا جديدة ، وبالتالى وضعت وسائل جديدة للعمل ٠ وقد حدث التغيير الرئيسى عند نهاية القرن الرابع عشر ٠ وأصبح رئيسيا بعد منتصف القرن الخامس عشر عندما ارتبطت فكرة الحروب الصليبية بحركة الاستكشاف العظيمة ٠ ومن الصعب معرفة درجة الاخلاص فى هذا المثال الجديد ٠ اذ يبدو أن حركة الاستكشاف استمدت وحيها من مصادر مختلفة ، ولقيت قبولا لدى مستويات متنوعة من الناس ٠

ولقد بدأت حركة الاكتشافات العظيمة فى بداية القرن الخامس عشر بالمكتشفين البرتغال الذين وصلوا الى جزر الاطلنطى فى الغرب ، وداروا حول الشاطئ الغربى لأفريقيا فى الجنوب وكان Infante Enriques البرتغالى الروح المحركة لتلك المقاصد الخطيرة التى غيرت مصير الانسان فى أقل من مائة عام ٠ فقد كانت الاكتشافات البرتغالية للساحل الأفريقى امتدادا لحرب الاسترداد ، وتحويلا للحرب المقدسة ـ التى هى الآن فى آخر مراحلها فى شبه الجزيرة الايبيرية ـ الى الأراضى المجاورة للاسلام والوثنية ٠ وربما يكون بمثابة خطأ فى قراءة التاريخ اذا حددنا أهدافا تبشيرية خاصة بهذه الاستكشافات أو حتى أن نفترض ان التحول الى المسيحية ـ كان عاملا أساسيا فيها ٠ ومع ذلك فليس هناك شك فى أن القادة القباطنة والمكتشفين والتجار قد اعتقدوا ان هناك هدفا أسمى لمشروعاتهم عن مجرد البحث عن Eidorado ٠ فقد ارتبط الجانب الروحى للاستكشافات بالاعتقاد فى مسئولية الرجل الأبيض الخاصة بنشر الانجيل فى كل العالم المسكون ٠ وكان رسل هذه الأيام الأخيرة مسيحيين متعمقين فى ايمانهم ، ولهذا فقد رأوا أن هداية الكفار ، وتعميد

الوثنيين جـزء لا يتجزأ من مهمتهم • ومن مميزات هذا الشعور أنه بعـد اكتشاف العالم الجديد وقع كولومبس باسم كرستوفيرنز ، حامل أنبـاء المسيح السارة الى العالم الجديد • وهذا الجانب التبشيرى واضح خلال كل فترة الاكتشافات الكبرى، فقد كان كرستوفر كولومبس وفاسكو دى جاما ومؤسس الامبراطورية الكبير البوكريك يشعرون جميعا به ؛ بل واعتبروه جزءا من مهمتهم •

وقد قامت بعثة كولومبس وتوقعاته جزئيا على اعتقادات خاطئـة عن حجم الأرض ، وعلى فكرة أنه بالابحار تجاه الغرب يصل الانسـان مباشرة الى الهند ، وبناء على هذه الفروض نشـأت فكرة الهجوم على الاسـلام من بابه الخلفى ، أى من الشرق • وقد أدت اسـطورة مملكة القديس يوحنـا ، التى حددت بالتبادل فى الشرق وفى أفريقيا ، وكذلك الأوصاف الخيالية لثرواته وقوته العسكرية الى افتراض أن تحالفا شرقيا سيسهل الهجوم على الاسلام من جبهتين •

وعندما اتضح الخطأ بدأ التعبير عن فكرة الصليبية فى ألفاظ اقتصادية بمعنى ان الاتصـال المباشر بجزر التوابل والهند سيجعل أوربا مستقلة عن مصر تجـاريا • وفى نفس الوقت تقوض موارد مصر الاقتصـادية الرئيسية ، وهو الدخل الوارد اليها من الضرائب المفروضة على التجارة الدولية ، التى كانت تنتهى بطريقها للآسيوى الأفريقى فى دلتا النيل • ولم تنجح أوربا مطلقـا فى تحقيق هـذا البرنامج ، ولكن حققه الأتـراك العثمانيون بعد فتحهم لمصر (١٥١٧) ، وتحويلهم للطـرق التجـارية الى عاصمتهم الجـديدة استنبول • وبينما دمـر هـذا مصـر دفع بأوربا الى جهود كشفية جديدة من أجـل كسر الاحتكار التركى للتجـارة مع الشرق الأقصى • ومع ذلك فالسيادة على التجارة مع آسيا واكتشـاف

الذهب فى العالم الجديد ، كل هذا كان فى خدمة رؤيا الصليبيين الموتى ، فعند الابحـــار غربا وتوسيع المســافات بين العالم المسيحى والأرض المقدسة دون كولومبوس فى دفتر حسابات سفينته : « اقترح على جلالتكم أن كل الربح الذى سأحصل عليه من مشروعى يجب أن يستخدم للاسترداد بيت المقدس » ٠

تعقيب

الموقف اليهودى من الحروب الصليبية والأسس الدينية للحركة الصليبية

لقد حظى موضوع الحركة الصليبية بكثير من الدراسات التى حاولت جادة البحث فى أصول فكرة الحركة الصليبية وما نشأ عنها من حملات وحروب استمرت لقرنين من الزمان وأصبحت أحد المعالم البارزة فى تاريخ العصر الوسيط · وقد ساهم فى هذه الدراسات عديد من المؤرخين والمفكرين المسلمين والمسيحيين على السواء ، كل يحاول من وجهة نظره ووفقا لخلفيته الدينية والثقافية أن يحلل الفكرة الصليبية ويعلل نشأتها ويبحث عن أسباب لاستمرارها ويبحث أيضا عن مبررات لفشلها فى تحقيق أهدافها · كما اهتمت بعض الدراسات الأخرى بتقييم الحركة الصليبية وتحديد مكانها داخل الاطار العام للتاريخ الأوربى فى العصر الوسيط من ناحية ، والتعريف بدورها وأثرها فى توجيه العلاقات بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى لفترة طويلة من الزمان من ناحية أخرى ·

والكتاب الذى قمنا بترجمته هنا لا يخرج عن هذا الاطار الا أن المؤلف هذه المرة ليس مسلما أو مسيحيا ، ولكنه يهودى من اسرائيل ، وهذا يضفى على عمله ابعادا جديدة غير مألوفة فى الكتابات الاسلامية والمسيحية عن الحركة الصليبية · فموضوع الحركة الصليبية من الموضوعات التى أثارت حساسية المسلمين والمسيحيين لقرون من الزمان ، ولا نكون مغالين اذا قلنا انها كدرت صفو العلاقات الاسلامية المسيحية لفترة طويلة · ولهذا لم تخل الكتابات الاسلامية والمسيحية

من اشارات تعكس خليفة الكاتب وثقافته الدينية · والحقيقة أن موضوعا حساسا كهـذا يجعل من الصعب على المؤرخ ، مسيحيا كان أم مسلما . أن يلتزم بالموضـوعية العـلمية فى معـالجته له الا أنه لا ينفى وجـود هـذه الموضـوعية لدى بعض المؤرخـين · ولهـذا فقـد يظهر بين الحين والآخر ما يعكس خلفية المؤرخ · ونستطيع ان نقول بشـكل عام ان معظم الكتاب المسلمين الذين ارخـوا للحروب الصليبية او كتبـوا عنها التزموا عن حق بموقف الدفاع هـذا فى الوقت الذى تارجحت فه كتابات المؤرخين المسيحيين بين اتخـاذ مواقف التبرير احيانا والادانة للحركة الصليبية احيانا اخرى ·

ومؤرخنا ، هذه المرة ، ليس مسلما او مسيحيا · وهـذا يعنى أنه عاطفيا لا ينتمى الى أى من الطرفين صـاحبى النزاع ، وأنه قد تم له التحرر من قيود هذا الانتماء ، فهو ليس فى حاجة الى تبرير ما حـدث أو الحكم بالادانة أو اتخاذ موقف دفاعى وان كان هذا لم يمنع الكاتب من التعبير الحر عن رأيه واتخاذ وجهات نظر معينة طالما أن هذا لم يخرج به عن اطـار الموضوعية العلمية المطلوبة فى البحث التاريخى · ونحن نرى أن هذا قد تم فى صـورة مرضية فى هذا العمل الذى الفه الأستاذ يوشع براور الأستاذ بالجامعة العبرية بالقدس فقد قدم الكاتب دراسـة تحليلية متكاملة للفكرة الصليبية وتطورها واظهر فى ثنايا عمله كثيرا من صور الاحتكاك الثقافى والحضارى بين عالم الصليبيين وعالم الشرق الاسـلامى · وهو وان اتفق مع المؤرخين المسلمين والمسيحيين فى وصف كثير من الاحداث الرئيسية المتعلقة بالحمـلات الصليبية والظروف التى نشات فيها الا انه يضفى على تحليله التاريخى عناصر غابت من ادراك المؤرخين المسلمين والمسيحيين ، أو لنقل انها ربما لم تكن موضع اهتمامهم ، ولذلك أغفلوها فى ابحاثهم الخاصـة بالحركة الصـليبية ونحاول فى الصفحات التالية ابراز أهم هذه العناصر ·

الموقف اليهودى من الحروب الصليبية

من أول الأمور التى اهتم بهـــا المؤرخ براور فى تحليله محاولته تحديد ما نسميه بالموقف اليهودى وهو أمر ذو شقين الأول : تحديد الموقف الصليبى من اليهود سواء فى الدول الأوربية ابان ظهور الحركة الصليبية أو الموقف الصليبى من يهود فلسطين بعد وصـــول القوات الصـــليبية الى الشرق وتأسيسها للمملكة الصليبية فى القدس · والشق الثانى هو تحديد موقف اليهود من الحركة الصـــليبية وتحديد الدور الذى لعبـــه اليهود فى هذه الفترة ايجابيا كان أم سلبيا · ومن الواضح هنا ان خلفية المؤرخ وثقافته اليهودية قد أملت عليـــه ضرورة البحث فى الأوضـــاع اليهودية فى فترة الحروب الصليبية ودراسة هذه الأوضـــاع فى الدول الأوربية التى تزعمت فكرة الحركة الصليبية وفى الشرق الاســـلامى · ولا شك ان هـــذا جانب من الدراســـات التى لم تجذب اهتمام المؤرخين المسـلمين والمسـيحيين للحـركة الصـليبية وهنـا يجب أن نشير الى أن معظم الدراســات المتعلقة بالحروب الصليبية وتاريخها لم تعالج هـــذا الموضوع الخاص باليهود داخل اطار الدراسة التاريخية أى لم تعالجه ضمن معالجتها الكلية للحروب الصـــليبية وان كنا لا ننكر أنه قد عولج بشكل أو بآخر فى اطار دراسات أخرى كالدراسات الخاصـة بالعلاقات اليهودية المسيحية عبر العصور بما فيها فترة الحروب الصليبية(١) أو الدراســـات الخاصـة بتاريخ اليهود والتى أفردت فصـــولا للتاريخ اليهودى فى العصر الصليبى(٢) أو الدراسات الخاصة بظاهرة المعـاداة للسامية · اذ عادة ما يفضـل المؤرخون اليهود بالذات منـاقشة الموقف الصـليبى من اليهود ضـــمن الموضوعات المتعلقة بتاريخ المعـــاداة للسامية(٣) · والحقيقة ان هذه ظاهرة لا تقتصر فقط على المؤرخين اليهود ولكنها تشمل أيضـــا بعض الكتاب المسيحيين الذين انشغلوا بالتاريخ

للمعاداة للسامية وافردوا فصولا فى كتاباتهم لمعالجة الفكرة الصليبية كجزء من تاريخ المعاداة للسامية(٤) ٠

وبصرف النظر عن طريقة المعالجة فان غالبية المؤرخين يتفقون على أنه مع بداية الحروب الصليبية ، التى كان هدفها الأول المسلمين فى فلسطين والشرق عامة ، ظهر عنصر جديد ومأساوى فى تاريخ العلاقات المسيحية اليهودية فقد كانت الجماعات اليهودية فى أوربا اول من عانى من ظهور فكرة الحركة الصليبية ٠ وقد بدأت هذه المعاناة فى أوربا ذاتها وقبل ان تصل الجيوش الصليبية الى الشرق الاسلامى اذ اثارت فكرة الحرب الصليبية المشاعر الدينية لدى الجماهير الأوربية المسيحية وشحنتها بالعاطفة الدينية المتطرفة وقد صور قادة الحركة المسلمين فى صورة الكفرة أعداء المسيح والمسيحيين واصطدمت هذه الروح الدينية الجديدة والمتطرفة أول ما اصطدمت بيهود أوربا الرمز الأول للكفر والعدو التقليدى للرسالة المسيحية فى نظر أهل العصور الوسطى من المسيحيين فى أوربا ٠ فمارست الجماهير الثائرة الاضطهاد فى شتى صوره ضد الجماعات اليهودية فى محاولة « لتطهير البيت من الداخل » ، كما ادعى بعض زعماء الحركة ، قبل تطهيره من الخارج والداخل هنا يرمز الى يهود أوربا اما الخارج فهو عالم الاسلام والمسلمين ٠ ووقعت التجمعات اليهودية فى أوربا ضحية الفوضى التى استشرت بين القوات الصليبية وعدم انتظامها وانقيادها اثناء خروجها من أوربا متجهة الى الشرق فنهبت وخربت كل ما صادفته فى طريقها وكان يهود المدن الواقعة على طريق الحملات الصليبية أول من تعرض لهذا النهب والسلب ٠ ولم تسلم بعض الجماعات المسيحية من هذا اذ لم يكن فى قدرة الجيوش المتحركة التمييز بين اليهودى والمسيحى وهى فى طريقها الى الأرض المقدسة وكانت النتيجة ان عرف اليهودى والمسيحى الارثوذكسى حد السيف الصليبى قبل أن يعرفه المسلم ٠

هذا السلوك من جانب القوات الصليبية المتجهة الى الشرق لا يمكن بأى حال أن يكون ممثلا للموقف الصـــليبى الرســـمى من اليهود فى المجتمعات الأوربية وفى فلسطين · واذا رجعنا الى أقدم الوثائق الصليبية الرسمية وهو خطاب اربان الثانى فى كليرمونت لما وجدنا اشارة واحدة الى اليهود ومن هنا لا نستطيع التأكيد على وجود موقف رسمى من اليهود وان ما حدث يمكن تفسيره على أنه يرجع الى قوى غير عقلانية ففى حالة جنون من الحماسة المسيحانية خبرت جماهير الصليبيين الشعبية العنيدة اليهود بين الروة أو الموت على حد تعبير براور الذى يقول ان « ما بدأ كتعبير عن شعور دينى سرعان ما تحول الى مذبحة دموية قصـــد منها القضاء التام على الجماعات اليهودية فى أرض الراين » وهى جماعات قديمة يعود بعضها الى عصر الامبراطورية الرومانية كما نشـــأ بعضها بناء على طلب بعض الأساقفة المحليين الذين أرادوا تعمير المدن الناشئة وتحويلها الى مراكز تجارية بمساعدة اليهود وخبرتهم فى هذا المجـــال وقد ازدهرت بعض هذه التجمعات اليهودية وبلغت شأوا عظيما فى العلم وظهرت من بينها مدارس لتفسير العهد القديم وتفسير التلمود · وهكذا يبدو أنه لم يكن فى صـــالح النظـــام السياسى فى أوربا ولا فى صـــالح الكنيسة ذاتها أن ينتهى الوجود اليهودى فى أوربا · ولكن الكنيسة ومعها الدولة لم يستطيعا الوقوف فى وجه ما يشبه بالثورة الشـــعبية ضـــد اليهود ووجدت كراهية اليهود مخرجا لها فى أعمـــال النهب والســـلب التى أصبحت جزءا لا يتجزأ من كل حملة صليبية خلال مائتى عام ؛ فانتهت جماعات يهودية باكملها وقتل كثير من اليهود ممن رفضوا التعميد · ومع الحملة الصليبية الثانية وازدياد حركة الاضطهاد ضـــد اليهود ظهر بين اليهود طقس جديد يســـمى طقس الاستشهاد قطـــع فيه الرجال رقاب زوجاتهم وأولادهم وهم يتلون الصلوات الخاصـــة بذبح الحيوانات ثم ينتحرون هم بعد ذلك · وبهذا الاضهاد الصليبى دخل يهود أوربا فى عصور

الظلمـــة التى اســـتمرت فى بعض المناطق من اوربا الى بداية القـرن العشرين ٠

ومن الناحية الدينية حرمت السياسة الرسمية للكنيســة التعميد الاجبـارى ولم يرض رجـال الدين عن الاضطهاد الواقع باليهود اذ كان يهمهم فى نفس الوقت الاحتفاظ بالعنصر اليهودى كشهادة على الايمـان المسيحى وانتصار الكنيسـة ٠ ولهـذا نجد بعض الأساقفة حاولوا منع جماهيرهم الثائرة من الأضرار باليهود ولم تمنع هذه المحاولات الفردية من اضطهاد اليهود وان كانت قد خففت من حدته فى بعض المناطق ٠ ولكن الجماهير فى حماسها غير العقلى لم تصغ لأوامر الكنيسة ووجدت المبرر لذلك فى خطاب اربان الثانى فى كليرمونت والذى حـدد العـدو بأنه « الكافر » ٠ وكان المقصود بالكافر هنا المسلمين الا ان الجماهير الشعبية لم تفرق فى الكفر بين اليهود والمسلمين واتخذت شعارها تطهير المنزل من الداخل قبل قتال الكفار فى الخارج وكان لهـذه الحملة الجماهيرية أبطالـها أمثـال فـوكمار Volkmar و جوتشوك Gottschalk واميكو Emicho وغيرها ٠ وقـد أثارت هـذه الأحـداث الحساسيات القديمة بين اليهود والمسيحيين فبمجرد الحديث عن « الكفرة » واعـداء المسيح ورد ذكر اليهود وخطرت على البال احداث العلاقات اليهودية المسيحية القديمة ورفض اليهود لرسالة السيد المسيح عليه السلام بل واتهامهم بقتله ٠٠٠ ولا شك فى ان كل هذه المشاعر ظهرت من جديد مع الدعـوة الجديدة الى الانتقام من « أعداء المسيح » وطبيعى ان تكون العامة اكثر الجميع حماسة واندفاعا الى الانتقام ٠ وفى هـذا يقول المؤرخ بولياكوف Poliakov ان المذابح التى تعرض لهـا اليهـود لم تـكن من فعـل الجيوش الصليبية المنظمة التى قادها البارونات ولكنها كانت من فعـل الرعاع الذين لا نظام لهم والذين سبقوا الجيوش المنظمة اثنـاء الزحف الى الشرق(٥) وقد وجدت هـذه الأعمال تشجيعا من بعض الكتاب فى

العصر الوسيط الذين عاصروا الحملات الصليبية فها هو المؤرخ الصليبى Guibert de Nogent يـؤكد بـل ويشجع على اتخـاذ موقـف الانتقـام من اليهود فيقول : « نحن نريد الذهاب وقتال أعـداء الله فى الشرق ولكن أمام أعيننا هنا بعض اليهود وهم جنس اكثر عداء لله مـن أى جنس آخـر »(٦) ويقـول Richard of Poitiers : « قبـل الرحيل الى هذه الأماكن (يعنى الشرق الاسلامى) قضى (الصليبيون) بالمذابح على كل يهود الغال فيما عـدا هؤلاء الذين قبلوا التحول الى المسيحية وقد قالوا (الصليبيون) انه ليس من العدالة ان نسمح لأعـداء المسيح بالبقاء أحيـاء فى بلادنا وقد حملنا السـلاح لطرد الكفار فى الخارج(٧) وما بدأ كثورة شعبية ضد اليهود فى الحرب الصليبية الأولى أخذ شكلا مختلفا مع الحرب الثانية فقد اسـتغل الرهبان الوعاظ من الصليبيين هـذا الموقـف عقائـديا فنجـد مثلاAbbe Pierre of Cluny يقول : « ما الفائدة من الذهاب الى نهاية العالم وخسران الرجال والمال لمحاربة المسلمين بينما نسمح لكفار آخرين اذنبوا الف مرة تجاه المسيح عما فعله المسـلمون » (٨) وكـذلك قال الراهب Rudolf فى المـانيا : « فلننتقم أولا للمصلوب من أعدائه الذين يعيشون بيننا ثم نذهب لقتال الأتراك » (٩) ٠ ومما لا شك فيه انه الى جانب هذه الدعوات الواضـحة الى الانتقام من اليهود كان هناك أيضـا بعض من دعـوا الى حماية اليهـود من غضب العـامة بل لقـد ذهب Bernard of Claivaux الى أبعد من هذا حين استدعى بعض الذين اثاروا العامة للتحقيق مبينا لهم « المخاطر اللاهوتيـة » لعملهم الانتقامى ضـد اليهود : « الم يخاطروا باثارتهم للقضاء على اليهود بالقضاء على أمل الكنيسة فى هداية اليهود الى المسيحية » (١٠) ٠

اما عن الموقف اليهودى من الحركة الصليبية فهو فى حقيقة الأمر موقف سلبى للغاية على الرغم من كل محاولات براور لاثبات غير ذلك ٠

ونحن لا ننكر ان تركيز الكاتب على ما لقيـــه اليهود من اضطهـــادات متواصلة طيلة مائتى عام جعله يتخذ موقفا موضوعيا تجاه المســلمين الا أنه يغالى عندما يحاول تصوير النزاع على انه نزاع مسيحى من ناحية واسلامى يهودى من ناحية أخرى فنحن نرى أنه ليس هناك مبرر لاعطاء اليهود دورا مشابها لدور المسلمين فى المعارك الصليبية · وذلك بدليل ان حركة المقاومة ضد الصليبيين التى بدأها المسلمون لم تجذب انتباه يهود الشرق أو يهود فلســطين بالـــذات فلم يقوموا بدور يذكر فى الصراع السياسى العسكرى الدائر حينئذ بين الصليبيين والمسلمين ·

حقـــا لم يفرق الصليبيون بين اليهود والمسلمين فقد كانت النظرة الصليبية الدينية نظرة موحدة تجاه المسلمين واليهود فهم « الكفرة » أعداء المسيح القاطنون فى الأرض المقدسة التى يجب تطهيرها ، خاصة الأماكن المرتبطة بحياة السيد المسيح ومماته وقيامته ، من دنس اليهود والمسلمين· ولكن هذه النظرة الصليبية الموحدة لا تعطى الكاتب الحق فى التسوية بين دور اليهود ودور المسلمين فى النزاع ، فهو يتغاضى تماما عن السلبية التى اتصف بها الموقف اليهودى منذ بداية الحركة الصليبية حيث قبلت الجماعات اليهودية الاضطهاد الذى حل بها · حتى المقاومة التى أبدتها بعض هذه الجماعات كانت مقاومة سلبية بلغت دروتهـا فى الانتحـــار الجماعى الذى ارتكبه بعض أفراد من هذه الجماعات هروبا من التعميد الاجبارى وان كان التاريخ اليهودى قد اعتاد ان يطلق على مثل هؤلاء الأفـراد اسـم الشهداء كمـا فعل المقاتلين اليهود فى الحرب الرومانية اليهودية ٦٦ ـ ٧٣ ق·م · الذين فضلوا الانتحـــار على السقوط أسرى فى يد القوات الرومانية المحاصرة لقلعة ماسادا ومما لا شك فيه أن هذا الانتحار الجماعى وتفضيل الموت على التحول الى المسيحية تعبير رائع عن مدى قوة الشـــعور الدينى لدى أفراد الجماعات اليهودية ولكنه فى نفس الوقت لا يعد من باب المقاومة التى أوقفت المد الصليبى أو ســاعدت

على تغير سير الأمور فى ذلك الوقت • وانصافا للحق نقول أنه ربما ان الظروف اليهودية فى أوربا لم تسمح فى ذلك الوقت بقيام اليهود بحركة مقاومة منظمة للاضطهاد الصليبى الذى بدأ كتعبير عن شعور شعبى وانتهى الى سياسة منظمة فالوجود اليهودى فى أوربا كان وجودا ضعيفا من النواحى السياسية والاقتصادية فالأوضاع الاقتصادية بالذات لم تكن تسمح لليهود ان يلعبوا الدور الاقتصادى الذى لعبوه أكثر من مرة وفى ظل ظروف أفضل فى تاريخ العديد من الشعوب •

ولكن اذا كانت هذه ظروف الجماعات اليهودية فى أوربا فماذا نقول عن يهود الشرق ويهود فلسطين بالذات ؟ لقد كان عليهم أن يلعبوا دورا مختلفا عن دور رفاقهم فى أوربا نظرا لاختلاف ظروفهم • فبما ان المسلمين كانوا هدف الحملات الصليبية وبما ان اليهود كانوا أول ضحايا التحرك الصليبى الى الشرق فهذا يعنى ان واقع الأمر كان يتطلب نوعا من وحدة الهدف تجمع بين اليهود والمسلمين طالما أن العدو مشترك بينهما وأنه كان على اليهود أن يلعبوا دورا ملحوظا فى حركة المقاومة الاسلامية للغزو الصليبى • ولكن واقع الأمور يشير الى غير ذلك فالمصادر التاريخية اسلامية كانت أم مسيحية بل المصادر اليهودية ذاتها لم تذكر شيئا عن محاولات يهودية للوقوف فى وجه الغزو الصليبى سواء باشتراك مع المسلمين أو فى محاولات يهودية فردية ولا يعطى براور فى دراسته عن عالم الصليبيين أية أمثلة عن المقاومة اليهودية على الرغم من محاولة اللاشعورية لخلق دور لليهود • وهناك عبارة ذكرها براور ومرت دون أدنى تعليق من جانبه وهى عبارة تثير الشكوك فى حقيقة الدور الذى لعبه اليهود فى فلسطين وفى القدس بالذات أثناء دخول الجيوش الصليبية الى المدينة المقدسة فقد ذكر براور ان الجيش الصليبى قد دخل المدينة المقدسة من الحى اليهودى • وهذه الواقعة التاريخية تتطلب

ضرورة اعطاء الوصف الكامل للاحداث التى صاحبت سقوط القدس حتى تتضح لنا دلالة هذه العبارة التى ساقها براور وسنستخدم هنا وصف براور نفسه للظروف التى صاحبت سقوط القدس . يقول براور : « وكان الفصل الأخير من الحملة الصليبية حصار القدس الذى استمر خمسة أسابيع (٧ يونيو ـ ١٥ يوليو ١٠٩٩) وقد استعدت المدينة لحصار طويل نظرا لأن المدينة محاطة بالوديان العميقة من كل جوانبها فيما عدا الجانب الشمالى ونصب الصليبيون معسكراتهم حول الأسوار الشمالية والغربية والجنوبية للمدينة ولكنهم فشلوا فى اغلاق المدينة من الشرق (بين ساحة الهيكل وجبل الزيتون) وقد تصوروا ان الحصار سيكون عاديا ولكن سرعان ما اتضح ان قواتهم سوف لا تستطيع تنفيذ مهمتها بسهولة ولم يكن هناك شىء أكثر مناسبة لمناخ هذا الفصل الأخير من ملحمة الحملة الصليبية الأولى سوى حدوث بعض الرؤى الالهية واشتراك القديس جورج فى المعارك ... وهنا كان قادة الحملة الصليبية أبطال مئات المعارك والمقاتلون المحنكون يسألون نصيحة راهب عاش فى أحد كهوف جبل الزيتون عن كيفية الاستيلاء على المدينة فالغارات الفاشلة على الأسوار وموكب المشاة حولها وتوقع سقوطها كما سقطت أسوار أريحا .. كل هذا اثبت عدم جدواه فقد مضت خمسة أسابيع قبل ان تكون آلات الحصار مستعدة وقد شن هجوم عام فى يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩ م ففى وقت الظهيرة ، ساعة الصلب التقليدية ، نجح برج المحاصره التابع لجودفراى فى الاقتراب من الجانب الشرقى للسور الشمالى وانزل كوبرى على رأس الشرفات ودخل الجيش المدينة من الحى اليهودى .... »

يتضح من هذا الوصف الذى قدمه براور ان الاستيلاء على القدس لم يكن أمرا سهلا ، وكانت النتيجة الحتمية ان سقطت بقية أركان المدينة للقادة

الصليبيين المحيطين بها • واذا أضفنا الى هـــذا عبارة أخرى فى نفس الصفحة وهى تخص السكان المسيحيين لبيت لحم لأدركنا مـدى سلبيـة كل من يهود ومسيحيى القدس والمدن المجاورة • يقول براور فى موضـع سابق : « وكانت الحملة الصليبية تقترب من نهايتها ووصل وفد مسيحى من بيت لحم وطلب الحماية فقد أصبح وجودهم مهددا بالتعصب الاسلامى والرغبة فى الانتقـــام وامتطى تانكرد صهوة جواده ليلا وفى الصباح التالى رفرف علم نورماندى على كنيســـة الميلاد قبل ان يدخل أى غربى مدينة القدس المباركة » • ولا ندعى هنا ان موقفا موحدا قد اتخذ من جانب اليهود والمسيحيين فى فلسطين فى ذلك الوقت فالواضـــح ان كل جماعة قد تصرفت بمفردها اذ ليس هناك ما يدعو الى اتحادهما فى هذه اللحظة• والنتيجة التى نصـــل اليها من مثل هـــذه التصريحات هى أن الموقف اليهودى بالذات كان موقفا سلبيا للغاية فى المقاومة والدفاع عن المدينة المقدســـة وان الحى اليهودى كان نقطـــة الضعف التى اســـتفاد منها الصليبيون المحاصرون للمدينه والتى شقوا منها طريقهم الى بقية جوانب المدينة وأسوارها • ومن هنـــا فنحن لا نرى دليلا مقنعا على ان اليهود لعبوا أى دور يذكر فى تاريخ الوجود الصليبى فى فلسطين وانه اذا كان هناك دور فهو سلبى للغاية • كما توضح الأدلة التى سردناها •

الأسس الدينية للحركة الصليبية

واذا كنا نختلف مع براور فى نظرته للموقف اليهودى من الحركة الصليبية الا أننا نجد أنفسنا متفقين معه فى التحليل الذى يقدمه من خلال بحثه لكى يثبت ان الحركة الصليبية لم تقم على أسس دينية قوية كمـا ادعى أصحابها أو كما يبدو من المظاهر الخارجية للحركة • ومن هـــذا التحليل لدوافع الغزو الصليبى للشرق الاســـلامى يتضح كيف لبست الحركة الرداء الدينى الذى ظهرت به أمام الجمـــاهير الأوربية لتكسب

عطفها وتأييدها ولتكسب أيضا عون رجال الكنيسة الروحى والمادى فى نفس الوقت ٠

والمتتبع للحركة الصليبية منذ بدايتها وانطلاقها الى الشرق يستطيع ان يميز عدة براهين وأدلة على ابتعاد الحركة ومؤسيسها عن أهداب الدين وعلى وجود دوافع سياسية واقتصادية اختفت وراء الدوافع الدينية لكى تحقق ماربها فى ظل حماية الدين وتشجيع رجال الكنيسة ومعونتهم ٠ ومن أول هذه الأدلة موقف الجيوش الصليبية كجيوش ممثلة للمسيحية الغربية من المسيحية الشرقية وأتباعها ٠ فهذا الموقف يؤدى الى الاعتقاد فى أن القضاء على مسيحية الشرق كان أحد أهداف الغزو الصليبى ولا نكون مغالين اذا ألحقنا أتباع المسيحية الشرقية الى قائمة « الكفرة » الذين تحدثت عنهم المصادر التاريخية الصليبية ٠ ويبدو من سلوك القوات الصليبية المنظمة وغير المنظمة فى المناطق المسيحية التى تم فتحها فى الطريق الى الشرق الاسلامى أن هذه القوات لم تكن ملتزمة بسلوك مسيحى أخوى تجاه السكان المسيحيين ٠ وحتى قبل أن تخرج هذه القوات من أوربا بدأت فى نهب السكان وسلبهم بمجرد انتهاء المؤن وقد حدث هذا فى فرنسا وألمانيا وبوهيميا وفى المجر والبلقان حيث تصرفت الفرق السائره كجيش غاز فى مقاطعة العدو مما اضطر أهل المجر مثلا الى تنظيم المقاومة المسلحة والدخول فى معارك ضد الجماعات الصليبية التى قامت بأعمال السلب والنهب ٠ كل هذا والقوات الصليبية لا تزال تسير فى أرض مسيحية غربية ، ويزداد الأمر سوءا مع دخول القوات الصليبية الى أرض المسيحية الشرقية ففى البلقان ، وهى من أراضى الامبراطورية البيزنطية ، اصطدم الصليبيون باختلاف العادات الدينية وغير الدينية واختلاف اللغة ٠٠ وقد حول هذا لقاء مسيحية الغرب بمسيحية الشرق الى واقعة عسكرية على حد تعبير براور ولجأ البيزنطيون

الى وســـائل عدة للتخلص من أعمال السلب والنهب فأمدوا الصليبيين بالطعام والمؤن حتى يتجنبوا شرهم بل ولجأوا الى ارسال قوات تكونت غالبا من الاتراك الذين يعملون فى خدمه البيزنطيين لقمع عصابات النهب الصليبية وأصبح الطريق الى القسطنطينية تميزه القرى المحترقه والمدن المنهوبة والجثث الملقيه على قارعة الطريق ·· الى هـــذا الحد عانت بيزنطة من سوء سلوك الفرق القادمة من الغرب المسيحى والتى كان من المفروض انها قادمة لنجدة بيزنطه والمسيحيين بها · وقد نجح الامبراطور الكسيوس كومينيوس فى ان ينتزع وعدا بالحفاظ على حقوق امبراطوريته فى الغزوات الصليبية التالية داخل المقاطعات البيزنطية السابقة · وقد اضطر الامبراطور الى استخدام الحيل والتهديدات والرشوة للحصـــول على هذا الوعد بعد ان امد القوات الصليبية بالمرشدين وبالمال والامدادات ونقلهم عبر المضايق الى الاراضى الآسيوية ·

وقد اشار سير الاحداث فيما بعد الى أن الصليبيين لم يكونوا جادين فى اقامة تحالف مسيحى مع بيزنطـــة مع ان بيزنطـــة أبدت منـــذ البداية استعدادها للتعاون وكان اســـطولها على استعداد للتحرك الى مصر · ولم يـــدم التحالف طويلا فقد اعتقـــد الصليبيون انهم يستطيعون بمفردهم احراز النصر والانفراد بالمكاسب · ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل لقد طمع الصليبيون فى أملاك بيزنطة وسعوا الى ضمهـــا لاملاكهم · وقد اقنع الكسيوس الرابع انجيلوس الصـــليبيين فى الحملة الرابعـــة بغـــزو القسطنطينية واعادته الى السلطة واعدا القادة الصليبيين بوضع موارد بيزنطة تحت تصرفهم بالاضـــافة الى مكافأة مجزية للجيوش وقـــد وجدت البندقية فى هذه الفكرة فرصة عظيمة لتوطيد نفسها فى بيزنطة فتتم لها بهذا السيادة على أعظم المراكز التجارية فى العالم · ولم يكن هذا القرار المتخذ ضـــد القسطنطينية ممكنا لولا العــــداء المورث بين الغرب والامبراطورية البيزنطية والذى بدأ ظهوره خلال الحملة الأولى ثم سرعان

ما تحول الى عداوة صريحه خلال الحملة الثالثة عندما اتهمت بيزنطة صراحة بالتستر على صلاح الدين • ويعتقد براور أن الفكرة الأساسية ربما كانت أجبار بيزنطة على الدخول فى تحالف لمساعدة المملكة الصليبية الا ان الحملة غيرت من هدفهـــا بعد حلول الصليبيين فى القسطنطينية وعندما لم ينفذ الكسيوس الرابع انجيلوس وعـــده عصف الصليبيون بالمدينة فى ابريل ١٢٠٤ وتأسست مملكة القسطنطينية اللاتينية وأصبح بلدوين أول امبراطور للمملكة الجديدة وأصبح أحد البنادقة أول بطريرك لاتينى لها وقســـمت الامبراطورية ، مثلها مثل كل الاســـلاب ، بين المنتصرين •

اذن كان تقويض الوجود البيزنطى المسيحى أحد الأهداف الأساسية للحركة الصليبية ولأن هـذا الهدف لم يكن معلنا عنه فى أوربا فقد أثار هذا السلوك الصليبى تجاه بيزنطة المسيحية غضب الرأى العام الأوربى للهجوم الذى شنه الصليبيون على الامبراطورية المسيحية حيث فضـــل الكثيرون الرحيل الى القسطنطينية الغنية والأقل خطـــورة من الوجود الصليبى فى الأرض المقدســـة • ولم يتوقف الأمر عند هـــذا الحد من الاخضاع السياسى لبيزنطة ولكن بدأ تدهور الوجود المسيحى الارثوذكسى وتعرض للخطر بسبب الوجود الصليبى • ولنأخذ مثالا على ذلك بالطائفة اليونانية التى كانت من أكبر التجمعات المسيحية فى الشرق وقد تركزت قوتها فى المقاطعات الشمالية وبخاصة فى انطاكية وكان لها وجود قوى فى المملكة اللاتينية فى فلسطين وكانت كنيستها قبل وصـــول الصليبيين من أغنى الكنائس المسيحية فى الشرق وأكثرها نظاما تحت الحكم الاسلامى ومن المحير أن الصـــليبيين الذين أقســـموا فى كليرمونت على تحرير المسيحيين الشرقيين من خطر الاسلام يتحولون الى منافسين على الحكم ويصارعون من أجل وضع المسيحيين الشرقيين تحت سيادتهم السياسية ووضع الكنيســـة الشرقية تحت سيادة الكنيســـة اللاتينية • فاليونان

لم يكونوا هراطقة من الناحية العقائدية بل كانوا فى رأى اللاتين منشقين فقط ومنفصلين عن روما مؤقتا كمـــا تعشــم اللاتين الذين لم يكونوا يتصورون موقفا يكونون فيه تحت سيادة رجال الدين اليونان · كما لم يكن ممكنا على أساس لاهوتى تصور قيام سلطة دينية موحدة يونانية لاتينية · ونتيجة لهـذه التطلعات حل بطريرك لاتينى مكان البطريرك اليونانى فى انطاكية والقدس بعد الغزو الصليبى مباشرة كما خلع الصليبيون أساقفة الكنيسة الارثوذكسية اليونانية واعلنوا خلو الكراسى الأسقفية ثم عينوا أساقفتهم وطالبوا رجال الكنيسة اليونانية بالاعتراف والخضوع للبطاركة والأساقفة اللاتين الجدد ·

وقد أدت هذه القرارات الى زيادة حدة الصراع الدينى بين اليونان واللاتين واضطر رجـــال الدين اليونان الى الانســـحاب والرجوع الى القسطنطينية بعد حرمانهم من كراسيهم الأسقفية وتوالى وصـــولهم الى العاصمة البيزنطية كأساقفة اسميين للبلاد التى هزمها الصليبيون بينما بقيت الطبقات الدنيـــا من رجـــال الدين فى المقاطعات الصليبية معلنة خضوعها الأسمى للكنيسة اللاتينية · وقد مرت الكنيسة اليونانية بمرحلة تدهور فى ظل الحكم الصليبى حيث تعرضت للاضطهاد الصليبى المستمر · ومن وجوه هذا الاضـطهاد ان تأسيس الكنائس اللاتينية فى الشرق كان يصحبه عادة اتلاف وتخريب الكنائس اليونانية · وقد اتضح هـــذا فى الكنائس الكبيرة وفى المدن بالذات وقد وجدت هذه الأعمال تبريرا لها فى ان اللاتين هم الوريث الشرعى للأملاك اليونانية السابقة كما اعتقد ·

وبالاضافة الى هذا الموقف الذى اتخـذه الصليبيون من الكنائس الشرقية عامة ، على الرغم من دعوى تحرير المسيحيين الشرقيين من خطر الاسلام ، نجـد كثيرا من المظاهر التى تعطى لنـا صـورة عن الافلاس الايديولوجى للحركة الصهيونية والاضـطراب المعنـوى الذى عانى منه

الصليبيون والذى يدل فى نفس الوقت على ان الاسس الدينية التى ادعاها القادة الصليبيون أسس واهية كما ان شعار تحرير الأرض المقدسة لم يكن الا شعارا زائفا سقط عند أول اختبار ٠ فالطريق الطويل الشاق الى الشرق والوان المعاناة والأمراض التى عانت منها القوات الصليبية خاصة خلال حصار انطاكية ٠٠ كل هذا سبب نوعا من الاضطراب المعنوى بين صفوف الصـــليبيين فنشبت الصراعات بين قادة الصـــليبيين وظهرت اطماعهم الحقيقية حيث بدات التحديات بين بوهيموند مخطط نصر انطاكية وريموند حيث ادعى كل منهمـــا المدينة لنفســـه متجاهلين الاتفاق المعقود مع الامبراطور البيزنطى ٠ واثناء هـذا الصراع انطلق القـادة الصليبيون والرؤساء والفرسان الى الريف المجاور لانطاكية كل يحاول ان يحصـل لنفسه على بعض الأملاك الخاصة ونظرا لضعف مقاومة الوطنيين سرعان ما أصبحت القرى والمـــدن وقلاع افرنجية وقد اعجبتهم الحيـــاة فى انطاكية وضواحيها أضحت اقامة دائمة وساد الاحساس بأن أنطاكية قد حلت محل القدس كما ان نهر العاصى اخـذ مكانة نهر الأردن فى عيون الصليبيين ٠ ولولا يقظة المستويات الشعبية من افراد الصليبيين وحماسهم الدينى الذى أدى الى ثورتهم ضـــد زعمائهم وقادتهم لاستقر هؤلاء فى انطاكيـة واصبحت نهاية المطاف بالنسبة لهم ؛ اذ لم يتنازل القـادة عن أطماعهم وصراعاتهم الا عندما هدد فقراء الصليبيين بحرق انطاكية وهدم أسوارها اذا لم تتحرك الجيوش الى القدس ٠

نتيجة لهذه المواقف التى اتخذها القادة الصليبيون بدات تظهر فى أوربا موجة من التذمر بسبب سلوك الصليبيين تطورت الى نقد شـديد للحركة أخذ الطابع الهجومى فى البداية ثم تحول بعد ذلك الى تحليل جاد للأزمة الايديولوجية التى وقعت فيها الحركة وقد بدأ البعض يتساءل عن الالهام الالهى الذى ادعاه الصليبيون وفى ظل هذا النقد بدأ الاستعداد للحملة الرابعة التى أشارت اكثر من غيرها الى عمق الافلاس الايديولوجى

للحركة فقد اثبتت الحملة الرابعة أكثر من غيرها ان الاطماع المادية هى التى تحرك القادة الصليبيين فبعد سنوات من الاستعداد تجمعت قوات الصليبيين فى البندقية وبعد عام تم حصار القسطنطينية المسيحية وبدأت حملة من الاتهامات والاتهامات المضادة بين قادة الجيوش الصليبية . ولا يزال المؤرخون يبحثون عن الأسباب التى دفعت بالقوات الصليبية الى الاستيلاء على القسطنطينية المسيحية وهى ليست هدفا للحملة وليس هنا سبب واضح سوى اطماع القادة وخاصة بارونات الشمال بالاضافة الى الاطماع الخاصة بالبنادقة حيث اصبح بلدوين أول امبراطور لملكة جديدة هى مماكة القسطنطينية اللاتينية كما اصبح احد البنادقة أول بطريرك لاتينى للمدينة كما اسست البندقية امبراطوريتها البحرية فى بحر أيجة على حساب القسطنطينية المسيحية .

وتعطينا الحملةالخامسة مثالا آخر . فقد وضحتهذه الحملة الصراع الخفى بين الكنيسة والدولة والذى تمثل فى التحدى الصارخ لسلطة البابوية والذى أبداه الامبراطور فردريك الثانى . فقد حمل فردريك القسم الصليبى منذ عام ١٢١٥ م ولكنه ظل يؤجل حملته عاما بعد عام مدعيا اعتلال صحته ووجود مشاكل تواجه حكمه فى مملكة صقلية وفى الامبراطورية . وأخيرا عزم فردريك الثانى على البر بقسمه ولم يكن هناك مفر من ذلك لأسباب عدة منها قسمه الصليبى وكونه امبراطورا فى عالم مسيحى ثم لقبه كملك القدس من خلال زواجه من ازابللا وريثة الملكة . وهكذا فرضت هذه الحملة نفسها فرضا على فردريك الثانى وقد زادت الظروف السياسية من غرابة هذه الحملة فقد حدث ان تبرم البابا جريجورى التاسع من تقاعس فردريك الثانى وعدم بره بما حمله من القسام صليبية فاصدر قرارا بحرمان فردريك الثانى وقد كان هذا ، على حد تعبير براور ، الفصل الأول فى مشهد غريب : الامبراطور المحروم حاكم العالم المسيحى يقود حملة صليبية الى الشرق " ومن هنا

فقد تصرف فردريك الثانى بطريقة لا تظهر أى التزام بالكنيسة أو احترام للسلطة البابوية اذ اتصل فردريك الثانى بالملك الكامل حاكم مصر فى محاولة للدخول معه فى معاهدة وادى نجاحه الى زيادة غضب البابا وتقدم فردريك الثانى الى القدس واستولى عليها دون اشتراك قوات النظم العسكرية وقد أسكتت أجراس المدينة واصبحت المدينة المقدسة مدينة محرمة لان فاتحها ملك حكمت عليه الكنيسة بالحرمان • ومع عودة فردريك الثانى الى أوربا رفع عنه البابا قرار الحرمان الا ان المملكة الصليبية عانت الأمرين من الصراع بين ممثلى الامبراطور وممثلى البابا والاستقراطية الصليبية • وبدأ تحلل المملكة داخليا وتحولت الى اقطاعية كبيرة فى يد قلة حاكمة •

وهكذا وضحت الحملات الصليبية بصفة مستمرة عدم التناسق بين الدين والدولة وتصارع المثل الدينية والأطماع العلمانية وتفاقم النزاع بين البابوية من ناحية وحكام المملكة الصليبية من ناحية أخرى بالاضافة الى اظهار الصراع بين الوافدين الجدد من الصليبيين مع كل حملة صليبية جديدة والارستقراطية الصليبية التى استقرت فى المملكة منذ الحملة الأولى وكيف ان الحكم قد تركز فى يد اقلية اقطاعية حاولت أن تقيم فى الشرق ما لم تستطع تحقيقه فى بلادها • فقد تكالب الحكام الصليبيون على انشاء الأقطاعيات الجديدة فى أرض بعيدة لأمراء ونبلاء ازدحمت بهم أوربا ولم يجدوا مكانا داخل النظام الاقطاعى الأوربى العتيد •

وبالاضافة الى هذا توافرت بعض الأمور الأخرى التى تجعلنا نحكم على الحركة الصليبية بانها لم تكن حركة دينية اصيلة ولكنها كانت حركة سياسية معبرة عن واقع أوربا السياسى فى ذلك الوقت لبست رداء الدين لتحقق مطامع سياسية اقتصادية ولتفتح المجال أمام نبلاء أوربا وترفع من شأن الاقتصاد الأوربى فى نفس الوقت • ومن هذه الأمور التى تثير

الشك حول الأصول الدينية للحركة الصليبية أنه من بين الاقطاعيات العديدة التى تم تكوينها فى المملكة الصليبية فى فلسطين لم تنشأ اقطاعيات دينية تناسب الادعاء الدينى والمساندة البابوية للحملات الصليبية وتوافق الشكل الدينى الظاهرى الذى أخذته الحركة والشعارات التى تشدقت بها من تحرير للارض المقدسة واستعادة بيت المقدس وتأديب « الكفرة » الى آخره من النداءات التى أعطت الحركة شكلها الدينى الذى ظهرت به أمام الرأى العام الأوربى . وهنا يجب ان نشير الى أنه كان من المتوقع بعد قيام المملكة الصليبية أن نرى المملكة تنظم على شكل يعكس الدعاية الدينية السابقة للحركة ويعبر عن الدعوى الدينية التى انطلقت الحملة الصليبية لتنفيذها ولكن ما حدث عدم جدية هذه الدعوى وظهرت الايديولوجية الصليبية على حقيقتها وتم الاستغناء تماما عن كل التطلعات المسيحانية والآمال الكنسية وبدأت عملية تنظيم شؤون المملكة الجديدة فى الأراضى المهزومة على أساس النظام الاقطاعى الأوربى فقد نظم الصليبيون دولتهم وفقا للتراث الذى نقلوه معهم من أوربا على الرغم من ان الظروف الاقتصادية الجديدة هيأت للقادة الصليبيين فرصة الابتعاد عن تطبيق النظام الاقطاعى الأوربى فى الشرق . فبعد جيل كامل من الصعوبات والمشاكل نتج عن ادخال الاقطاع كنظام حكومى أن قسمت المملكة الى عدد من الاقطاعيات الاميرية التابعة للتاج فى القدس وكان واضحا منذ البداية ان اللوردات والبارونات الصليبيين كانوا أكثر انتظاما وتدريبا من رفاقهم الأوربيين نتيجة لحالة الطوارئ المستمرة من ناحية ونظرا للبناء الاجتماعى الغريب لنبلاء الصليبيين حيث ان معظم الذين قرروا البقاء فى الأرض المقدسة لم يكونوا ينتمون أصلا الى البيوتات الكبيرة من بيوتات نبلاء أوربا بل كانوا فى معظم الاحوال من طبقة فرسان أقل فى نبالتها من طبقة النبلاء الذين اختصت بهم بلاطات الحكام الأوربيين . وقد سهل هذا مهمة الحكم اذ لم يجد الملك الحاكم فى

القدس معارضة من البارونات خلال الجيل الأول من الوجود الصليبى ٠ وظلت الاملاك والاقطاعيات الملكية واسعة وغنية ٠ ولكن الظاهرة الغريبة هى انه على الرغم من الدوافع الدينية التى ادعاها الصليبيون خلت المملكة الا من القليل جدا من الاقطاعات الدينية وقد كانت على قلتها صغير وفقيرة ومحصورة فى بعض بقاع من اللد وبيت لحم والناصرة ٠

ومن الأمور الأخـرى التى تؤكد علمانية الحركة الصليبية غياب التبشير الدينى بين سكان فلسطين من ملسمين أو يهود فالادارة الصليبية لم تبذل اى جهد يذكر فى هـذا الاتجاه ٠ ولا شك أن الرغبة فى تحرير الأرض المقدسة من قبضة « الكفرة » كان لابد وان تتلوها محاولة تحويل هؤلاء « الكفرة » وهدايتهم الى المسيحية لو كانت هذه الرغبة أصيلة فى نفوس القادة الصليبيين ٠ ولكن الظاهرة الواضـحة أن الصليبيين فى الأرض المقدسة لم يهتموا بالتبشير للمسيحية بل لقد عزلوا عن الوطنيين ولم يختلطوا بهم اجتماعيا وتركوهم لشأنهم فيما يتعلق بادارة شئونهم الداخليـة ولم يفرضوا عليهم اى نظام خارجى فيما عدا بعض الأمـور المتعلقة بالحكم والادارة ٠ وقد كان هـذا قرارا خطيرا كان من نتيجته هجر اى عمل تبشيرى منظم على مستوى المملكة ككل بين المسـلمين أو اليهود أو حتى بين المسيحيين الشرقيين ٠ وهذا هو السبب المباشر فى أن الأرض المقدسة ، على الرغم من وقوعها تحت السيادة الصليبية الا انها لم تصبح مسيحية ٠ فقد ظل غالبية سكان غير مسيحيين ٠ ويعلق براور على هذه الظاهرة التى يعتبرها غريبة بقوله : « ومرة اخرى يصطدم المثال بالواقع ويملى الواقع شروطه القاسية للاستسلام ٠ فقد كانت هناك فرصة ان تعود الساعة ثلاثة مائة عام الى الوراء ٠ ويعاد خلق الدولة المسيحية كما وجدت تحت الحكم البيزنطى قبل ان يقهرها الفرسان البدو القادمون من اعماق الصـحراء ليقيمون الحكم الاسـلامى ٠ ولكن الصليبيين لم يستغلوا هذه الفرصـة فالتحويل الى المسيحية لم يكن ابدا هدفا من

اهداف الصليبيين ولا جزءا من برنامجهم كما لم تسمح موجات الهجرة الأوربية بالتغطية على السكان الوطنيين » • والحقيقة ان سياسة عدم التدخل فى شؤون الوطنيين التى اتبعتها الادارة الصليبية ادت الى عدم احداث اى تغيير جذرى فى النظام الادارى الاسلامى السابق على قيام المملكة الصليبية ومن الناحية الدينية ضمنت الجماعات الدينية والطوائف المختلفة استقلالها الدينى فى ظل الحكم الصليبى • وقد ساعد على ذلك غياب الاهتمام الدينى لدى جماعات الصليبيين وخلو غزوهم من الهدف التبشيرى هذا وان لم تسلم بعض الطوائف من مضايقاتهم كما ذكرنا من قبل •

اما التبشير كحركة منظمة فلم يبدأ الا بعد قرنين من سقوط عكا ومع اكتشاف العالم الجديد • ومع ذلك الوقت كانت فكرة الحرب الصليبية قد ضعفت وانتهى عهدها ولكنها لم تمت تماما حيث استمر العداء بين الغرب والشرق ولكن الظروف غيرت فكرة الحرب المقدسة من هجوم مسلح على الاسلام الى حرب للدفاع عن المسيحية ضد قوى الاسلام المحيطة بها خاصة وان الاسلام فى ذلك الوقت كان يمثله العرب من أهل الشرق والأتراك العثمانيين ايضا ويمكن القول هنا بان هذا التغيير ربما كان تاثيرا اسلاميا مباشرا على التفكير المسيحى حيث اقتبس المسيحيون فكرة الجهاد الاسلامية ولا تستطيع تحديد الفترة الزمنية التى تم فيها اقتباس هذا المبدأ الاسلامى اذ من الممكن ان يكون المسيحيون فى أوربا قد عرفوه من اختلال احتكاكهم العسكرى بالمسلمين خلال فترة الحروب الصليبية وربما كان ايضا من نتائج الاحتكاك المسيحى بالاسلام فى الأندلس ومهما كان الأمر فان المواجهة الجديدة بين المسيحية والاسلام ارتبطت بحركة التبشير التى كانت عنصرا غائبا فى سياسة الصليبيين • ويمكن القول بانه اذا كانت الحركة الصليبية قد هجرت التبشير بين المسلمين الا ان الحركة التبشيرية التى بدأت بعد تلك كانت واحدة من

النتائج غير المباشرة للحركة الصليبية • ففشل هـــذه الحركة وافلاس الايديولوجية الصليبية والنقد اللاذع الذى تعرض له الصليبيون •• كل هذا كان له دوره الهام فى وضع نهاية للحروب الصليبية ولكنها لم تضع نهاية للعداء بين الغرب المسيحى والشرق الاســلامى • وقد تسبب هــذا النقد فى تحويل العلاقات المسيحية الاسلامية من علاقات حرب علنيـــة لا تبشير فيهـــا الى حرب تبشيرية علنية • فقد عارضت الطبقة الأوربية المثقفة الايديولوجية الصليبية ابتداء من الحملة الصليبية الثانية وبدأت توجه نقدها لقادة الحركة ولتورط البابوية فيهـــا والى جانب المثقفين عارض كثير من النســـاك والرهبان والمتدينين من المسيحيين سياســـة الحملات الصليبية المتتالية وراوا فيها انتهاكا لرسالة الحب والسلام التى هى من صلب الدعوة المسيحية وابدوا شكوكهم فيما ادعاه الصليبيون من الهام الهى لحركتهم وذلك لأن سفك الدماء يناقض التعاليم الانجيلية • ومن داخل هذا النقد بدرت فكرة جديدة وهى التبشير بالاناجيل للمسلمين وتحويلهم سلميا الى المسيحية • وقد بدأت هذه الحركة التبشيرية بحملة علمية ترجم القرآن الكريم على اثرها الى اللاتينية حتى يتمكن علمـــاء الغرب المسيحى ورجال الدين من قراءته وفهم الاسلام للرد عليه ومهاجمته وسرعان ما انشئت مدارس اللغات الشرقية فى الجامعات المشـــهورة فى أوربا فى ذلك الوقت لمعرفة لغات العالم الاســلامى واللغة العربية على وجه الخصوص وقد خرجت هــذه المدارس اجيــالا متعاقبة من المبشرين والوعاظ الذين حملوا رسالة التبشير وانتشر الدومنيكان والفرنسيسكان فى ربوع العالم الاســلامى يبشرون ويعظون ويجادلون ويعمدون بادئين بهذا حركة تبشيرية واسعة النطاق ارادت غزو العالم الاسلامى بالكلمة بعد أن فشل السيف فى فرض السيادة الغربية المسيحية ووضعت اساسا نظريا علميا للمواجهة مع الاسلام بدلا من المواجهة العسكرية التى تبناها الصليبيون •

وبعد .. فقد قدمنا فى الصفحات السابقة بعض المظاهر التى دللنا بها على عدم صحة الدعاوى الدينية التى تبناها زعماء الحركة الصليبية فى محاولة منا لاثبات الاسس السياسية الاقتصادية للحملات الصليبية وبقى ان نضيف الى هذه الأدلة آراء علماء اللاهوت والمفكرين المعاصرين للحروب الصليبية فى صلاحية هذه « الحملات العسكرية وشرعيتها والحق ان اشهر رجال اللاهوت المسيحى فى العصر الوسيط امثال لومبارد Lombard واكويناس Aquinas وبونافنتير Bonaventure لم يتعرضوا فى كتاباتهم اللاهوية لمسألة شرعية او عدم شرعية الحروب الصليبية . ولا نعلم ان كان هذا الصمت من جانبهم يعنى موافقتهم على الدعائم الدينية التى استندت اليها الحركة الصليبية حتى ان احد رجال الدين المسيحى المعاصرين وهو الأب ادوارد ستان علق على هذا الأمر بقوله : « انه اذا كان معظم المسيحيين المعاصرين يعتبرون الحروب الصليبية فضيحة فان غياب الحديث عنها فى الأعمال اللاهوتية العظيمة فى العصور الوسطى يسبب لنا بعض الاضطراب » (١١) ويوجه ستان نقده بالذات الى توماس اكويناس اذ كان من المتوقع ان يتعرض اكويناس لموضوع الحروب الصليبية فى عمله الرئيسى Summa Theologia . وكان اخوه الأكبر ايمون Aimone قد انضم الى صفوف الصليبيين واشترك فى حملة فردريك الثانى ووقع فى الأسر عام ١٢٣٢ والغريب أن المسيحيين فى قبرص هم الذين اسروه وطلبوا منه فدية وقد توسط له وانقذه البابا جريجورى التاسع فى ١٢٣٣م ولتوماس اكويناس أخ آخر يدعى رينالدوس Raynaldus وهو من التروبادور وقد انضم الى البابا ضد الامبراطور ودفع حياته ثمنا لولائه للبابا .. كل هذه الأسباب كانت كافية لكى يهتم توماس اكويناس بالحروب الصليبية ولكنه تجاهلها تماما والاشارة الوحيدة اليها تبين انه كان يعتبر الحروب الصليبية امرا لا غبار عليه ففى هذه الاشارة يدافع

اكويناس عن حق نظم الرهبنــة العســكرية كفرسان الداوية Templars والاسبتبارية Hospitallers فى الوجود على أساس ان الكنيسة أعتادت ان تفرض على الراغبين فى التوبة فرصة الاشتراك فى حملة لمساعدة الأرض المقدســة ويعتبر الموت بعد العودة من الأرض المقدســة والوفاء بالقســم الصليبى أفضل من الموت أثناء الذهاب ٠ وينتهى الباحث الى ان الراغب فى معرفة الآراء الخاصة بشرعية الحروب الصليبية عليه ان يبحث عن ذلك بعيداً عن كتب اللاهوت(١٢) ٠

وقد لقيت الحروب الصليبية معارضة من الرأى العام الأوربى عبر عنهـا فى كتـابات مختلفــة ففى The Wurzburg Annals لعام ١١٤٧ نقــرأ : « قضى الله على الكنيســة الغربية ان تعذب بذنوبها لأن بعض الأنبياء الكذبة ٠٠٠ أساءوا هداية المسيحيين وأغروهم بالكلمات الخاوية والوعظ الباطــل وأجبروا كل الجنس البشرى على الخـروج ضــد المسلمين من أجل تحرير أورشليم »(١٣) ويعلق Gerhoch of Reihersberg على خســائر الحملة الثانية بين الفرق الألمانية والفرنسية من الجيش الصليبى متعجبا بقوله : « أورشليم ٠٠٠ أورشليم ٠٠ التى قتلت ورجمت الأنبياء الذين أرسلوا اليها ٠٠ ماذا كنت تنوين فعله لتزيدى قتلى جدد ، من المسيحيين هذه المرة ، الى القتلى القدامى » (١٤) ومن النقد الذاتى نجـد أحـد المسؤولين عن الحملة وهو Abbot Bernard of Clairvaux يقول معلقا بعد فشل الحملة : « ٠٠٠ الرب اثارته ذنوبنا فأدان العــالم قبل الأوان وقد أدانه فى عدالة ولــكن بدون رحمـــة اذ أنه لم يبق على شعبه ولم ينقذ اسمه أليس يقولون بين الأمم : أين هو الههم ؟ » (١٥) ٠

وبعـد عامين من سـقوط القـدس كتب رالف نجر Ralph Niger حوالى ١١٨٩ م ينقد الاستعداد للحملة الصليبية الثالثة للأسباب التالية وهى أن الالحـــاد والهرطقـــة فى أوربا تهدد الديانة المسيحية اكثر من

خسارة أورشليم الأضية فى فلسطين ويقول : ما الفائدة ان تبنى أورشليم الأرضية بينما امنا صهيون تنهار وما الفائدة ان تتحرر فلسطين من المسلمين وينتشر شر الكفر فى الداخل وبينما نهاجم الكفر فى الخارج تداس طهارة الايمان تحت الأقدام ويسخر بها فى الداخل » (١٦) ورالف هنا يشير الى حركات الالحاد والهرطقة التى انتشرت فى أوربا فى ذلك الوقت والتى اعتبرها أكثر خطورة على المسيحية من خطر الاسلام ٠ ويعطى رالف سببا آخر يتعلق بمعنويات السكان المسيحيين فى فلسطين فقد تدهورت أخلاقياتهم وأصبحت حياتهم الدينية لا تتعدى المظاهر الشكلية لأسباب كثيرة منها الثراء الفاحش والترف الذى ينعم فيه رجال الدين وبخاصة البطريرك الذى جاء على حد تعبيره يشحذ فى الغرب لمساعدة المسيحيين ضد المسلمين وهو نفسه غير مستعد لرفع أصبع أو ان ينفق من ماله الخاص ضد المسلمين ٠ لقد فقدت الأماكن المقدسة فى رأى رالف بسبب ذنوب المملكة اللاتينية ومنها الخيانة والتعاون مع العدو المشترك لدرجة تسليم صليبيين غربيين اليه ٠ والسبب الثالث الذى يقدمه رالف هو ان فلسطين أصبحت ملجأ لمجرمى الغرب والهاربين من العدالة ولم يمدح رالف أحدا فى المملكة اللاتينية فى الشرق سوى النظم العسكرية أما البقية فتستحق ما وقع بها من مصائب فى فلسطين ، اما بالنسبة للمسلمين فقد تحدث رالف فى صالحهم وضد شرعية الحروب الصليبية فهو يقول « ربما كان أمن المسلمين وسلامتهم من ارادة الله وذلك لان الأرض جميعها ملك لله يعطيها لمن يشاء ويأخذها ممن يشاء » (١٧) ٠ ولا يعنى هذا ان رالف لا يود هزيمة المسلمين ودخولهم فى المسيحية ولكنه ساخط على السلوك الصليبى واستخدام الحرب كوسيلة لقهر المسلمين ٠ وينصح رالف بضرورة غزو المسلمين بالكلمة حتى يدخلوا المسيحية عن طواعية « لأن من يسعى لنشر الدين بالقوة والضعف فهو يذهب بعيداً عن الدين بالاضافة الى ان الله لا يريد موت الآثم والمسلمون

بشر مثلنا ومن المعقـــول ان نرد هجومهم ولكن يجب ان تكون معتدلين فى ذلك » (١٨) وينقد رالف أيضـــا زعمـــاء الحركة الصليبية ويسميهم الأنبياء الكذبة ويتهمهم وعلى رأسهم القديس برنارد بأنهم سبب الدمار الذى نتج عن الحملة الثانيـــة والخطر الذى تعرضت له الأرواح ويعتبر الحملة الصليبية الثانية حملة لم يباركها الله كمـا لم يبارك حملة آحاب الذى سار حسب نصيحة الأنبياء الكذبة ويوجه نقده أيضـــا الى رجال الدين فيقول ان رجال الدين لا يحق لهم الذهاب مع الحملة لانهم لا فائدة منهم فى الحرب بالاضـــافة الى العبء الذى يمثلونه على الجيش المقاتل فهم لا يفعلون شيئا ويلتهمون من الطعـــام ما يجب ان يكون من نصيب الجنود المقاتلين · ويواصل رالف نقده للنظام الصليبى فينصـــح ان تبقى النســـاء فى بلادهن ولا ترحلن الا بعـــد ان تظهر نتـــائج الحمـــلات وهن بلا شـــك عنصر ضرورى لتعمير البـــلاد المفتوحة · كما ان الفقراء يجب ألا يذهبوا لانهم أيضـــا عبء ولا يستطيعون تســـليح أنفسهم أو امـــداد أنفسهم بالمؤن الكافية · أما عن قدامى الفرسان فذهابهم أيضا ليس ضروريا فهم وان كانوا يعطون للحملة الهيبة والشرف الا انهم بدون منفعة ويجب عليهم البقاء فالشباب من الفرسان أكثر نفعا وأكبر قدرة على القتال ·

وواضح من هذا النقد الصريح للحملات الصليبية ان رالف لا يوافق اساسا على سياسة الصليبيين العسكرية ولكنه يعلم ان رفضه لا تأثير له على زعماء الحركة فيكتفى بتقديم النصيحة ويطلب اجـــراء تغييرات جذرية فى سياسة النظام الصليبى فالحرب فى نظره للفرســـان الشباب ولا مانع ان يذهب الى الشرق عدد قليل جدا من رجال الدين لادارة الأمور الدينية للجيش وهو يتعجب ساخرا لماذا يذهب كل هذا العدد من رجـــال الدين « لرعاية واحدة من النعاج فى الخارج بينما يوجد فى داخل البلاد تسعة وتسعين نعجة » (١) · وهكذا عبر رالف بالنيابة عن عصره عن عمق الهاوية التى سقط فيها الصليبيون · وقد تحدث رالف ضد عالمه

كله فى نفس الوقت الذى كانت تستعد وتجتمع فيه قوى الحملة الصليبية الثالثة · ويعلق الأب ادوارد سنان على تحليل رالف النقــدى للحركة الصليبية فيقول « أنه لأول مرة ـ حسب علمنا ـ يعطينا مسيحى لاتينى رأيا معقولا عن لمــاذا كانت عبارة « الله يريدها » فى عام ١٠٩٥ مثارا للتسـاؤلات وربمــا يجب علينــا اعــادة صــياغة هــذه العبارة لتصبح « الله لا يريدها » "Deus non vult" (١٩) ·

د· محمد خليفة حسن

الهرم اغسطس ١٩٧٩ م

مصـــادر التعقيب :

(١) انظر مثلا : E. A. Synan, The Popes and the Jews in the Middle Ages, the Macmillan Co., N.Y. 1967.

J. Parkes, The Conflict of the Church and the Synagogue, A Study in the Origins of Antisemitism, Atheneum, New York, 1969.

S. Katz, "Pope Gregory the Great and the Jews", the Jewish Quarterly Review, Vol. 24, pp. 113 - 136.

S. Grayzel, The Churcr and the Jews in the 13th Century, Herman Press, New York, 1966.

H. Liebeschutz, "The Crusading Movement in its bearing on the Christian Attitudes towards Jewry", Journal of Jewish Studies, Vol. X, pp. 97 - 111.

W. Porges, "Les Relation Hebraiques des Persecution des Juifs pendant la premier Croisade" REJ, Vol. XXV, pp. 181 - 201, Vol. XXVI, pp. 183 - 197.

J. Katz, Exclusiveness and Tolerance, Oxford Univ. Press, London, 1961.

C. Moehlman, The Christian - Jewish Tragedy, A Study in Religious Prejudice, Rochester, New York, 1933.

(٢) انظر مثلا : S. Baron, A Social and Religious History of the Jews, Columbia Univ. Press, New York, 1952 - 1969.

F. Baer, History of the Jews in Christian Spain, Philadelphia, 1960.

J. Aronius, Regesten zur Geschichte der Juden in fränkischen und deutschen Reiche bis zum Jahre 1272, Hildesheim, G. Olms, 1970.

G. Kisch, The Jews in Medieval Germany, Chicago Univ. Press 1949.

H. H. Greatz, Geschichte der Juden, eleven vols. English translation, Five vols. Philas.

J. Parkes, The Jew in the Medieval Community, London, 1938.

(٣) انظر مثلا : Leon Poliakov, The History of Antisemitism, from the time of Christ to the Court Jews, tran. from the French by R. Howard, Schocken Books, N.Y., 1974.
Alan Davies, Anti-Semitism and the Christian Mind, 1969.

(٤) انظر مثلا : J. Parkes, The Conflict of the Church and the Synagogue, A Study in the Origins of Antisemitism, Atheneum 1969.

(٥) L. Poliakov, The History of Antisemitism, p. 42.

(٦) Migne's Potrologie (Latin) vol. 156.

نقلا عن Poliakov, p. 42.

(٧) Bouquet, Recueil des historiens des Gaules et de la France vol. 12,p. 411.
Poliakov p. 48.

(٨) Bouquet, Vol. 14 p. 462, Poliakov. p. 48.

(٩) Poliakov. p. 48.

(١٠) Poliakov. p. 49.

(١١) Edward Synan, "Theological Discussion of the Crusades by Twelfth Century Christians", a paper delivered at the 1974 Meetings of the American Academy of Religion, Washington. p. 1.

(١٢) انظر مثلا : P. A. Throop, Criticism of the Crusades: a Study of Public Opinion and Crusade Propaganda, Amsterdam 1940.

(١٣) Synan, p. 9.

(١٤) Synan p. 10.

(١٥) Synan p. 10.

(١٦) G. B.Flahiff, "Deus Non Vult : A Critic of the Third Crusade", Medieval Studies Vol. 9 1947 p. 162.

(١٧) Flahiff p. 162.

(١٨) Flahiff p. 162.

(١٩) Flahiff p. 188.

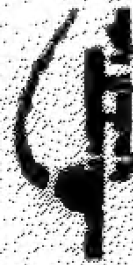
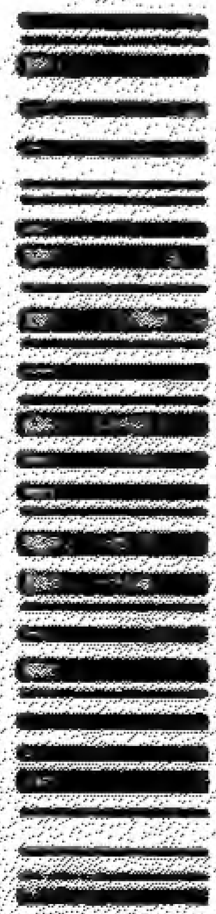
« تم بحمد الله »

محتـــويات الـكتاب

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٥٦٩ / ١٩٨١م

دار نشـــر الثقـافة
٢١ ش كامل صدقي (الفجالة سابقا) القاهرة
تليفون ٩١٦٠٧٦



Bibliotheca Alexandrina
03339630
